

جامعة أم درمان الإسلامية

كلية الدراسات العليا

كلية اللغة العربية

قسم الدراسات الأدبية والنقدية

## أثر الحكام وثقافتهم

# في تطور الأدب في العصر العباسي

( ١٣٢ - ٢٣٢ هـ )

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية

إشراف الدكتور /

صالح آدم بيلو

أعداد الطالب /

محمد محمد عيسى فيض

العام

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَعَلِمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ

اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿

الله  
الصلوة  
العظيم

سورة النساء ، الآية : ١١٢

# الحمد لله رب العالمين

## إلى روح والدي الطاهرة

## إلى والدى الحنونة

## إلى جميع أفراد أسرتي السعيدة

وإلى كل من ساهم في إخراج هذا

البحث إلى النور .

أهدي هذا العمل المتواضع .

الباحث

# شكر وتقدير

يقدم الباحث بجزيل الشكر إلى الدكتور :

**مصطفى محمد أبوشعالة**

الذي تفضل مشكوراً بالموافقة على الإشراف على  
هذا البحث ، ومنح البحث وصاحبـه من علمـه ووقته  
الشيء الكثير ، فله بالـغ التـقدير ، وخالص العـرفـان.

كما يتقدم بالـشـكرـالـجـزـيلـإـلـىـالـدـكـتـورـ منـ  
جـمـهـورـيـةـ السـوـدـانـ الـذـيـ لمـ يـبـخـلـ عـلـىـ الـبـاحـثـ بـنـصـائـحـهـ  
وـتـوجـيهـاتـهـ ، فـإـلـيـهـ يـدـيـنـ الـبـاحـثـ بـكـلـ الـوـلـاءـ ، فـمـنـهـ تـعـلـمـ  
الـبـاحـثـ أـنـ إـلـإـنـسـانـ الـبـسيـطـ الـذـيـ يـتـواـضـعـ بـعـلـمـهـ هـوـ  
أـعـظـمـ النـاسـ .

كـمـاـ يـتـوجـهـ الـبـاحـثـ بـالـشـكـرـإـلـىـ كـلـ مـنـ أـمـدـهـ  
بـالـعـونـ الشـخـصـيـ وـلـوـ بـنـصـيـحةـ أـوـ كـلـمـةـ طـيـبةـ.

الباحث

## ملخص البحث

يهتم البحث الحالي بدراسة أثر الحكام وثقافتهم في تطور الأدب في العصر العباسي (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) ، وقد تضمن هذه البحث أربعة فصول ، حيث تناول الفصل الأول أهمية التأثير الثقافي عند الطبقة الحاكمة ، وقد اشتمل على ثلاثة مباحث ، المبحث الأول الاهتمام الديني ، والمبحث الثاني التأثير الأدبي والعلمي ، والمبحث الثالث الاهتمام بالثقافات الوافدة ، حيث تناول هذا الفصل أهمية التأثير الثقافي عند الطبقة الحاكمة ، والاهتمام الديني والعلمي، وتأثير الخلفاء برجال الدين، والتأثير السلوكي ، ثم تناول التأثير الأدبي واللغوي ، والاهتمام بالشعر القديم ، والاهتمام بآداب عصرهم وما تبع ذلك من المستوى الفني عند الطبقة الحاكمة ، ثم الاهتمام بالثقافات الوافدة ، وتناول البحث بعض الحكام الذين تزودوا بثقافات غير عربية ، فارسية كانت أو هندية أو يونانية ، وتناول التباين الثقافي بين الخلفاء ، وتناول الفصل الثاني اهتمام الطبقة الحاكمة بالأدب والنهوض به، وقد اشتمل على ثلاثة مباحث ، المبحث الأول الدعم المالي ، والمبحث الثاني الدعم الثقافي والعلمي ، والمبحث الثالث الدور السياسي ، حيث تناول هذا الفصل الدعم والأدوار المختلفة التي قام بها الحكام من أجل النهوض بالعلم بصفة عامة والأدب على جه الخصوص ، وقد تعددت هذه الأدوار ، من دعم مالي، ويعرض البحث فيه للجوانب المختلفة التي أنفق الحكام الأموال فيها من أجل النهوض بالأدب ، كبناء المكتبات العامة ، وتشجيع العلماء والإنفاق عليهم إلى غير ذلك ، ودعم ثقافي وعلمي يعرض البحث فيه للنحوات الأدبية داخل فصول هؤلاء الحكام ، وللنقد الفني لهم وانعكاساته على الأدب ، ثم دورهم في تأليف بعض مصادر الأدب المهمة كالأغاني ، والحيوان ، والبيان والتبيين ، والمفضليات ، ودور سياسي يعرض البحث للأجواء السياسية المحيطة بالحكام والتي تناولها الأدباء في فنهم شعراً ونثراً ، وتناول الفصل الثالث التجديد في الشعر العباسي، وقد اشتمل على ثلاثة مباحث المبحث الأول الاهتمام بالمدح ، والمبحث الثاني الاهتمام بالغزل ، والمبحث الثالث الاهتمام بالهجاء وتناول هذا الفصل أهم أغراض الشعرية التي ترك الحكام فيها أثراً بيناً ، وقد اتضح ذلك من خلال البحث ،

كالمدح والغزل ، والهجاء والزهد ، والشعر التعليمي ، وشعر الخمر ، وتناول الفصل الرابع دور الحكم في تطور النثر ، وقد اشتمل على مبحثين، والمبحث الأول تطور النثر والنهوض به ، والمبحث الثاني أنواع النثر ، حيث تناول هذا الفصل أثر الحكم في تطور بعض فنون النثر في ذلك العصر ، وجهود الحكم للنهوض بالنثر ، والذي تمثل في الترجمة، والاهتمام بديون الكتابة ، ثم يعرض البحث لأنواع النثر الفني المختلفة من خطب ، ووصايا ، ورسائل وتوقيعات ، ومناظرات ، ويمكن تلخيص نتائج البحث في النقاط التالية :

- ١- أن العصر العباسي (١٣٢-٢٣٢ هـ) كان مملوءاً بالأحداث السياسية المهمة والخطيرة .
- ٢- أن المجتمع في هذا العصر قد ضم بين دفتيه طرفين نقيض في كل شيء.
- ٣- أن هذا العصر - خاصة - شهد نهضة علمية ظهر واضحة المعامل عبر تاريخ العرب الطويل .
- ٤- أن حكام هذا العصر كانوا يحبون العلم ، ومجالسة أهله ، والاهتمام بهم .
- ٥- أن هذه الثقافة التي تتفق بها الحكام كانت متنوعة بين عربية وأجنبية .
- ٦- أن الأدب بشقيه ، الشعر والنثر قد تأثر بثقافة الحاكم.

## **Research Abstract**

This research interested in studying the impact of rulers and their culture on the evolution of art in Abbasid Era (١٣٢-٢٣٢ h), the research comprises of four chapters. The first chapter tackles with the significance of cultural influence of ruling class. The first chapter consists of three subjects, first subject is religious interest, second subject is about scientific and literary impact, and third subject is on the attention paid to the newcomer cultures. Where the research handles in this chapter the significance of the cultural impact to the ruling class, religious and scientific interest, the influence of Caliphs by clergy, besides; the behavioral effect. Then, the chapter discusses the literary and linguistic impact, interest in old poetry and literature of their own time and , subsequently, the imprint of that on artistic level of ruling class. The interest of incoming cultures. The research indicates to some rulers who had been privileged with non-Arabic cultures, that is; Persian, Indian, or Greek. Along with the cultural Variation between the Caliphs. In the second chapter the research studies the interest of the ruling class with art and their role in its rise. This chapter consists of three subject. The first chapter is about financial support, second subject is focus upon cultural and scientific support, and the third subject is about the political role. This chapter illustrates the support and different roles the rulers had assumed to promote science generally, and art in particular. The research looks on the different aspects that rulers had spent money for the sake of promoting art, such as building libraries, and to encourage scholars to spend. In terms of cultural and scientific support the research reviews the literary symposiums inside the classrooms of those rulers, the artistic criticism and its effects on art, then; their role in writing some significant resources as "Al-Aqanni", "Al-Haywan", "Al-Bayan wal Tab'een", and "Al-Mufadaliyat". The political atmosphere that had surrounded the rulers and which authors had mirrored in their literature, poems or prose. The third chapter which comes into three subjects, the research examines the revival process in Abbasid poetry. The first subject confines itself to laudation, the second subject is concerned about philandering, and third subject on satire. This chapter deals with the most important purposes of poetry the rulers had left imprint on, such as laudation, philandering,

satire, asceticism, educational poems, "wine" poems. The fourth chapter handles the influence of the rulers on evolution and rise of prose. It comprises of two subjects, the first is on evolution and rise of prose, and the second one is about the types of prose. Where the research reviews the effects and efforts of the rulers in this regard which represented in translation, their interest in writing, the different types of prose such as speeches, commandments, letters, autographs and debates. The results of this research could be summarized as the following :-

- ١. Abbasid era (١٣٢-٢٣٨هـ) was full of significant, serious political events.
- ٢. the society in this era had embraced every types of opposites.
- ٣. this era, especially; witnessed a scientific resurgence, it is obviously mirrored through the long history of the Arab.
- ٤. rulers of this era had highly estimated science, the company and care of scientists and intellectuals.
- ٥. the culture that the rulers bears was of variant roots, Arab and foreign.
- ٦. art, in its two genres poetry and prose, had noticeably influenced by the ruler's culture.

## قائمة المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
أ	الإهداء
ب	شكر وتقدير
ج	ملخص البحث باللغة العربية
هـ	ملخص البحث باللغة الإنجليزية
حـ	المقدمة
<b>الفصل الأول : أهمية التأثير الثقافي عند الطبقة الحاكمة</b>	
٢	المبحث الأول : الاهتمام الديني .
١٧	المبحث الثاني : التأثير الأدبي والعلمي .
٣٦	المبحث الثالث : الاهتمام بالثقافات الوافدة
<b>الفصل الثاني : اهتمام الطبقة الحاكمة بالأدب والنهوض به</b>	
٤٥	المبحث الأول : الدعم المالي .
٧١	المبحث الثاني : الدعم الثقافي والعلمي .
١١٤	المبحث الثالث : الدور السياسي .
<b>الفصل الثالث : التجديد في الشعر العباي</b>	
١٢٤	المبحث الأول : الاهتمام بالمدح .
١٣٦	المبحث الثاني : الاهتمام بالغزل .
١٤٧	المبحث الثالث : الاهتمام بالهجاء .
<b>الفصل الرابع : دور الحكم في تطور الأدب</b>	
١٦٢	المبحث الأول : تطور النثر والنهوض به .
١٧٠	المبحث الثاني : أنواع النثر .
١٩٩	خاتمة البحث .
٢٠٢	المصادر والمراجع .

## **بسم الله الرحمن الرحيم**

### **المقدمة**

الحمد لله والصلوة والسلام على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه ، وبعد ، دفعت رغبة الباحث إلى أن يقرأ الخليفة المأمون قراءة عميقه ، وأخباره مع الشعرا قراءة أكثر عمقاً ، وعلى الفور وجده شاعراً ونادراً وعالماً ، فانتقل إلى قراءة باقي خلفاء العصر العباسى ( ١٣٢ - ٢٣٢ هـ ) وصلتهم بأدباء عصرهم ، وأنباء ذلك وجد أن الوزراء كان لهم حظ كبير أيضاً من الثقافة والعلم أثرت في مجرى الحياة الثقافية بشكل عام ، وفي نهاية المطاف اهتدى إلى ضرورة دراسة علم هؤلاء الحكام ، وأثره في الحياة الثقافية بصفة عامة وفي الأدب على وجه الخصوص ، فكان تحديد موضوع الدراسة وهو (أثر الحكام وثقافتهم في تطور الأدب في العصر العباسى ١٣٢ - ٢٣٢ هـ) .

ويعني بالطبقة الحاكمة الخلفاء ، والوزراء ، وكبار القادة ، والكتاب ، وبالعصر العباسى الفترة الممتدة من نهاية خلافة الأمويين سنة ١٣٢ هـ ، وانتقال الخلافة إلى أبي العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين ، حتى نهاية حكم الخليفة العباسى الواشق سنة ٢٣٢ هـ .

#### **مشكلة البحث :**

وهي دراسة تعنى بأثر الحكام وثقافتهم في تطور الأدب وتشجيعهم للشعراء والأدباء والعلماء وتزويدهم بالمال ، فضروري أن يؤثر المال في الأدب ، ومن شعراء هذا العصر كبشر بن برد ، ومروان بن أبي حفصة ، وسلم الخاسر ، وأبي نواس ، وأبي العتابية ، ودعبد الخزاعي ، ومطیع بن إیاس ، وأبان بن عبد الحميد ، وغيرهم ، كذلك كبار الكتاب ، والخطباء ، والوعاظ وما كان ذا صلة من أعمالهم بأحد أفراد الطبقة الحاكمة ، ومما أثر كذلك إيجاباً في الشعر والشعراء من تجديد لأغراض الشعر وتطور الأدب .

ومما أثر سلباً في مدح الشعراء للحكام والبالغة المفرطة في المدح ، وفي الغزل الفاحش والتغزل بالغلمان والغلاميات والخمريات .

تتناول الدراسة الآثار الأدبية والثقافية لهؤلاء الحكام من شعر ، ونشر ، وخطب ، ورسائل ، وتوقيعات ، كل هذا لاستبطاط ما لهذه الطبقة الحاكمة من دور مؤثر على الأدب والأدباء .

### **أهداف البحث :**

وتهدف الدراسة إلى إبراز ما لهذه الطبقة من دور في الحركة الأدبية في هذه الفترة ، سلباً أو إيجاباً ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، وما كان لها من بصمات واضحة على الشعر والشعراء ، من تجديد لأغراض قديمة ، أو استحداث أغراض شعرية لم تكن موجودة ، وما كان لها من دور على النثر أيضاً ، ومن ازدهار أنواع ، وضعف أنواع أخرى ، وما كان لها من دور في شيوع ثقافات أجنبية عديدة ، وانعكاسات كل ذلك على الأدب ، وما كان لها من دور في تقويم السنة الشعراء وما كان لها من نقد فني واع ترك أثره على الأدب والأدباء.

### **أهمية البحث :**

وترجع أهمية هذه الدراسة إلى أن الخلفاء في هذا العصر كانوا أهل ثقافة واسعة بجانب كونهم حكام المسلمين ، فكانوا يأخذون أنفسهم بدراسة الأدب واللغة دراسة عميقة ، بل لم يكتف بعضهم بذلك وإنما أخذ ينهل من الثقافات الوافدة من اليونان والفرس والهند ، لذا فقد اجتمعت فيهم صفة العلم بجانب صفة الحكم . إن هذا العصر كان عصر ترف زائد ، بسبب الأموال الهائلة التي كانت تدخل بيت مال المسلمين من الفتوحات الخارجية ، وكانت هذه الأموال تحت تصرف الطبقة الحاكمة إلى حد كبير ، ينفقونها كما يشاءون ، وقد كان لأكياس الشعراء والعلماء والأدباء منها نصيب كبير ، فضروري أن يؤثر المال في الأدب كما يؤثر في أي شيء آخر .

إن الخلفاء في هذا العصر كانوا أقوىاء ، أو كانت الخلافة عربية إلى حد كبير ، خلافاً لما بعده من العصور العباسية ، وكان العصر يموج بنهضة ثقافية شاملة كان للحكام دور كبير في ازدهارها ، وبازدهار الثقافة يزدهر الأدب بالضرورة . هذا إلى جانب حب الباحث الذي لا يستطيع إخفاءه للعمل في أدب هذا العصر على وجه الخصوص لاعجابه الشديد بفنونه وإبداعاته الأدبية .

### **فروض البحث :**

- ١ - كلما كان الحاكم مثقفاً انعكس ذلك إيجاباً بطريقة مباشر أو غير مباشر على تطور الأدب .
- ٢ - يزيد صرف أموال الحاكم في التأثير على الشعراء والعلماء والأدباء وتشجيعهم ، فالمال يؤثر في تطور الأدب كما يؤثر في أي شيء على الإطلاق .
- ٣ - كلما كان الحاكم قوياً وله ثقافة واسعة كان له دور كبير في ازدهار الثقافة وبازدهار الثقافة يزدهر الأدب بالضرورة .

### **حدود البحث :**

وهناك حدود زمنية وحدود مكانية للبحث .  
الحدود الزمنية : وهو العصر العباسي من سنة ١٣٢ - ٢٣٢ هـ .  
الحدود المكانية : بغداد .

### **منهج البحث :**

تتناول الدراسة بتقسيم البحث إلى أربعة فصول :  
الفصل الأول : أهمية التأثير الثقافي عند الطبقة الحاكمة .  
المبحث الأول : الاهتمام الديني .  
المبحث الثاني : التأثير الأدبي واللغوي(١).  
المبحث الثالث : الاهتمام بالثقافات الوافدة .

تتناول الدراسة في هذا الفصل أهمية التأثير الثقافي عند الطبقة الحاكمة ، والاهتمام الديني والعلمي ، وتأثير الخلفاء ب الرجال الدين ، والتأثير السلوكي ، ثم يتناول التأثير الأدبي واللغوي ، والاهتمام بالشعر القديم ، والاهتمام بآداب عصرهم وما تبع ذلك من المستوى الفني عند الطبقة الحاكمة ، ثم الاهتمام بالثقافات الوافدة ، كما يتناول بعض الحكام الذين تزودوا بثقافات غير عربية ، فارسية كانت أو هندية أو يونانية ، والتبادر التقافي بين الخلفاء .

الفصل الثاني : اهتمام الطبقة الحاكمة بالأدب والنهوض به .

المبحث الأول : الدعم المالي .

المبحث الثاني : الدعم الثقافي والعلمي .

المبحث الثالث : الدور السياسي .

ويتناول الدعم والأدوار التي قام بها الحكام من أجل النهوض بالأدب وكان لها أثر في ازدهاره كالدعم المالي ، والدعم الثقافي والعلمي ، والدور السياسي ، ففي الدعم المالي يتناول الاهتمام بالعلماء وتشجيعهم ، ويتناول النهضة الأدبية ، والتعليم المجاني ، وبناء المكتبات العامة ، ودعم الأدباء والشعراء ، وغير ذلك ، والدور الثقافي والعلمي ، ويتناول هذا الفصل الندوات الأدبية ، والنقد الفني وانعكاساته ، ونقد المعاني ، ورفض المساس بالدين ، والنقد اللغوي ، وانعكاساته ، والاهتمام بالجودة الفنية ، ورجوعاً إلى علماء الأدب واللغة المتخصصين لتجوييد الفن الأدبي ، والشعر الشخصي وال رسمي ، ثم يتناول البحث الاهتمام بتأليف الكتب الأدبية ودعمها ، كالأغاني ، والحيوان ، والبيان والتبيين ، وبعض المختارات الشعرية كالمفضليات ، والدور السياسي وما لزمه من أدب .

الفصل الثالث : التجديد في الشعر العباسي .

المبحث الأول : الاهتمام بالمدح .

المبحث الثاني : الاهتمام بالغزل .

**المبحث الثالث : الاهتمام بالهجاء .**

ويتناول أغراض الشعر وأثر الحكم في كل منها ، كالاهتمام بالمدح ، ويتناول الحث على الاهتمام بالمدح السياسي ، والشخص في المدح ، وضرورات المدح ، وفي الاهتمام بالغزل ، يتناول الغزل الفاحش ، والمبالغة في الغزل ، ثم الاهتمام بالهجاء ، والزهد والشعر التعليمي والخمريات .

**الفصل الرابع : دور الحكم في تطور النثر .**

**المبحث الأول : تطور النثر والنهوض به .**

**المبحث الثاني : أنواع النثر .**

فيتناول جهود الحكم في تطور النثر والنهوض به ، والترجمة ، والاهتمام بديوان الكتابة ، ويتناول أنواع النثر ، ومن النثر الفني يتناول البحث الخطب والوصايا والرسائل والتوصيات والمناظرات .

# الفصل الأول

أهمية التأثير الثقافي

عند الطبقة الحاكمة

## المبحث الأول

### الاهتمام الديني

#### أولاً - الاهتمام العلمي

اهتم خلفاء بنى العباس بالعلم اهتماماً بالغاً، وحرصوا حرصاً شديداً على مجالسة العلماء ، والنظر إليهم بعين ملؤها الاحترام والتقدير ، بل واختاروا علماء الأمة البارزين ليكونوا معلمين لأبنائهم " قيل للمنصور : هل بقى من لذات الدنيا شيء لم تته ؟ قال : بقيت خصلة ، أن أقعد في مصطبة وحولي أصحاب الحديث ، يقول المستملى : من ذكرت - رحمك الله - فغدا عليه النداء ، وأبناء الوزراء بالمحابر والدفاتر ، فقال : لستم بهم ، إنما هم الدنسة ثيابهم ، المشقة أرجلهم ، الطويلة شعورهم ، بُرد الآفاق ونقطة الحديث " <sup>(١)</sup> .

وقد كان الخلفاء منشغلين بتعليم أبنائهم الذين كانوا يدعونهم للخلافة أشد الانشغال ، فالأخمر النحوي يروي " بعث إلى الرشيد لتأديب ولده محمد ، فقال لي: إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصيّر يدك عليه ميسوطة ، وطاعتاك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرّفه السنن ، وبصرّه موقع الكلام وبدأه ، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخبني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرّن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها ، من غير أن تخرق به فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، قومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة " <sup>(٢)</sup> .

(١) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق، جمال محمود مصطفى ، سنة ١٩٩٩ م - ١٤٢٠ هـ ، ص ٢١٣ .

(٢) المسعودي ( أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ، المكتبة الإسلامية ، ٣ / ٣٦٢ .

ويقول ( الأَحْمَرُ النَّحْوِيُّ ) " كنْتْ كثِيرًا مَا أَشَدَّ عَلَى الْأَمِينِ فِي التَّأْدِيبِ ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى خَالِصَةٍ - وَلَعْلَهَا كَانَتْ كَبِيرَةً وَصِيفَاتُ الْقَصْرِ الزُّبِيْدِيِّ - فَأَنْتَنِي بِرِسَالَةٍ مِنْ أُمّ جَعْفَرٍ تَعْزِمُ عَلَيَّ بِالْكَفِ عَنْهُ ، وَأَنْ أَجْعَلَ لَهُ وَقْتًا أَجْمَهُ فِيهِ لِتُوَدِّيْعَ بَنْهُ ، فَقُلْتُ : الْأَمِيرُ قَدْ عَظُمَ قَدْرُهُ ، وَبَعْدُ صَوْتُهُ ، وَمَوْقِعُهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَكَانَهُ مِنْ وَلَايَةِ الْعَهْدِ لَا يَحْتَمِلُ التَّقْصِيرَ ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ الْخُطْلُ ، وَلَا يُرْضِي مِنْهُ بِالْزَلْلِ فِي الْمَنْطَقِ وَالْجَهْلِ بِالْشَّرَائِعِ ، وَالْعُمَى عَنِ الْأَمْرَوْرِ التِي فِيهَا قَوْمٌ الْسُّلْطَانُ وَإِحْكَامُ السِّيَاسَةِ ، فَقَالَتْ : صَدِقْتُ ، غَيْرُ أَنَّهَا وَالَّذِي لَا تَمْلِكُ نَفْسَهَا ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى كَفِ إِشْفَاقَهَا " <sup>(١)</sup> .

فقد كان العلم ومدارسته موضوع اهتمام الحكام ، مهما تخلل الوصول إلى إيقانه من قسوة وعناء ، فعظم قدر الخليفة أو ولی العهد يستلزم أن لا يقصر في العلم ، وأن لا يتهاون في تحصيله ، ولا يرضي منه بالزلل ، ولا يقبل منه أن يكون جاهلاً .

إلا أن الجهد الذي كان الخلفاء يبذلونه ، والأموال التي كانوا ينفقونها من أجل تأديب أبنائهم لم تكن تؤتي ثمارها في كل الأحوال ، ومع كل الأبناء ، فلم يكن كل خلفاء العباسين علماء ، ولم يكونوا كلهم أتقياء ، لأننا صادفنا خلفاء لم يكونوا كما يجب أن يكونوا عليه كخلفاء للنبي الكريم - ﷺ - ، ولم يستطعوا وضع أنفسهم في مصاف العلماء ، في حين اشتهر آخرون بمكانتهم العلمية المتميزة ، إلا أنهم جميعاً - كانوا يقدرون العلماء ، ويعلمون قدرهم وينزلونهم المنازل التي تليق بهم. وإذا نظرنا إلى خلفاء بنى العباس في العصر العباسي في الفترة من ( ١٣٢ هـ إلى ٢٣٢ هـ ) ، وإلى الثقافة التي تتلقوا بها واهتماموا بتعليمها لأبنائهم ؛ لوجданها لا تخرج بما اعتاده الناس في أيامهم من علوم و المعارف وآداب وثقافات ، فقد اهتموا بالثقافة الدينية ، وعلوم القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، كما اهتموا بعلوم اللغة من نحو وصرف وغيرها واهتماموا اهتماماً بالغاً بالشعر العربي القديم ، والشعر المعاصر لهم ، واهتم بعض خلفائهم بثقافات أجنبية وافية ، من فارسية أو هندية أو يونانية .

(١) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المؤمنون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ م ، ١٦١/١.

## ثانياً - الاهتمام الديني :

إنه لأمر طبيعي أن يكون حكام المسلمين هم أكثر الناس معرفة بأمور الدين، فلن يستساغ أن يلي أمر المسلمين من يجهل أمور دينهم ، وأن يخلف رسول الله - ﷺ - من يكون أقل علمًا من غيره بعلوم الدين وأحكامه وشرائعه ، ولقد اهتم خلفاء العصر العباسي في الفترة ما بين ( ١٣٢ - ٢٣٢ هـ ) بالتفقه في دين الله ، وحرص الآباء على تعليم الأبناء أوامر الدين ونواهيه ، فهذا أبو العباس السفاح - أول خلفاء العباسيين - وكان يؤثر العلم يقول : " إنما العجب من يترك أن يزداد علمًا ، ويختار أن يزداد جهلاً ! فقال له أبو بكر الهذلي : ما تؤيل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالستك ومجالسة مثالك وأمثال أصحابك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية فلا يزال يسمع سخفاً ويروى نقصاً " (١) .

فال الخليفة يؤثر مجالسة العلماء والفقهاء على غيرها من مجالس الهؤلاء التي تغضب الله ، ويتمتع بمجالسة أبي بكر الهذلي وأصحابه على غير ذلك . وكان الرشيد من أكثر الحكام حباً للعلماء " ذكر في الإحياء عن الخولاني أن هارون الرشيد لما ولى الخلافة زاره العلماء ، وهنّه بما صار إليه ، ففتح بيوت الأموال ، وأجازهم الجوائز السنوية ، وكان قبل ذلك يجالس العلماء ، ويظهر الزهد والتعفف ، وكان مؤاخياً لسفيان الثوري " (٢) .

وقال القاضي الفاضل في بعض رسائله " ما أعلم لملك رحلة قط في طلب العلم إلا للرشيد ، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطاً على مالك رحمة الله " (٣) .

وقال إبراهيم بن حسن " كنا عند المأمون فذكروا من بايع من الأنصار ليلة العقبة ، فاختلفوا في ذلك ، ودخل ابن أبي دؤاد فعدهم واحداً واحداً ، بأسمائهم

(١) المسعود ( أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ، المكتبة الإسلامية ، ٢ / ١٧٠ .

(٢) ابن وادران ، تاريخ العباسيين ، ط ١ ، بيروت ، طبعة دار الغرب الإسلامي ، تحقيق وتقديم ، المنجي الكعبي ، سنة ١٩٩٣ ، ص ٧١ .

(٣) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق ، جمال محمود مصطفى ، سنة ١٩٩٩ م ، ١٤٢٠ هـ ، ص ٢٣٥ .

وَكُنَّا هُمْ وَأَنْسَابَهُمْ ، فَقَالَ الْمُؤْمِنُونَ : إِذَا اسْتَجَلَتِ النَّاسُ فَاضْلًا فَمُثُلَّ أَحْمَدَ ، قَالَ أَحْمَدَ ! بَلْ إِذَا جَالَ السَّعْلَادُ خَلِيفَةً فَمُثُلَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي يَفْهَمُ عَنْهُ ، وَيَكُونُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُ مِنْهُ <sup>(١)</sup> . وَكَانُوا يَعْرَفُونَ لِلْفَقِيهِ قَدْرَهُ وَلِلْعَالَمِ مَكَانَتِهِ ، " دَخَلَ هَارُونَ بْنَ زَيْدٍ - مُؤَدِّبَ الْوَاقِعِ - عَلَى الْوَاقِعِ فَأَكْرَمَهُ وَأَظْهَرَ مِنْ بَرِّهِ مَا شَهَرَ بِهِ ، فَقِيلَ لَهُ : مِنْ هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي فَعَلْتَ بِهِ مَا فَعَلْتَ ؟ قَالَ : هَذَا أُولَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ لِسَانِي بِذِكْرِ اللَّهِ وَأَدَنَانِي مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ <sup>(٢)</sup> .

### **أ- تأثير الخلفاء برجال الدين :**

وَبِالرَّغْمِ مِنْ جَلَّتِهِمْ مُلْكُهُمْ وَقُوَّتِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَتَأَثَّرُونَ أَشَدَّ التَّأْثِيرِ بِنَصَائِحِ الْعُلَمَاءِ وَالْزَّهَادِ عِنْدَ سَمَاعِهِمْ ، وَلَكِنَّهَا النَّصِيحَةُ الَّتِي يَتَأَكَّدُونَ مِنْ إِخْلَاصِ وَوَرَعِ قَائِلَهَا ، فَقَدْ رَوَى " أَنَّ ابْنَ السَّمَاكَ <sup>(٣)</sup> دَخَلَ عَلَى هَارُونَ الرَّشِيدَ يَوْمًا ، فَاسْتَسْقَى فَأْتَى بِكُوزٍ ، فَلَمَّا أَخْذَهُ قَالَ : عَلَى رَسْلِكِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَوْ مُنْعِتْ هَذِهِ الشَّرْبَةُ بِكُمْ كُنْتَ تَشْتَرِيَهَا ؟ قَالَ بِنَصْفِ مُلْكِي ، قَالَ : اشْرَبْ هَذَا كَذَّالِكَ اللَّهُ تَعَالَى ، فَلَمَّا شَرَبَهَا قَالَ : أَسْأَلُكَ لَوْ مَنْعَتْ خَرْوَجَهَا مِنْ بَدْنِكَ بِمَاذَا كُنْتَ تَشْتَرِيَ خَرْوَجَهَا مِنْ بَدْنِكَ ؟ قَالَ بِجَمِيعِ مُلْكِي ، قَالَ : إِنَّ مُلْكَاهُ قِيمَتَهُ شَرْبَةٌ مَا وَبُولَةٌ لَجَدِيرٌ أَنْ لَا يَنافِسَ فِيهِ ، فَبَكَى هَارُونَ بِكَاءً شَدِيدًا <sup>(٤)</sup> .

وَلَمْ يَكُنْ الْخُلُفَاءُ يَكْثُرُونَ مِنْ مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مَجَالِسَ عَادِيَةَ ، بَلْ كَانُوا يَتَوَاضَّعُونَ لَهُمْ تَوَاضُّعًا جَمَّا ، فَهُذَا أَبُو مَعَاوِيَةُ الْضَّرِيرِ ، وَكَانَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ يَقُولُ : " أَكَلْتُ مَعَ الرَّشِيدَ يَوْمًا فَصَبَ عَلَيَّ الْمَاءُ رَجْلًا ، فَقَالَ لِي : يَا أَبَا مَعَاوِيَةَ !

(١) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) ط ١ ، مكتبة النهضة المصرية ، تحقيق ، محمد محى الدين عبد الحميد ، ١٩٤٨ م ، ١ / ٦٤ .

(٢) أبي الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي ، ٦ / ٣٥٤ .

(٣) \* ابن السماك : أحد الزهاد في عصر الرشيد ، له مع الرشيد خاصة موافق وعظية شهيرة انظر في ترجمته سير أعلام النبلاء ٨ / ٣٢٨ ، حلية الأولياء ٨ / ٢٠٩ ، وفيات الأعيان ٤ / ٣٠١ .

(٤) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق : جمال محمود مصطفى ، سنة ١٩٩٩ - ١٤٢٠ هـ ، ص ٢٣٤ .

أتدري من صب الماء على يديك؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين . قال : أنا فقلت يا أمير المؤمنين ، أنت تفعل هذا إجلالاً للعلم؟ قال : نعم <sup>(١)</sup> .

ولما " دخل المأمون بغداد وقرّ بها قراره أمر أن يدخل عليه من الفقهاء ، والمتكلمين وأهل العلم جماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته ، وكان يقع في صدر نهاره على لبود في الشتاء وعلى حصر في الصيف ليس معهما شيء من سائر الفرش ، ويقع في المظالم في كل جمعة مرتين ، لا يمتنع منه أحد ، قال : واختير له من الفقهاء لمجالسته مائة رجل ، فما زال يختارهم طبقةً بعد طبقةً حتى حصل منهم عشرة ، كان أحمد بن أبي دؤاد أحدهم وبشر المرسي <sup>(٢)</sup> <sup>(٣)</sup> .

" وكان الرشيد يستدعي إليه ( العُمرِي ) <sup>(٤)</sup> ، و(الفضيل بن عياض) <sup>(٥)</sup> وابن السمّاك الكوفي و (أبا إسحاق الفزارِي) <sup>(٦)</sup> وغيرهم من الأولياء فيحاورهم في

مسائل الدين ، ويبكي من مواعظهم ، ويقوم بواجب الاحترام لعلمهم <sup>(١)</sup> .

---

(١) محمد بن علي بن طباطبا العلوى المعروف بابن الطقطقى ، الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، بيروت ، دار صادر ، ص ١٩٤ .

(٢) \* هو بشر بن غيث بن أبي كريمة المرسيي المتكلم ، شيخ المعتزلة ، وأحد من أضل المأمون ، كان ينظر أولاً في شيء من الفقه ، ثم غالب عليه علم الكلام ، وتنسب إليه المرسيية من المرجئة توفي سنة ٢١٩ هـ انظر البداية والنهاية / ١٠ / ٦٤٣ .

(٣) ابن طيفور (أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر) كتاب بغداد ، القاهرة ، مكتبة ، الخانجي ، نشر ، عزت العطار الحسيني ، تحقيق : محمد زاهد الكوثرى ، ص ٣٦ .

(٤) \*\* عبد الرحمن بن عبد الله العمرى : قاضى مصر فى أيام هارون الرشيد ، وهو أول من عمل " ثابوت القضاة " فى بيت المال كان يجعل فيه أموال اليتامى ومال من لا وارث له ، قدم إلى مصر ، قاضياً من قبل الرشيد ، سنة ١٨٥ هـ ، واستمر تسع سنين وشهرين ؛ وعزله الأمين ( لما ولى الخلافة ) وتوفي سنة ١٩٤ هـ . ينظر : خير الدين الزركلى ، الإعلام ، ط ١٠ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٩٢ . ٣١٢ / ٣ .

(٥) \*\*\* الفضيل بن عياض : أحمد العباد الزهد العلماء الأولياء ، كان حسن التلاوة ، وكثير الصلاة ، له مواقف مع الرشيد ، توفي سنة ١٨٧ هـ انظر البداية والنهاية / ١٠ / ٥٥٩ ، صفة الصفة / ٤ / ١٢١ .

(٦) \*\*\*\* إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء ابن خارجة الفزارى ، أبو إسحاق ، من كبار العلماء ولد في الكوفة وقدم دمشق وحدث بها ، وكان من أصحاب الأوزاعي ومعاصريه ورحل إلى بغداد فأكرمه الرشيد وأجله ثم عاش مرابط بغير المصيصة ومات بها سنة ١٨٨ هـ . ينظر : خير الدين الزركلى ، الإعلام ، ط ١٠ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٩٢ . ٥٩/١ .

فقد كانوا يأنسون بهم ، ويرفعون من أقدارهم ، ويتواضعون لهم ، ولم يكن كل هذا الاهتمام إلا اعترافاً صريحاً ومباسراً من الخلفاء بقيمة العلم والاحتفاء بأهله .

### بـ- التأثير السلوي :

كان الخلفاء على قدرٍ عالٍ من الثقافة الإسلامية جعلتهم يفهمون تعاليم السماء وما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله - ﷺ ، كما كان يفهم ذلك العلماء ، فهذا هارون الرشيد " دخلت امرأة عليه وعنه جماعة من وجوه أصحابه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ! أقرَّ الله عينك ، وفرَّحك بما آتاك ، وأتمَ سعدك ، لقد حكمت فقسطت ، فقال لها : من تكونين أيتها المرأة ؟ فقالت : من آل برمه ، ومن قتلت رجالهم ، وأخذت أموالهم وسلبت نوالهم ، فقال : أما الرجال فقد مضي أمر الله ونفذ فيهم قدره ، وأما المال فمردودٌ إليك ، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال : أتدرون ما قالت هذه المرأة ؟ قالوا : ما نراها قالت إلا خيراً ، قال : ما أظنكم فهمتم ذلك ، أما قولها أقرَّ الله عينك ، فتعني أسكنها عن الحركة ، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت ، وأما قولها وفرَّحك بما آتاك ، فأخذته من قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرَحُوا بِمَا أُوتُوا أَخْذَنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ ( الأنعام: من الآية ٤٥ ) ، وأما قولها وأتمَ الله سعدك ، فأخذته من قول الشاعر :

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ بَدَأَ نَصْرُهُ .. تَرَقَّبْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمُّ  
وأما قولها : لقد حكمت فقسطت ، فأخذته من قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ  
فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَابًا ﴾ ( الجن: ١٥ ) فتعجبوا من ذلك " (٢) .

فهذا فهم لا يكون إلا لعالم ، ونظر لا يكون إلا لذكي راسخ القدم في الفطنة والذكاء ولم يكن الخلفاء يجلسون بين هؤلاء العلماء جلوس المستمع فقط ، وإنما كان بعضهم يشارك علماء الدين في مناظراتهم ، ويتبادل معهم أطراف المناظرة عن فهم واعٍ للدين وأحكامه وتعاليمه ، وذكر منهم على الفور الخليفة المأمون ،

(١) جميل نخلة المدور - حضارة الإسلام في دار السلام ، بولاق ، المطبعة الأميرية ، سنة ١٩٣٧ م ، ص ١١٤ .

(٢) الأشبيهي ( شهاب الدين محمد بن أحمد ) ، المستطرف في كل فن مستطرف ، طبعة مصطفى البابي الحلبي ، ٢٠٣ / ٢ .

**يقول الجاحظ :** " قال ( سَهْلُ بْنُ هَارُونْ ) يوْمًا وَهُوَ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ ؛ مِنْ أَصْنَافِ الْعِلْمِ مَا لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَرْغَبُوا فِيهِ ، وَقَدْ يَرْغَبُ عَنْ بَعْضِ الْعِلْمِ كَمَا يَرْغَبُ عَنْ بَعْضِ الْحَالَةِ ، قَالَ الْمُؤْمِنُ : قَدْ يُسَمِّي بَعْضُ النَّاسِ الشَّيْءَ عِلْمًا وَلَيْسَ بِعِلْمٍ ، فَإِنْ كُنْتَ أَرِدْتَ هَذَا فَوْجِهَ الَّذِي ذَكَرْنَا ، وَلَوْ قُلْتَ : إِنَّ الْعِلْمَ لَا يَدْرِكُ غُورَهُ ، وَلَا يَسْبِرُ قُعْرَهُ ، وَلَا تَبْلُغُ غَايَتِهِ ، وَلَا يَسْتَقْصِي أَصْنَافَهُ ، وَلَا يَضْبِطُ آخِرَهُ ، فَالْأَمْرُ عَلَى مَا قُلْتَ ، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَأَبْدُأُ بِالْأَهْمَمْ ، وَأَبْدُأُ بِالْفَرْضِ قَبْلَ الْنَّفْلِ فَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ كَانَ عَدْلًا ... " <sup>(١)</sup> .

ويصور لنا المسعودي مجلساً من مجالس العلم في بلاط المؤمن فيقول : " كان المؤمن يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء ، فإذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات وأدخلوا حجرةً مفروشةً ، وقيل لهم انزعوا أخفافكم ، ثم أحضرت الموائد ، وقيل لهم أصبووا من الطعام والشراب ، وجددوا الموضوع ، ومن خفه ضيق فلينزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها ، فإذا أتوا بالمجامر ، فبخروا ، وطبيوا ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه ، ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها من مناظرة التجبرين ، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس ، ثم تتصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون ... " <sup>(٢)</sup> .

والذي يمكن لنا أن نستنتجه من هذا ، أن الخلفاء قد تشعروا بتعاليم دينهم ، ووقفوا أنفسهم على التثقف بآدابه ومبادئه ، حتى إنهم ليشاركون علماء الدين في مناظراتهم ومحادثاتهم ، بل إذا راموا الحكم بكتاب الله وسنة نبيه - ﷺ - لم يخطئوا " قال الفضل بن الربيع : قعد محمد الأمين يوماً ينظر في المظالم على فرش لبود ، وعليه مبطنة وقلنسوة وشي وطيسان أرزق ، فأمر ونهى ووقع في نحو ثمانمائة وأربعين توقيعاً بأجزل الكلام ، وقيل إنه وقع في ثمانمائة توقيع ،

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين ، بيروت ، طبعة دار الكتب العلمية ، ٣ / ١٨٥ .

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ، دار الأندلس ، ٤ / ٤٠٩ .

قال : فوالله لقد أصاب بما أخطأ ، وأسرع بما أبطأ ولقد عرضت على أولى الدواوين والفقهاء بما وجدوه خالفاً حكماً في قضية واحدة " <sup>(١)</sup> .

فهذا الخليفة الأمين يحكم بكتاب الله في هذا الكم الهائل من المسائل ، فيشهد له الفقهاء أنه لم يجاوز الصواب ، إن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على العلم الشاسع الذي كانت تمتليء به نفس هذا الخليفة ، مما جعله يتعرض للحكم بين الناس بكتاب الله وسنة رسول - ﷺ - فلا يخطيء ولا يجاوز الصواب ، وإذا صاح خبر (الفضل بن الربيع) بأنها عرضت على الفقهاء ، فإن ذلك دليلاً كافياً على سعة علمه الديني ، وفقهه ، وفطنته .

وإذا نظرنا إلى أخاه الخليفة المأمون ، عالم خلفاء بنـي العباس الأول باعتراف معاصريه ودارسيه ، تتضح مواقفه وكلماته عن تشبّعه بالثقافة الإسلامية العميقـة ، التي أهـلتـه لأنـ يـدافـعـ خـصـومـ الـدـيـنـ ؛ فـيـبـهـرـهـ بـفـهـمـهـ لـالـإـسـلـامـ ، وـعـمـقـ ثـقـافـتـهـ فـيـهـ فـقـدـ ذـكـرـ (ثـمـامـةـ بـنـ أـشـرـسـ)ـ قـالـ : " اـرـتـدـ رـجـلـ مـنـ أـهـلـ خـرـاسـانـ ، فـأـمـرـ الـمـأـمـونـ بـحـمـلـهـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ السـلـامـ ، فـلـمـ أـدـخـلـ عـلـيـهـ أـقـبـلـ بـوـجـهـ إـلـيـهـ ثـمـ قـالـ : لأنـ أـسـتـحـيـكـ بـحـقـ وـاجـبـ أـحـبـ إـلـيـ منـ أـنـ أـقـتـلـكـ بـحـقـ ، وـلـأنـ أـدـفـعـ عـنـكـ بـالـتـهـمـةـ وـقـدـ كـنـتـ مـسـلـماـ بـعـدـ أـنـ كـنـتـ نـصـرـانـيـاـ ، وـكـنـتـ فـيـ إـسـلـامـ أـفـيـحـ مـكـانـاـ وـأـطـوـلـ أـيـامـاـ ، فـاـسـتـوـحـشـتـ مـاـ كـنـتـ بـهـ آـنـسـاـ ، ثـمـ لـمـ تـلـبـثـ أـنـ رـجـعـ عـنـ نـافـرـاـ ، فـخـبـرـنـاـ عـنـ الشـيـءـ الـذـيـ أـوـحـشـكـ مـنـ الشـيـءـ الـذـيـ صـارـ آـنـسـ لـكـ مـنـ ذـلـكـ الـقـدـيمـ ، وـأـنـسـكـ الـأـوـلـ ، فـإـنـ وـجـدـتـ عـنـدـنـاـ دـوـاءـ دـائـكـ تـعـالـجـتـ بـهـ ، إـذـ كـانـ الـمـرـيـضـ يـحـتـاجـ مـشـاـورـةـ الـأـطـبـاءـ ، فـإـنـ أـخـطـأـكـ الشـفـاءـ ، وـنـبـاـ عـنـ دـائـكـ الدـوـاءـ ، وـكـنـتـ قـدـ أـعـذـرـتـ ، وـلـمـ تـرـجـعـ عـنـ نـفـسـكـ بـلـائـمـةـ ، فـإـنـ قـتـلـنـاـكـ بـحـكـمـ الشـرـيـعـةـ تـرـجـعـ أـنـتـ فـيـ نـفـسـكـ إـلـىـ الـاسـتـبـصـارـ وـالـقـدـةـ ، وـتـعـلـمـ أـنـكـ لـمـ تـقـصـرـ فـيـ اـجـتـهـادـ ، وـلـمـ تـدـعـ الـأـخـذـ بـالـحـزـمـ ، فـقـالـ المرـتـدـ : أـوـحـشـنـيـ مـاـ رـأـيـتـ مـنـ كـثـرـةـ الـخـلـافـ فـيـ الـخـلـافـ فـيـ دـيـنـكـ قـالـ الـمـأـمـونـ : فـإـنـ لـنـاـ اـخـتـلـافـيـنـ ، أـحـدـهـمـاـ : كـالـاخـتـلـافـ فـيـ الـآـذـانـ ، وـتـكـبـيرـ الـجـنـائزـ ، وـالـاخـتـلـافـ فـيـ التـشـهـدـ ، وـصـلـةـ الـأـعـيـادـ ، وـتـكـبـيرـ التـشـرـيقـ وـوـجـوـهـ الـقـرـاءـاتـ ، وـاـخـتـلـافـ وـجـوـهـ

(١) ابن وادران ، تاريخ العباسين ، ط ١ ، بيروت ، طبعة دار الغرب الإسلامي ، تحقيق وتقديم ، المنجي الكعبي ، سنة ١٩٩٣ م ، ص ٢٠٩ .

الفتيا ، وما أشبه ذلك ، وليس هذا باختلاف إنما هو تخيّرٌ وتوسعةٌ وتخفيفٌ من المحنّة ، فمن أذنَّ مثني ، وأقامَ فُراديَّ لم يؤثم ، ومن أذنَّ مثني وأقامَ مثني لا يتعارضون ولا يتعابرون ، أنت ترى ذلك عياناً وتشهد عليه ببياناً ، والاختلاف الآخر: كنحو الاختلاف في تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ- مع إجماعنا على أصل التزيل ، واتفاقنا على عين الخبر ، فإن كان الذي أوحشك هذا حتى أنكرت كتابنا ، فقد ينبغي أن يكون اللّفظ بجميع ما في التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله كالإنفاق على تزيله ، ولا يكون بين الملتين من اليهود والنصارى اختلاف في شيءٍ من التأويلات ، وينبغي لك أن لا ترجع إلى لغةٍ لا اختلاف في ألفاظها ، ولو شاء الله أن ينزل كتبه ، ويجعل كلام الأنبياء وورثة رسليه لا تحتاج إلى تفسير لفعل ، ولكن لم نر شيئاً من الدين الدنيا دفع إلينا على الكفاية ، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة ، وذهبت المسابقة والمنافسة ولم يكن تقاضلٌ ، وليس على هذا بنى الله جل وعز الدنيا ، فقال المرتد: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن المسيح عبد الله ورسوله، وأن محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ- صادق ، وأنك أمير المؤمنين حقاً ، قال : فانحرف المأمون نحو القبلة فخرّ ساجداً، ثم أقبل على أصحابه فقال : وفروا عليه عرضه ، ولا تبروه في يومه ، ريثما يعتق إسلامه ، كيلا يقول عدوه إنه يسلم رغبة ، ولا تتسوّن نصييكم من بره ونصرته وتأييسيه وفائدة عليه<sup>(١)</sup>.

وقد حدا هذا بأحمد فريد الرفاعي أن عقب على هذه المناظرة قائلاً : " وهذا المنحى الذي نحاه المأمون في إقناع ذلك المرتد يدلنا على ناحيتين من نواحي تفكيره :

- **الأولى** : بصره بأسرار الشريعة ، وعلمه بدقة الدين ، وتدقيقه في فهم أنواع الخلاف بين المسلمين ، ويقاد هذا التقسيم يقضي على كل شبهة عند من يربّيهم هذا النزاع الذي طال بين الفرق الإسلامية ، وتشعبت به مذاهب الفقهاء .

---

(١) ابن طيفور (أبو الفضل أحمدين أبي طاهر) كتاب بغداد ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، عني بنشره السيد ، عزت العطار الحسيني ، تحقيق : محمد زايد الكوثري ، ص ٣٨ .

- الثانية : تعمقه في درس النفسيات ، واستقصاء خلجمات القلب ، وهجسات الضمير وذلك ظاهر في مراجعته لحياة الرجل الروحية ، وتأمله لما ألمته نفسه ، وسكن إليه وجاده قبل إسلامه ، فقد بنى على هذه السابقة طريقة التألف والتسامح التي قضى بها على ما منى به الرجل بعد الإيمان <sup>(١)</sup>.

ولم تكن هذه الطريقة في المناظرة والمناقشة لتصدر إلا عن عالم بتعاليم وأوامر الله في كتابه الكريم ، وسنة نبيه - ﷺ - عن رجل ممتلىء بثقافة دينية راسخة يخرجها الموقف ، وتظهرها متطلبات الدفاع عن العقيدة والحفظ على الفهم الوعي للدين الإسلامي .

وقد اهتم الخلفاء بحديث رسول الله - ﷺ - ، يتدارسونه ويحفظونه ، ومنهم من يروى الأحاديث عنه - ﷺ - " أمر الرشيد أبا يوسف القاضي بأن يجمع له أصحاب الحديث ؛ فيحدثوه ولده ، فجمع له أهل الكوفة ، إلا عبد الله بن إدريس <sup>(٢)</sup> ، وعيسي بن يونس <sup>(٣)</sup> فإنهما أبباً أن يحضران ، فركب إليهما الأمين والمأمون ، فحدثهما عبد الله بن إدريس بمائة حديث ، فلما فرغا قال له المأمون أتذن لي أن أقرأها عليك من حفظي ! فقال : إن شئت ، فوضع الكتاب من يده وقرأها بأسانيدها من حفظه. وحدثهما عيسى بن يونس ، فأمر له المأمون بعشرة ألف درهم ، فقال : لا أقبل على حديث رسول الله - ﷺ - شربة ماء <sup>(٤)</sup>.

" ذكر أحمد بن اسحق الحنفي ، قال : سمعت عمر بن سيار المنجبي يقول : سمعت مالك بن أنس يقول : وجه إلى هارون الرشيد ، فسألني أن أحدثه فقلت :

(١) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، ط ٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ ، ٢٨٦/١ .

(٢) \* عبد الله بن إدريس بن يزيد بن عبد الرحمن : الإمام الحافظ المحدث ، حدث عنه مالك وابن المبارك وأحمد بن حنبل ويعقوب بن معين وخلق كثير ، أقدمه الرشيد ببغداد ، ليوليه قضاء الكوفة فامتنع ، توفي سنة ١٩٢ هـ سير أعلام النبلاء ٩ / ٤٢ ، طبقات المحدثين ١ / ٦٦ .

(٣) \*\* عيسى بن يوسن بن اسحق السبيبي الكوفي : أحد المحدثين ، وثقة أحمد بن حنبل وأبو حاتم والن sai وابن خراش وطائفة أخرى ، عرض عليه جعفر البرمكي مائة ألف درهم فأبى أن يقبلها ، وقال لا حاجة لي فيها ، لا يتحدث أهل العلم أبى أكلت للسنة ثماناً لا أخذ على الحديث شربة ماء ولا إهليجة ، توفي سنة ١٨٨ هـ انظر سير أعلام النبلاء ٨ / ٤٩ وما بعدها ، طبقات المحدثين ١ / ٦٧ .

(٤) أبو هلال العسكري ، الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه ، مطبعة الفضيلة ، تحقيق عبد المجيد دياب ، ص ٧٦ .

يا أمير المؤمنين ، إن العلم يؤتى ولا يأتي ، قال : فسار إلى منزلي فاستند معي إلى جدار ، فقلت ، يا أمير المؤمنين ، إن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم .  
قال فجلس بين يدي .... <sup>(١)</sup> .

وقد حفظوا على حديث رسول الله - ﷺ - وعاقب بعضهم من حاول الاستخفاف به ، بل وقد وصلت عقوباتهم حين المساس بحديث رسول الله - ﷺ - إلى القتل ، " أخذ الرشيد زديقاً ، فأمر بضرب عنقه ، فقال الزنديق : لم تضرب عنقي ؟ قال له : أريح العباد منك ، قال : أين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله - ﷺ - كلها ما فيها حرف نطق به ؟ قال : فأين أنت يا عدو الله من أبي اسحق الفزاري وعبد الله بن المبارك <sup>(٢)</sup> ، يخلانها نخلاً فيخر جانها حرفاً حرفاً <sup>(٣)</sup> . " وحدثه أبو معاوية الضرير يوماً عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بحديث احتجاج آدم وموسى ، فقال عمُّ الرشيد : أين النقيا يا أبي معاوية ؟ فغضب الرشيد من ذلك غضباً شديداً ، وقال : أتعترض على الحديث ؟ على بالنطع والسيف ، فأحضر ذلك ، فقام الناس إليه يشفعون فيه ، فقال الرشيد : هذه زندقة ، ثم أمر بسجنه وأقسم أن لا يخرج حتى يخبرني من ألقى إليه هذا ، فأقسم عمُّه بالأيمان المغلظة ما قال هذا له أحد ، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة مني وأنا استغفر الله وأتوب إليه منها ، فأطلقه <sup>(٤)</sup> .

فأقد كانوا حريصين ليس بمذكرة حديث رسول الله - ﷺ - فقط ، وإنما بالذنب عليه ، والحفظ عليه ، والاهتمام بالمحدثين ، وقد أورتهم هذا قدرة على تمييز ما جاء عن رسول الله - ﷺ - صحيحاً عمما زاد عليه " ذكر الدُّمِيرِيُّ في

(١) نفسه ، ص ٨٤ .

(٢) \* عبد الله بن المبارك : أبو عبد الرحمن المروزي ، كان موصوفاً بالحفظ والفقه والعربية والزهد ، سمع من إسماعيل بن خالد ، والأعمش ، وهشام بن عروة ، وحميد الطويل ، وغيرهم من أئمة التابعين . قال أبو عمر بن عبد البر : أجمع العلماء على قبوله وجلالته وإيمانه وعلمه ، توفي عبد الله بن المبارك بهيث سنة ١٨١ هـ انظر في ترجمته البداية والنهاية ٥٣٧/١٠ ، صفة الصفوة ١٢١/٤ .

(٣) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق : جمال محمود مصطفى ، سنة ١٩٩٩ ، ١٤٢٠ ، ص ٢٣٤ .

(٤) الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، المنصورة ، طبعة مكتبة الإيمان ، خرج أحاديثه ، محمد بيومي ، عبد الله المنشاوي ، محمد رضوان مهنا ، ١٠ / ٥٧٦ د.ت.

حياة الحيوان أن هارون الرشيد كان يعجبه الحمام واللعب به ، فأهدى إليه الحمام وعنه (أبو البختري بن وهب القاضي) ، فروى له بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي - ﷺ - قال : " لا سبق إلا في خف أو حافر أو جناح " . فزاد (أو جناح) وهي لفظة وضعها للرشيد ، فأعطاه جائزة سنية ، فلما خرج قال الرشيد : والله لقد علمت أنه كذب ، وأمر بالحمام أن يذبح فذبحت ، فقيل له : وما ذنب الحمام ، قال : من أجله كذب على رسول الله - ﷺ - "(١)" .

ولقد روى عن المأمون "أن علوية غنى قدامه :  
 برئت من الإسلام إن كان ذا الذي .. أتاك به الواشوان عنى كما قالوا  
 فقال : يا علوية ، من هذا الشعر ؟ فقال : للقاضي ، قال : أي قاضٍ  
 ويحك ؟ قال : قاضي دمشق ، فقال : يا أبا اسحق ؛ اعزله . قال : قد عزلته ،  
 قال : فيحضر الساعة قال : فأحضر مخصوص قصير ، فقال له المأمون : من  
 تكون ؟ قال فلان الغلاني ، قال : تقول الشعر ؟ قال : قد كنت أقوله ، فقال يا  
 علوية ، أنشده الشعر ، فأنشده ، فقال : هذا الشعر لك ؟ قال : نعم يا أمير  
 المؤمنين ونساؤه طوالق ، وكل ما يملك في سبيل الله إن كان قال الشعر منذ  
 ثلاثين سنة إلا في زهد أو معاتبة صديق ، فقال : يا أبا اسحق ، اعزله ، فما كنت  
 أولى رقاب المسلمين من يبدأ هزله بالبراءة من الإسلام " (٢)" .

وهكذا كانت غيرتهم على الدين ، وكان علمهم بحديث النبي - ﷺ - يتجلّى في  
 مواقفهم المتشددة بالذب عن الدين ، وأثر تعاليمه في سلوكهم وفي حكمهم وفي  
 معاملتهم للرعاية ، ولقد عرفنا أن الخليفة المهدي كان يغار على الدين غيره  
 شديدة، جعلته يتبع الزنادقة ، ويفتك بهم ، ويطارد كل من تسول له نفسه التشكيك  
 في أحكام العقيدة ، أو الاقتراب من أحكام الدين بالهمز أو اللمز ، وقد كان كذلك

(١) ابن وادران ، تاريخ العباسيين ، ط ١ ، بيروت ، طبعة دار الغرب الإسلامي ، تحقيق وتقديم ، المنجي الكعبي ، سنة ١٩٩٣ ، ص ١٠٨ ، الحديث صحيح (لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل) تخريج السيوطي عن أبي هريرة ، صحيح البخاري رقم ٧٤٩٨ تخريج الألباني .

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، طبعة دار المعارف ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، سنة ١٩٦٦ م ، ٨ / ٦٥٦ .

أبوه المنصور من قبل فقد " ذكر حماد التركي قال : كنت واقفاً على رأس المنصور فسمع جلبة في الدار ، فقال : ما هذا يا حماد ؟ انظر فذهبت فإذا خادم له قد جلس بين الجواري ، وهو يضرب لهن بالطنبور ، وهن يضحكن ، فجئت فأخبرته فقال: وأي شيء الطنبور ؟ فقلت : خشبة من حالها وأمرها .. ووصفتها له ؛ فقال لي : أصبت صفتة ، فما يدريك أنت ما الطنبور ! قلت رأيته بخراسان ، قال نعم هناك ، ثم قال : هات نعلى ، فأتيته بها فقام يمشي رويداً حتى أشرف عليهم ، فرأهم ، فلما بصرروا به تفرقوا فقال : خذوه ، فأخذ ، فقال : أضرب به رأسه ، فلم أزل أضرب به رأسه حتى كسرته ، ثم قال : أخرجه من قصري ، وأذهب إلى حمران بالكرخ ، وقل له ببيءه " <sup>(١)</sup> .

ويذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء مجموعة من الأحاديث رواها الخلفاء العباسيون وبالبحث ثبت أن من بينها أحاديث صحيحة ، يقول السيوطي : " قال الصولي : كان المنصور أعلم الناس بالحديث " <sup>(٢)</sup> . ومما ذكر أن المنصور رواه من حديث رسول الله - ﷺ - : " قال ابن عساكر في تاريخ دمشق .. عن المأمون ، عن الرشيد ، عن المهدى ، عن المنصور ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، أن النبي - ﷺ - " كان يتختم في يمينه " <sup>(٣)</sup> . ويذكر أحاديث من روایة المهدى " قال الصولي : حدثى أحمى بن محمد بن صالح التمار ، حدثنا يحيى بن محمد القرشي ، حدثنا أحمى بن هشام ، حدثنا أحمى بن عبد الرحمن بن مسلم المدائى - وهو ثقة صدوق - قال : سمعت المهدى يخطب فقال : حدثنا شعبة عن علي بن زيد ، أبي نصرة ، عن أبي سعيد الخدري قال : خطبنا رسول الله - ﷺ - خطبة من العصر إلى مغiran الشمس حفظها من حفظها ونسوها من نسيها ، فقال: " لا

(١) نفسه / ٨ / ٦٣ ، والخبر في ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، تحقيق ، محمد يوسف الدقاد ، ٥ / ٢٢٠ .

(٢) تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق جمال محمد مصطفى ، سنة ١٩٩٩ م ، ١٤٢٠ هـ ص ٢١٦ .

(٣) \* عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، أن رسول - ﷺ - ليس خاتم فضة في يمينه فيه فص حبشي كان يجعل فصه مما يلي كفه " الإمام مسلم ، مختصر صحيح مسلم طبعة المكتبة الإسلامية ، عمان ، مكتبة المعارف ، الرياض سنة ١٤١٢ هـ ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، ص ٣٦١ .

إن الدنيا حلوة خصرة " الحديث بطوله<sup>(١)</sup> . ومما يرويه للرشيد من الحديث " حدثنا  
حدثنا عبد الرحمن بن خلف ، حدثي جدي الحصين بن سليمان الضبي ، سمعت  
الرشيد يخطب فقال في خطبته : حدثي مبارك بن فضالة ، عن الحسن عن أنس ،  
قال : قال رسول - ﷺ - اتقوا النار ولو بشق ثمرة "<sup>(٢)</sup> .

وقد أورد السيوطي عدداً من الأحاديث لكل خليفة عند الحديث عنه ،  
بعضها في الصاحب بلفظه ومعناه وإذا نظرنا إلى خلفاء العصر العباسى  
( ١٣٢ - ٢٣٢ هـ ) ، وقوادهم ووزرائهم كانوا يحفظون كتاب الله ، ويعرفون  
سنة النبي - ﷺ - عن علم تام ، وفهم واضح ومعرفة أحكام الدين ، ويجلسون مع  
العلماء ، ويناظرون الفقهاء ، ويحكمون بكتاب الله في مجالس القضاء ، فهم أقرب  
إلى العلماء منهم إلى العامة والغوغاء .

وتقديرأً من خلفاء العصر العباسى ( ١٣٢ - ٢٣٢ هـ ) للعلم ، وإحساساً  
منهم بأهميته ، وعلم الدين في المقام الأول ، لم يكونوا يستورون أو يستكثرون  
إلا من ظنوه عالماً بكتاب الله عاملًا به ، وبسنة رسول - ﷺ - عاملًا بها أيضًا ،  
لذا كانوا يقومون على الفور بعزل من لم يجدوا فيه هذا العلم متوفراً ، وإذا نظرنا  
إلى الوزراء العباسيين وجذنابهم جميعاً على قدرٍ عالٍ من العلم الديني ، والثقافة  
الإسلامية ، حتى إذا ثبت عكس ذلك تم عزل المقصّر على الفور ، فقد كان  
للأمّون وزير<sup>١</sup> ( أبا عبّاد ثابت بن يحيى بن يسار ) ، وكان رجلاً أهوج - كما  
ذكر الطبرى والجهشىيارى وابن طيفور - وقد " غضب " ( أبا عبّاد ثابت بن  
يحيى ) يوماً على بعض كتابه ، فرماه بدواة كانت بين يديه ، فلما رأى الدم يسيل  
ندم وقال : صدق الله عز وجل : " والذين إذا ما غضبوا هم يتذمرون "<sup>(٣)</sup> . بلغ  
فبلغ ذلك الأمّون ، فانتبه وعتب عليه ، وقال ويحك ! أنت أحد أعضاء المملكة

(١) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق جمال محمود مصطفى ، سنة ١٩٩٩ م ، ١٤٢٠ ، ص ١٤٢٠ ، ص ٢٢٣ والحديث رواه مسلم ص ٥٤٥ .

(٢) نفسه ، ص ٢٣٧ ، والحديث رواه الإمام البخاري ، صحيح الإمام البخاري ، ط ١ ، طبعة دار التقوى  
للتراث ، ضبط ؛ رقم أحاديث ووضع فهارسه ، محمد عبد القادر أحمد عطا سنة ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م في  
المجلد الأول حديث رقم ١٣٢٨ ، ص ٣٤١ .

(٣) صحة هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْآثَمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ الشورى: ٣٤ .

وكتاب الخليفة ، ما تحسن أن تقرأ آية من كتاب الله ! فقال : بل يا أمير المؤمنين ، إني لأقرأ من سورة واحدة ألف آية وأكثر فضحك المأمون وقال : من أي سورة ؟ قال : من أيها شئت ؛ فازداد ضحكه وقال : شئت من سورة الكوثر ؛ وأمر بإخراجه من ديوان الكتابة فبلغ ذلك دعبل الشاعر فقال :

**أُولَى الْأَمْوَارِ بِضَيْعَةٍ وَفَسَادٍ .. أَمَرْ يُدَبِّرُهُ أُبُو عَبَّادٍ  
خَرَقَ عَلَى جُلْسَائِهِ بِدَوَاتِهِ .. وَمُضَمِّحٌ وَمُرْفَلٌ بِمَدَادٍ  
فَكَانَهُ مِنْ دَيْرِ هَزْقَلَ مُفْلِتٌ .. حَرَدٌ يَجْرُّ سَلَاسِلَ الْأَقْيَادِ**<sup>(١)</sup>

وإذا نظرنا إلى وزراء العباسيين بأجمعهم وجذنابهم يتمتعون بقدر عالٍ من العلم والثقافة ، فقد وزر للمنصور أبو أيوب المورياني ، يقول عنه ابن الطقطقا : " فلما رأه السفاح أعجبته هيئته وفضاحته وصباحته "<sup>(٢)</sup> ، ثم وزر له الريبع بن يونس ، يقول عنه ابن الطقطقا أيضاً : " كان الريبع جليلاً نبيلاً منفذًا للأمور مهيباً فصحيحاً كافياً حاز ما عاقلاً فطناً خيراً بالحساب والأعمال "<sup>(٣)</sup> . وكان يحيى بن خالد " كاتباً بلغاً لبيباً أديباً "<sup>(٤)</sup> . والفضل بن الريبع كان " شهماً خيراً بأحوال الملوك وآدابهم ، ولما ولى الوزارة تهوس بالأدب ، وجمع إليه أهل العلم فحصل منهم ما أراد في مدة يسيرة "<sup>(٥)</sup> . وكذلك كان الفضل بن سهل ، وكان أحمد بن خالد الأحول ، وأحمد بن يوسف وزراء المأمون ، وكان غيرهم من الوزراء على قدر عالٍ من العلم والثقافة.

(١) \* دير هزقل ، دير مشهور بين البصرة وعسقلان ، ذكره الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، القاهرة ، دار المعارف ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص ٥٢٨ .  
وقال : يضرب به المثل لمجتمع المجانين ، ويقال للمجنون : بأنه من دير هزقل وذلك أنه مأوى المجانين بإحدى الديارات ، يشدون هناك ويدلوون .

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، طبعة دار المعارف ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، سنة ١٩٦٦ م ، ٨ / ٦٦٠ .

(٣) الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، بيروت ، دار صادر ، ص ١٧٥ .

(٤) نفسه ، ص ١٧٨ .

(٥) نفسه ، ص ١٩٨ .

(٦) نفسه ، ص ٢١١ .

## المبحث الثاني

### التأثير الأدبي واللغوي

اهتم الخلفاء في هذا العصر باللغة العربية ، يتدارسون أشعارها ، الجاهلي منها والإسلامي ، ويحفظون نوادرها ، ويفقهون معانيها وأسرارها ، ويتدارسون نحوها وصرفها ، وهم يعرفون الأهمية الكبيرة لحفظ اللغة وفهم أسرارها ، لأنها لغة القرآن الكريم ، بفهمها تفهم أسراره ، وتعرف مرادات الله منه . فها هو هارون الرشيد يقول للأحمر النحوي حينما استدعاه لتعليم الأمين " يا أحمر ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصَرِّ يدك عليه مبوسطةً ، وطاعتكم عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن ، وعرّفه الآثار ، وروّه الإشعار ، وعلمه السنن ، وبصره موقع الكلام وبدأه ، وامنه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخبني هاشم إذا دخلوا إليه ، ورفع مجالس القواد إذ حضروا مجلسه ، ولا تمرّن بك ساعة إلا وأنتم مغتنم فيها فائدةً تقيده إياها ، من غير أن تخرج به فتميت ذهنه "<sup>(١)</sup> ويحدثنا التاريخ أن الرشيد اتخذ فيما اتّخذ لتربية الأمين وتعلّمه قطراباً النحوي <sup>(٢)</sup> . ومن المعروف بين رجالات العلم والأدب أن المفضل الضبي جمع مجموعته الشعرية المعروفة بالمفضليات للمهدي ، وسيأتي الحديث عن ذلك ، كان القاضي ابن أكثم مع المأمون يتحاوران ، فبلغ بهم أن ذكر النحو ، " فقال المأمون : يا يحيى ، ألمت أن علم النحو قد بلغ بأهله من عزة النفس وعلو الهمة منزلةبني هاشم في شرفهم ، يا يحيى من قعد به نسبة نهض به أدبه :

قال الشاعر :

كُنْ ابْنَ مَنْ شِئْتَ وَاكْتَسِبْ أَدْبًا .. يُقْنِيْكَ مَأْثُورَهُ عَنِ الْحَسَبِ  
إِنَّ الْفَتَّى مَنْ يَقُولُ هَا أَنَّا .. وَلَيْسَ الْفَتَّى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي

(١) المسعودي ( أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ، طبعة المكتبة الإسلامية ، ٣٦٢ / ٣ .

(٢) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ م ، ١٦٢ / ١ .

قال ( يَحْيَى بْنُ أَكْثَمْ ) : صدقت يا أمير المؤمنين ، أَيَّدَ اللَّهُ بِكَ الْعَالَمَ " (١) .  
وكانوا يحرصون على تعليم أولادهم بوساطة نخبة من رجالات عصرهم  
فالمؤصل ضم الشرقي بن القطامي إلى ابنه المهدى ، وأوصاه أن يعلمه أخبار  
العرب ومكارم الأخلاق وقراءة الأشعار ، والرشيد عهد بتعليم ابنه الأمين إلى  
الأحمر النحوي ثم الكسائي وعهد بالمؤمنون إلى اليزيدي وسيبويه وغيرهما (٢) .

وقد كان بعضهم يتبع بنفسه تعليم العلماء لأبنائه ، حتى يقف على مقدار  
هذه الثقافة التي يجب أن يتزودوا بها ، ويقف على جدية العلماء في إيصال  
الضروري من العلم إليهم ، بل المشاركة في تعليمهم وتأديبهم بصورة مباشرة  
وغير مباشرة ، فعن ( الكسائي ) قال : " دعاني الرشيد ذات يوم وما عنده إلا  
حاشيته ، فقال : يا علي ، أتحب أن ترى محمدًا وعبد الله ؟ قلت : ما أشوقني  
إليهما يا أمير المؤمنين ، وأسر شيء إلى معاينة نعمة الله جل وعز على أمير  
المؤمنين فيهما وبهما ، فأمر بإحضارهما ، فأقبلَا كأنهما كوكباً أفق ، يزينهما  
هديهما ووقارهما ، قد غضباً أبصارهما ، وقاربا خطوهما ، حتى وقفا بباب  
المجلس ، فسلموا بالخلافة ، ثم قالا : تمم الله على أمير المؤمنين نعمه ، وشفعوا  
بشكره ، وجعل ما قلده من هذا الأمر أحمد عاقبة بما يقول إليه أمره حمدًا اختصه  
به ، وأحاطه له بالبقاء ، وكثره لديه بالنماء ، ولا كدر عليه منه ما صفا ، ولا  
خلط سروره الردى ، فقد صرت للMuslimين ثقةً ومستراحًا ، إليك ينزعون في  
أمورهم ، ويقصدون في حوائجهم ، فأمرهما بالدنو ، وصيَّرَ محمدًا عن يمينه ،  
وعبد الله عن يساره ، ثم التفت إلى فقال : يا علي ما زلت ساهراً مفكراً في معانٍ  
أبيات قد خفيت علي . قلت : إن رأي أمير المؤمنين أن ينشد فيها : فأناشدني :

قَدْ قُلْتُ قَوْلًا لِلْغُرَابِ إِذْ حَجَلَ  
عَلَيْكَ بِالْقُوْدِ الْمَسَانِيفِ الْأُولَى  
تَغَدَّ مَا شِئْتَ عَلَى غَيْرِ عَجَلٍ

(١) ابن وادران ، تاريخ العباسيين ، ط ١ ، بيروت ، طبعة الغرب الإسلامي ، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي ،  
سنة ١٩٩٣ ، ص ٣٥٦ .

(٢) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المؤمنون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العاملة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ م ، ١٤٦/١ .

فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، إن العير إذا فصلت من خير وعليها التمر ، يفع الغراب على آخر العير ، فيطرده ، السوّاق ، والمسانيف : المقدمة ، ثم أنسدني :

**لَعْمَرِي لَئِنْ عَشَرَتْ مِنْ خَشِيشَةِ الرَّدَى .: نُهَاقَ الْحَمَارِ إِنِّي لَجَهُولُ**

قلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ، كان الرجل من العرب إذا دخل خير ، أكب على أربع ، وعشرون تعيشير الحمار ، وهو أن ينهر عشر نهارات ، متتابعات ، يفعل ذلك ليدفع عن نفسه حُمَى خير ، ثم أنسدني قول الآخر :

**أَجَاعِلُ أَنْتَ بِيَقُورًا مُضَرَّمَةً .: ذَرِيعَةً لَكَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْمَطَرِ**

قلت : نعم ، كانت العرب إذا أبطأ المطر تشد العشر والسلع - وهما ضربان من النبت - في أدناب البقر ، وتلهب فيه النار ، وتشرد البقر تفاولاً بالبرق والمطر ، ثم أنسدني :

**لَعْمَرُكَ مَا لَامَ الْفَتَى مِثْلُ نَفْسِهِ .: إِذَا كَانَتِ الْأَحْيَاءُ تُفْرِي ثِيَابُهَا**

**وَآذَنَ بِالْتَّصْفِيقِ مَنْ سَاءَ ظُنْهُ .: فَلَمْ يَدْرِ مِنْ أَيِّ الْيَدَيْنِ جَوَابُهَا**

قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، كان الرجل إذا ضل في المفازة ، قلب ثيابه وصاح كأنه يومئ إلى إنسان ، ويشتند شدة ، ويصفق بيديه ، فيهتدى إلى الطريق .

واستمر يسأل الكسائي وهو يجيب ، وكل ذلك أمام ولديه ، ثم قال : اشتتشدهما - يعني ابنيه - فأنسدني محمد الأمين :

**وَإِنِّي لَعَفَّ الْفَقْرِ مُشْتَرِكُ الْغَى .: وَتَارِكُ شَكْلٍ لَا يُوافِقُهُ شَكْلٌ**

**وَشَكْلٌ شَكْلٌ لَا يَقُولُ بِمِثْلِهِ .: مِنَ النَّاسِ إِلَّا كُلُّ ذِي نِيَقَةٍ مِثْلِي**

**وَلِي نِيَقَةٌ فِي الْمَجْدِ وَالْبَذْلِ لَمْ يَكُنْ .: تَأْنِقَهَا فِيمَا مَضَى أَحَدْ قَبْلِي**

**وَاجْعُلْ مَالِي دُونَ عِرْضِيَ جَنَّةً .: لِنَفْسِي ، وَأَسْتَقْنِي بِمَا كَانَ مِنْ فَضْلِي**

وأنشدني عبد الله المأمون :

**بَكَرَتْ تَلُومُكَ مَطْلَعَ الْفَجَرِ .: وَلَقَدْ تَلُومُ بِغَيْرِ مَا تَدْرِي**

**مَا إِنْ مَلَكْتَ مُصِيبَةً نَزَلتْ .: إِذْ لَا يُحَكِّمُ طَائِعًا أَمْرِي**

**مَلِكُ الْمُلُوكِ عَلَيَّ مُقْتَدِرٌ .: يَعْطِي إِذَا مَا شَاءَ مِنْ يُسْرٍ**

فَإِنَّ رَبَّ مُغْتَبَ بِمُرْزَقَةٍ : . وَمُفْجَعَ بِنَوَافِبِ الدَّهْرِ  
 وَمُكَاشِحَ لِي قَدْ مَدَدْتُ لَهُ : . نَحْرًا بِلَا ضَرْرٍ وَلَا غَمْرٍ  
 حَتَّى يَقُولَ لِنَفْسِهِ ، تَهْفًا : . فَبِأَيِّ مَذْهَبٍ غَايَةٍ أَجْرِي  
 وَتَرَى قُنْتَاتِي حِينَ يَغْمُرُهَا : . غَمْزَ الثَّقَاتِ بَطِيهَةَ الْكَسْرِ

فقال : يا عليُّ ، فيكيف تراهما فقلت :  
 أَرَى قَمَرَى أَفْقَ وَفَرْعَى بَشَامَةَ : . يَزِينُهُمَا عِرْقٌ كَرِيمٌ وَمَحْتَدٌ  
 يَسْدَانٌ آفَاقَ السَّمَاءِ بِشِيمَةَ : . يُؤَيِّدُهَا حَزْمٌ وَعَضْبٌ مُهَنَّدٌ  
 سَلِيلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَحَائِزَى : . مَوَارِيثَ مَا أَبْقَى النَّبِيُّ مُحَمَّدُ

ثم قلت : يا أمير المؤمنين ، زَرْعُ زَكَا أَصْلَهُ ، وَطَابَ مَغْرِسَهُ ، وَتَمَكَّنَتْ عَرْوَقَهُ ،  
 وَعَذَبَتْ مَشَارِبَهُ ، غَذَاهَا مَلَكُ أَغْرِ ، نَافَدَ الْأَمْرُ ، وَاسْعَ الْعِلْمُ ، عَظِيمُ الْحَلْمِ  
 وَالْقَدْرِ ، عَلَاهَا فَعْلِيَا وَحِكْمَاهَا فَتَحْكَمَا ، وَعِلْمَهَا فَتَعْلَمَا ، فَهَا يَطْوِلَانِ بَطْوَلَهُ ،  
 وَيَسْتَضِيئَانِ بِنُورِهِ ، وَيَنْطَلِقَا بِلِسَانِهِ ، وَيَتَقْلِبَانِ فِي سَعَادَتِهِ ، فَمَا رَأَيْتَ أَحَدًا مِنْ  
 أَبْنَاءِ الْخَلْفَاءِ أَذْرَبَ مِنْهَا لِسَانًا ، وَلَا أَعْذَبَ كَلَامًا ، وَلَا أَحْسَنَ أَفْاظًا ، وَلَا أَشَدَّ  
 اقْتِدَارًا عَلَى تَأْدِيَةِ مَا حَفْظَا وَرَوَيَا ، فَأَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يَزِيدَهُمَا إِلِيْمَانَ تَأْيِيدًا وَعَزَّاً ،  
 وَيَمْتَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِمَا ، وَيَمْتَعُهُمَا بِدَوْامِ قَدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، مَا بَقِيَ لَيْلٌ وَأَضَاءَ  
 نَهَارٌ ! فَضْمِنُهُمَا إِلَى صَدْرِهِ وَجَمْعُ يَدِيهِ عَلَيْهِمَا ، فَلَمْ يَبْسُطُهُمَا حَتَّى رَأَيْتَ دَمَوعَهُ  
 تَتَحَادِرُ عَلَى صَدْرِهِ<sup>(١)</sup>. وَلَقَدْ صَدَقَ صَاحِبُ "الاتِّجَاهَاتُ الْأَدْبِيَّةِ" فِي قَصْرِ الْمَأْمُونِ  
 حِينَما قَالَ : إِنَّ هَذِهِ مِنْ أَرْوَعِ نَدْوَاتِ الرَّشِيدِ التَّرْبِيَّةِ التَّعْلِيمِيَّةِ ، وَكَأَنِّي بِهِ عَلَى  
 عِلْمِ بَنْظَرِيَّاتِ التَّرْبِيَّةِ الْحَدِيثِيَّةِ<sup>(٢)</sup> . وَمَنْ يَتَبَعُ هَذِهِ الْمَتَابِعَةَ فَإِنَّ مَصَادِرَ الْأَدْبِ  
 وَالتَّارِيخِ مَمْلُوَّةٌ بِالنَّدْوَاتِ الَّتِي عَقَدَهَا الْخَلْفَاءُ لِتَعْلِيمِ أَبْنَائِهِمُ الْفَضْلِيَّةِ وَالْلُّغَةِ وَالْأَدْبِ  
 فَهَا هُوَ الْمُفْضِلُ الضَّبِيُّ يَقُولُ "وَجَهَ إِلَى الرَّشِيدِ" ، فَمَا عَلِمْتُ إِلَّا وَقَدْ جَاءَتِي

(١) البيهقي ، المحسن والمساوي ، مصر ، مكتبة النهضة ، ٢ / ١٣٩ حتى ١٤٣ والحادية في مروج الذهب للسعدي ٤ / ٢١٠ - ٢١٢ ط منشورات الجامعة اللبنانيَّة .

(٢) سامي عابدين ، الاتِّجَاهَاتُ الْأَدْبِيَّةُ فِي قَصْرِ الْمَأْمُونِ ، مطبعة دار العلوم العربيَّة ، ص ٣٨ .

الرَّسُولُ لِيَلًا ، فَقَالُوا : أَجْبُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَخَرَجَتْ حَتَّى صَرَتْ إِلَيْهِ ، وَذَلِكَ يَوْمُ الْخَمِيسِ ، وَإِذَا هُوَ مُتَكَئٌ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ يَسَارِهِ ، وَالْمُؤْمِنُ عَنْ يَمِينِهِ ، فَسَلَّمَتْ ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ فَجَلَسَتْ ، فَقَالَ لَيْ : يَا مُضْعِلٍ ، قَلْتَ ؛ لَبِيكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : كَمْ اسْمًا فِي " فَسِيكِيفِكِهِمْ " ؟ قَلْتَ : ثَلَاثَةُ اسْمَاءٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ وَمَا هِيَ ؟ قَلْتَ : الْكَافُ لِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - ، وَالْهَاءُ وَالْمَيمُ ، هِيَ لِكُفَّارٍ ، وَالْبَاءُ وَهِيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، قَالَ : صَدِقْتَ ؟ هَذَا أَفَادَنَا هَذَا الشَّيْخُ - يَعْنِي الْكَسَائِيِّ - ثُمَّ التَّفَتَ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ ، فَقَالَ لَهُ : أَفَهِمْتَ يَا مُحَمَّدٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ قَالَ أَعْدَ عَلَيَّ الْمَسْأَلَةَ كَمَا قَالَ الْمُضْعِلُ ، فَأَعْدَادَهَا ، ثُمَّ التَّفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ : يَا مُضْعِلٍ عَنْدَكَ مَسْأَلَةٌ تَسْأَلُنَا عَنْهَا بِحُضْرَةِ هَذَا الشَّيْخِ ! قَلْتَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ وَمَا هِيَ ؟ قَلْتَ : قَوْلُ الْفَرِزِدِقِ :

**أَخَذْنَا بِأَفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ .: لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالُ**

قال : هيئات : أفادناها متقدماً الشيخ ؛ لنا قمراها ، يعني الشمس والقمر ...<sup>(١)</sup> . وبالنظر إلى هذه الأسئلة التي يسألها هارون الرشيد لعلماء اللغة والنحو في عصره؛ نجد أنها أسئلة تحوي نقاطاً دقيقة من نقاط العلم ، لا يمكن أن تصدر من إنسان سطحي الثقافة هامشي الفكر ، يسأل عن أمورٍ عامة ، بل هي أسئلة سهر عليها مفكراً فيها كي يقولها ، فإذا كان الخليفة الألب يسهم في هذه المسائل العلمية الدقيقة ، فمما لا شك فيه أنه قد علمها وتدارسها ، فخطا خطوات واسعة في علم اللغة وأدابها ، وفهم أسرارها ، ثم هو يرجو أن يعلمها أبناءه ، فمن غير المعقول أن يعلمهم هذه المسائل في اللغة والأدب ويجعلها هو ، أو أنه تعلمها طفرة واحدة دون تعلم شارع يمر به كل من سعي إلى المعرفة والعلم ، إذا لابد للمتعلم لكي يصل إلى هذه الدرجة من الدقة أن يكون قد مر بمراحل علمية ضرورية كمرحلة أولية يستطيع على أساسها أن يفهم هو المسائل .

وكان هارون الرشيد ينتهز فرصة وجود العلماء إلى جانبه ، ليتعلم منهم ، ويستفيد من وجودهم ، " سأله الرشيد عن بيت الراعي :

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبراني ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منتحة ، طبعة دار المعارف ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، سنة ١٩٦٦ / ٨ ، ٣٦١ .

**قَتَلُوا ابْنَ عَفَّانَ الْخَلِيفَةَ مُحْرِمًا .: وَدَعَا فَلَمْ أَرْ مِثْلَهُ مَخْزُولًا**

ما معنى محرماً ، قال الكسائي ، إحرام بالحج ، فقال الأصمعي : والله ما كان أحرم بالحج ولا أراد الشاعر أنه أيضاً في شهر حرام ، يقال : أحرم إذا دخل فيه ، كما يقال أشهر إذا دخل في الشهر ، وأعام إذا دخل في العام ، فقال الكسائي : ما هو غير هذا ، وإلا فما أراد ، فقال الأصمعي : ما أراد عدي بن زيد بقوله :

**قَتَلُوا كِسْرَى بِلَيْلٍ مُحْرِمًا .: فَتَوَلَّى لَمْ يُمَتَّعْ بِكَفَنْ**

أي إحرام لكسرى ؟ فقال الرشيد : ما تطاق ، فما المعنى ؟ قال : كل من لم يأت شيئاً يوجب عليه عقوبة فهو محرم لا يحل شيء منه ، فقال الرشيد : ما تطاق في الشعر يا أصمعي<sup>(١)</sup> . ولم تكن الألفاظ الغريبة في العربية لتمر على هارون الرشيد مروراً عابراً ، ولكنه كان لا يترك العالم حتى يفهم منه غريب اللغة " عن الأصمعي قال : دخلت على هارون الرشيد ومجلسه حافل ، فقال : يا أصمعي ، ما أغفلك عنا وأجفاك لحضرتنا ؟ فقلت : والله يا أمير المؤمنين ما ألا قتنى بلادك بعدك حتى أتيتك ، فأمرني بالجلوس فجلست ، فلما تفرق الناس - إلا أقلهم نهضت للقيام ، فأشار إلى أن أجلس ، فجلست حتى خلا المجلس فلم يبق غيري وغيره وما بين يديه من الغلمان ، فقال لي : يا أبا سعيد : ما ألا قتنى ؟ قلت : ما أمسكتني ، وأنشدته :

**كَفَّاكَ كَفْ لَا تُلِيقُ دِرْهَمًا .: جُودًا وَأَخْرَى تُعْطِ بِالسَّيْفِ الدَّمًا<sup>(٢)</sup>**

قال لي : أحسنت ، وهكذا فكن وقرنا في الملا ، وعلمنا في الخلاء ، فأمر لي بخمسة آلاف درهم ، وفي رواية دينار <sup>(٣)</sup> ، فهو أولاً لا تحجبه أبهة الملك وعظمة الخلافة عن طلب العلم متى وجد إلى ذلك سبيلاً ، فهو لا يستحق أن يعترف بجهله ببعض المسائل ، ليس هذا فقط ، بل لا يقنع بأن يستمر جاهلاً لها ، وهو يعرف للعالم قدره للحكيم منزلته ، فقد كان هارون الرشيد وابنه المأمون أكثر خلفاء هذا العصر تقديرًا للعلماء وإعلاءً لمنزلتهم ، واعترافاً بفضلهم

(١) ابن الجوزي ، المنظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي ، ٦ / ٢١٢ .

(٢) الفعل المضارع (تعطي) ليس مجزوماً ولكنَّ الضرورة أوقعت الشاعر في الخطأ .

(٣) نفسه : ٣٦٥/٥ .

ومكانتهم التي توجب على كل الناس أن ينزلوا لها من منازلهم العالية . ويكرمونهم أشد أنواع التكريم ، " كان المأمون قد وكل ( الفرّاء ) يلقن ابنيه النحو، فلما كان يوماً أراد الفراء أن ينهض إلى بعض حوانجه ، فابتدا إلى نعل الفرّاء يقدمان له ، فتاز عا أيهما يقدمه ، ثم اصطلاحاً أن يقدم كل منهما فرداً ، فقدمها ، وكان المأمون له على كل شيء صاحب خبر ، فرفع ذلك الخبر إليه ، فوجه إلى الفراء فاستدعاه ، ودخل عليه فقال له من أعز الناس ، قال : ما أعرف أعز من أمير المؤمنين ، قال : بل من إذا نهض نقاتل على تقديم نعليه ولية العهد ، حتى رضى كل واحد منها أن يقدم فرداً ، قال يا أمير المؤمنين لقد أردت أن أمنعهما من ذلك ، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليهما ، أو أكسر نفوسهما عن شريفة حرصا عليها .

قال له المأمون " لو منعهما عن ذلك لأوجعتك لوماً وعتباً ، وألزمتك ذنباً ، وما وضع ما فعلاه من شرفهما ، بل رفع من قدرهما وبين عن جوهرهما ، وقد تبيّنت لي مخيلة الفراسة بفعلهما ، فليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلات : عن تواضعه لسلطانه ، ولو والده ، ولمعلمه العلم<sup>(١)</sup> . فإلي هذه الدرجة يصل الشعور عندهم بمكانة العالم ، حتى يعدون حمل حدائه شرفاً وليس نقيبةً .

هذا هو الجهد الذي بذله الآباء الخلفاء لكي ينهضوا بأبنائهم كي يجعلوهم في مكانة علمية تقارب مكانة العلماء ، ولنا أن نسأل ، هل استوعب المتعلمون الثقافة العربية ، وآداب العرب القديمة كما ينبغي لهم أن يستوعبواها ؟ ! يقول الباحث: نعم لقد كانوا على وعيٍ تامٍ بالأدب العربي القديم ، بل وحفظوا الكثير منه ، وفهموه فهماً جيداً ، وكذلك منهم - بل غالبيتهم - من تابع آداب عصره وعرف جيده من روئيه، فهو على علم بما قيل في الشعر ، بل ويحفظ كثيراً منه حفظاً جيداً ، ويصوب أخطاء وقع فيها الشعراء المعاصرون له ، وأخيراً فمن هؤلاء الحكام والخلفاء من قدر على نظم الشعر خالياً من الأخطاء ، مملوءاً بالروعة والنصاعة والفصاحة بجانب بلاغة القول النثري التي تتضمن بالبلاغة والفصاحة ، والفهم لقواعد اللغة .

---

(١) نفسه : ٦ / ١٧٣ .

## أ- الاهتمام بالشعر القديم :

أما عن معرفتهم بالشعر القديم فمما لا شك فيه أن هناك تبايناً بين الحكم في العلم به ، فهذا من طبيعة الأشياء ، ولكنهم على الجملة كانوا يحفظون الكثير منه ، ويعرفون قدره " وكانوا يعنون بالمسائل اللغوية واللفظية عناية عظيمة ، كما كانوا يعنون أيمما عنایة بحفظ الأشعار وروايتها ، ويعتبرون عدم حفظها مصيبة وكارثة ، فقد روى الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال : لما مات جعفر بن المنصور مشي المنصور في جنازته من المدينة إلى مقابر قريش ، ومشى الناس أجمعون معه حتى دفنه ثم انصرف إلى قصره ، ثم أقبل على الربيع انظر من في أهلي من ينشد :

### أَمِنَ الْمُنْتَوْنَ وَرَبِّهَا تَتَوَجَّعُ<sup>(١)</sup>

حتى أتسلى بها عن مصيبيتي ، قال الربيع : فخرجت إلىبني هاشم وهم بأجمعهم حضور فسألتهم عنها فلم يكون فيهم أحد يحفظها ، فرجعت فأخبرته فقال : والله لمصيبيتي بأهل بيتي ألا يكون فيهم أحد يحفظ هذا لقلة رغبتهم في الأدب ، أعظم وأشد عليّ من مصيبيتي بابني ، ثم قال : انظر هل في القواد والعوام من الجندي من يعرفها ، فإني أحب أن اسمعها من إنسان ينشدها ، فخرجت فاعتربت الناس ، فلم أجد أحداً ينشدها إلا شيئاً كبيراً مؤبداً قد انصرف من موضع تأدبيه ، فسألته هل تحفظ شيئاً من الشعر ؟ فقال : نعم شعر أبي ذؤيب فقلت : أنشدني ، فابتداً هذه القصيدة العينية ، فقلت له : أنت بغيتي ، ثم أوصلته إلى المنصور ، فاستشدها إياها<sup>(٢)</sup> فالمنصور يعرف القصيدة معرفة تامة ، ويقدر قيمتها ، وإن كان يريد أن يسمعها من غيره ، فليس معنى ذلك أنه يجهلها ، بل مصيبيته تستدعي أن يسمع لا

(١) الشعر لأبي ذؤيب الهزلي من قصيده في رثار بنيه ، أبو سعيد الحسين بن الحسين السكري ، شرح شعر الهنديين ، تحقيق : عبدالستار فراج ، ٤/٤ ، أخبار أبي ذؤيب في أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، القاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٣٥ م ، ٦ / ٢٦٤ .

(٢) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، ط ٢ ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، سنة ١٩٩٧ م ، ١ / ١٤٧ .

أن ينشد ، ثم هو في هذا الجو المملوء حزناً على الابن المفقود ، فإن أبا جعفر المنصور لا ينسى أن يمنحه على إنشاده مائة درهم .

ثم هو - أي المنصور وأيضاً يطلب حماداً الرواية ، ويأمر بضرورة البحث عنه وإحضاره أينما كان " فلما مثل بين يديه قال له : أنشدني شعر هفان بن همام بن نضلة يرثي أباه ؛ فأنشده :

خَلِيلِيْ عُوجَا إِنَّهَا حَاجَةُ لَنَا .: عَلَى قَبْرِ هَمَّامِ سَقْتُهُ الرَّوَاعِدُ  
عَلَى قَبْرِ مَنْ يُرْجَى نَدَاهُ وَيُبَتَّغَى .: جَدَاهُ إِذَا لَمْ يَحْمَدْ الْأَرْضَ رَأَدُ  
كَرِيمُ النَّتَّا حُلُونُ الشَّمَائِلِ بَيْنَهُ .: وَبَيْنَ الْمُزَجَّى نَفَفُ مُتَبَاعِدُ  
إِذَا نَازَعَ الْقَوْمُ الْأَحَادِيثَ لَمْ يَكُنْ .: عَيْيَا وَلَا ثُقْلَا عَلَى مَنْ يُقَاعِدُ  
صَبُورٌ عَلَى الْعِلَاتِ يُصْبِحُ بَطْنُهُ .: خَمِيسًا وَآتَيهُ عَلَى الزَّادِ حَامِدُ  
وَضَعَنَا الْفَتَى كُلَّ الْفَتَى فِي حُفَيرَةٍ .: بَحْرَيْنِ قَدْ رَاحَتْ عَلَيْهِ الْعَوَادِ  
صَرِيعًا كَنَصْلِ السَّيْفِ تَضَرِبُ حَوْلَهُ .: تَرَأَبْهُنَّ الْمُغَوِّلَاتُ الْفَوَاقِدُ

قال: فبكى أبو جعفر المنصور حتى أحصل لحيته ، ثم قال : هكذا كان أخي أبو العباس - رضي الله عنه <sup>(١)</sup> . وهذا هارون الرشيد ، الخليفة العالم الفطن الذكي ، الخبرير بآداب العرب القديمة ، " قال الأصممي : تأخرت عن الرشيد ثم جئته ، فقال : كيف أنت ، قال بت بليلة النابغة ، فقال : إنا لله هو والله قوله :

فَبِتُّ كَانِي سَاوَرْتِي ضَئِيلَةً .: مِنْ الرُّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ  
فَعَجِبْتُ مِنْ ذَكَائِهِ وَفَطَنْتُهُ لِمَا قَصَدْتُ <sup>(٢)</sup> . وهذا هارون الرشيد أيضاً ، يدخل عليه ( سهل بن هارون ) وهو يضاحك المأمون فقال : اللهم زده من الخيرات ، وأبسط له من البركات ، حتى يكون في كل يوم من أيامه مربياً على أسمه ، مقصراً عن غده ! فقال له الرشيد : يا سهل من روى من الشعر أحسنه وأرصلنه ، ومن الحديث أصحه وأوضحه : إذا رام أن يقول لم يعجزه القول ، فقال : سهل بن

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، القاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٣٥ م ، ٦ / ٨٠ - ٨١ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي ، ٥ / ٣٦٥ .

هارون: يا أمير المؤمنين ما ظننت أن أحداً تقدمني إلى هذا المعنى ، قال : بل (أعْشَى هَمَانَ) حيث يقول :

رَأَيْتُكَ أَمْسَ خَيْرَ بَنِي مَعَدَ .: وَأَنْتَ الَّيْوَمَ خَيْرٌ مِنْكَ أَمْسٍ  
وَأَنْتَ غَدَأَ تَزِيدُ الضُّفَرَ خَيْرًا .: كَذَاكَ تَزِيدُ سَادَةَ عَبْدِ شَمْسٍ<sup>(١)</sup>

فلو لم يكن حاضراً كُمْ غزير من الأدب الرفيع في ذهن الرشيد ، لما استطاعت بديهته أن تستحضر هذه الأبيات بهذه السرعة ، ثم هو يعقد مقارنة سريعة بين قول (سَهْلِ بْنِ هَارُونَ) وقول (أعْشَى هَمَانَ) ، ثم يمرر على ذنه الأدب السابق عليه حتى يقع على هذه الأبيات ، ولم يكن الرشيد وحده هو الفطن للأدب العربي السابق عليه ، الوعي له ، المملوء به إعجاباً وشغفاً ، فإذا قلنا إن المفضل الضبي قد جمع مجموعته الشعرية المسمة بالمفضليات لل الخليفة المهدي حينما كان أستاذًا له ومعلمًا ، فنستطيع أن نقول مطمئنين إن الخليفة المهدي كان عالماً بالشعر العربي القديم ، فقد روى صاحب الأغاني قال " كانوا في دار المؤمنين المهدي بعيسي باز ، وقد اجتمع فيها عدة من الرواة والعلماء أيام العرب وأدابها وأشعارها ولغاتها إذ خرج بعض أصحاب الحاجب ، فدعوا بالمفضل الضبي الراوية ، فدخل فمكث ملياً ثم خرج إلينا ومعه حماد والمفضل جمياً ، وقد بان في وجه حماد الانكسار والغم ، وفي وجه المفضل السرور والنشاط ، ثم خرج حُسْيَنَ الْخَادِمَ معهما فقال : يا معاشر من حضر من أهل العلم ، إن أمير المؤمنين يعلمكم أنه وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره ، وأبطل روایته لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألفاً لصدقه وصحة روایته ، فسألنا عن السبب فأخبرنا أن المهدي قال للمفضل لما دعا به وحده : إنني رأيت (زُهَيْرَ بْنَ أَبِي سُلَمَى) افتح قصيده بأنه قال :

(١) ابن عبد ربه ( عمر جمال الدين يوسف بن عمر ) ، العقد الفريد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه ، أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الأبياري ، سنة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م ، ٥ / ٣٣٩ . وأبو اسحق الحصري القيرواني ، زهر الآداب ، مصر المطبعة الرحمنية ، تحقيق : زكي مبارك ، ٢ / ٢٥٣ .

## دع ذا وعد القول في هرم

ولم يتقى له قبل ذلك قول ، فما الذي أمر نفسه بتركه ؟ فقال له المفضل : ما سمعت يا أمير المؤمنين في هذا شيئاً ، إلا أنني توهنت كان يفكر في قول يقوله ، أو يروي في أن يقول شعراً ، فعل عنده إلى مدح هرم وقال : دع ذا ... الخ ، ثم دعا بحمد فسألة عن مثل ما سأله عنه المفضل ، فقال : ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين ؟ قال : كيف قال ؟ فأنسده :

**لِمَنِ الْدِيَارُ بِقُتْلَةِ الْحَجْرِ .: أَقْوَيْنَ مُذْ زَمَنٍ وَمُذْ دَهْرٍ  
قُفْرُ بِمُنْدَفِعِ النَّجَابِ مِنْ .: خَفْوَى أُولَاتِ الضَّالِّ وَالسَّدْرِ  
دع ذا وعد القول في هرم .: خَيْرِ الْكُهُولِ وَسَيِّدِ الْحُضْرِ**

فأطرق المهدي ساعةً ، ثم أقبل على حمد فقال له : قد بلغ أمير المؤمنين عنك خبر لابد من استخلافك عليه ، ثم استخلفه ، بأيمان البيعة وكل يمين محجة ليصدقه عن كل ما يسأل عنه ، فحلف له بما توثق منه قال له : اصدقني عن هذه الأبيات ، ومن أضافها إلى زهير ، فأقر له حينئذ أنه قائلها ، فأمر فيه وفي المفضل بما أمر به من شهرة أمرهما وكشفه<sup>(١)</sup> . والذي يبدو من استطاق هذا الخبر ولوهلة الأولى أن الخليفة المهدي شك في أمرتين ، أولهما : شكه في الزيادة في عدد الأبيات ، والتي قد تكون أملتها عليه حاسته الثقافية ، فلم يستطع قبولها ، أما الأمر الآخر : فإنه شك في صدق حمد الرواية ، وذلك استخلفه بكل إيمان محجة مغلظة بحمل الحال بها يخشى الكذب والتمادي في الخطأ والزيادة ، وقد نلاحظ أيضاً أنه لم يقدم على استخلاف معلمه المفضل ؛ لاعتقاده صدقه وصدق روایته ، وأنه بعيد عن الكذب وبسبب ذلك " ذكر محمد بن زياد ، قال المفضل : قال لي المهدي : اجمع لي الأمثال مما سمعتها من البدو ، وما صح عندك ، قال فكتبت له الأمثال وحروب العرب مما كان فيها ، فوصلني وأحسن إلى " <sup>(٢)</sup> . فهو

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، القاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٣٥ م ، ٩٠ / ٦ .

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، طبعة دار المعارف ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، سنة ١٩٦٦ ، ٨ / ١٨٠ .

أستاذه ، ومعلمه وثقته ، لذا أثره بجمع العلم ، حتى يصل إليه وإلى الناس شيء موثوق به ، ولقد صدق الرفاعي حين قال : " لا يقدس العرب من علوم الحياة وفنونها شيئاً أكثر من تقديسهم الشعر الذي استودعوه أفكارهم وأخبارهم ، وحفظوا به فخرهم ومناسبهم ، وساقوا به الجيوش والجحافل ، فدكت عروشاً وأبادت ممالك ، وضمنوه من أخلاقهم وعاداتهم وشئون حياتهم ما جعله مكان فخرهم ومفرع أمرهم ، وقد بقيت للشعر هذه المكانة في كل عصوره العربية ، ولم ينل منه أن دولة العباسيين قامت على سواعد الفرس ، وحلوا منها مكان الصدور والحكام ، فإن الخلفاء والساسة وجمهرة الأمراء والأدباء كانوا يحملون فوق أكتافهم رؤوساً عربيةً ، حفظوا فيها تراث آبائهم ومخابر أجدادهم ، وأقبلوا على الشعر وإنشاده <sup>(١)</sup> . وهذا عن الشعر القديم وتمثل الخلفاء له ، حفظهم إياه وكتب التراث الأدبي والتاريخي مملوءة بأخبار هؤلاء الخلفاء مع الشعر العربي القديم .

### **بـ الاهتمام بآداب عصرهـ :**

كان الخلفاء يتبعون عن كثب حركة الأدب شعراً ونثراً ، فيجلسون للشعراء في ندوات ملئت بها مصادر الأدب ؛ فلم يكن بيت نادرٌ ، ومعنى جميلٌ ، أو سبكٌ شعريٌّ محكم من مدح أو هجاء أو غزل أو حكمة ، إلا وكان عند الخلفاء علم به ، كل خليفة حسب ميله واهتماماته ، من ذلك ما يروي عن "المهدي أن ( مَرْوَانَ بنَ أَبِي حَفْصَةَ ) دخل عليه بعد وفاة ( مَعْنَ بنَ زَائِدَ الشَّيْبَانِيَ ) في جماعة من الشعراء فيهم ( سُلَمَ الْخَاسِرَ ) وغيره ، فأنشد مدحًا فيه ، فقال له : ومن أنت ؟ قال : شاعرك يا أمير المؤمنين وعبدك مروان بن أبي حفصة ، فقال له المهدي ،

أَلسْتَ الْقَائِلَ :

**أَقَمْنَا بِالْيَمَامَةِ بَعْدَ مَعْنٍ .: مُقَامًا لَا نُرِيدُ بِهِ زَوَالًا  
وَقَنْنَا أَيْنَ نَرْحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ .: وَقَدْ ذَهَبَ النَّوَالُ فَلَانَوَالَّ**

---

(١) عصر المأمون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ م ، ١٥١/١ . ١٥٢

قد ذهب النوال فيما زعمت ، فلم جئتْ تطلبُ نوالنا : لا شيء لك عندنا<sup>(١)</sup> . وإن الإنسان ليعجب بما حدث مع مروان بن أبي حفصة ، كيف عرف الخليفة هذا المدح ، ولا أقصد كيفية المعرفة ، لأن أبواب المعرفة كانت مفتوحة أمام كل الناس ، ولكنني أقصد كيف حفظه ، وكيف تمكّن من معرفة اسم صاحبه ، علماً بأنه لا يعرف شخصه بدليل أنه سأله عن نفسه ، حتى حانت اللحظة المناسبة ، فإذا هو يكرره بإجادته تامة ، ولو لم يكن مهتماً بالأدب الجيد ؛ لشغله أمور كثيرة من أمور الملك والحكم والخلافة عن متابعة مدح ليس له ، حتى غاظه كل هذا الغيط ، فإذا به يطرده من مجلسه بسبب شعره فهو خليفة واعٍ بأدب عصره مهتمٌ به حافظ له .

وهذا هارون الرشيد فيم يرويه أبو الفرج عن (بَرِيزِدَ بْنِ مَزِيدَ الشَّيْبَانِي) "أرسل إلى الرشيد يوماً في وقت لا يرسل فيه إلى مثلي ، فأتيته لابساً سلاхи ، مستعداً لأمر إن أراد مني ، فلما رأني ضحك إلى ثم قال : يا يزيد ، خبرني من الذي يقول فيك :

**تراءٌ في الأمْنِ فِي درْعٍ مُضَاعِفَةٍ** :: لا يَأْمُنُ الدَّهْرُ أَنْ يُدْعَى عَلَى عَجَلٍ  
فقلت : لا أعرفه يا أمير المؤمنين ؛ فقال : سوءة لك من سيد قوم يمدح بمثل هذا  
الشعر ولا يعرف قائله ! وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله ، وهو مسلم  
بن الوليد ؛ فانصرفت فدعوت به ، ووصلته ووليته<sup>(٢)</sup> . وللمرء أن يعجب أن  
يكون الخليفة السيد أعلم بالمدح من قيل فيه المدح ، ليس هذا فقط بل أن يكون  
الخليفة أعلم بالشعر من قائد من قواده ، علماً بأن هموم ومشاغل الخليفة أكثر  
بطبيعة الحال من هموم القائد ، خاصة إذا كان هارون الرشيد ، الذي كان يعلم  
جيداً تبعية مسئoliته عن الأمة ، ولكن حبه للأدب الرفيع ، ورغبتـه في العلم ،  
واهتمامـه بآداب عصره ، جعلـه لا يقول يعلمـ به فقط بل ويحفظـه حفظـاً جيدـاً ثم

(١) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المؤمنون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ م ، ١ / ١٥٢ الشعر في ديوان مروان ، ص ٧٩ .

(٢) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني طبعة دار الشعب طبعة كاملة محررة معها فهارس ، بإشراف وتحقيق : إبراهيم الأبياري ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م . ٢١ / ٧٢٦٨ .

يوبخ قائدہ علی جھلہ بہ ، ولا یقل عنہ بآدب عصرہ علمًا ابنہ المأمون ، فقد رُوی عنہ أنه " قال لأبی عمرو الشیبانی : من أشعر الناس ؟ فقال : قد اختلف في هذا يا أمیر المؤمنین ؛ فقيل أشعر الناس ( امْرُؤُ الْقَيْسِ ) إذا ركب ، و ( زُهْیْرٌ ) إذا رغب ، و ( النَّابِغَةُ ) إذا رهب ، و ( الأعْشَى ) إذا طرب ، فقال المأمون : دعني من هذا ، من الذي يقول :

لَا يَزَالُ اللَّيْلُ حَيْثُ خَاتَ . فَدَهْرُ شُرَابِهَا نَهَارٌ

قال : أبو نواس . فقال : من الذي يقول :

فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ . كَتَمَشَّي الْبُرْءُ فِي السَّقَمِ

قال : أبو نواس . فقال : من الذي يقول :

إِذَا مَا أَتَتْ دُونَ الْهَاهِتِ مِنَ الْفَتَى . دَعَاهُمْ مِنْ صَدْرِهِ بِرَحِيلِ

قال : أبو نواس . فقال : هذا أشعر الأوَّلين والآخرين" (١) .

والذي تجدر ملاحظته والإشارة إليه ، ليس إعجاب الخليفة بشاعرٍ معاصر له ، فمن حقه أن يعجب بمن يراه - من وجهة نظره - جيد القول ، بل لحكمة له بأنه أشعر الناس ، علمًا بأن مسألة أشعر الناس هذه كانت محل خلاف بين العلماء ، ولو لم يكن الخليفة راسخ القدم في تمييز الشعر لاقتنع بما قاله أبو عمرو الشیبانی نقاً عن علماء اللغة والأدب ، خاصة وأن المعاصرة كثيراً ما تكون حاجزاً بين المعاصر من الشعرا و وبين تفضيل شعره ، إلا أن الخليفة العالم يفضل أبا نواس على غيره من الشعرا قديماً وحديثاً ، ولم يكن هذا بالطبع رأياً عشوائياً منه إن صح التعبير ولكنه الذوق الفني العالي عند المأمون .

وكان كذلك هارون الرشید فيما يحکیه عنه ( شُرَاحِيلُ بْنُ مَعْنَ بْنُ زَائِدَةَ ) " حج الرشید وزميله ( أبُو يُوسُفُ الْقَاضِيُّ ) ؛ وکنت كثيراً ما أسايره ، فيبينما أنا أسايره إذ عرض له أعرابيًّا من بنی أسد ، فأنشده شعرًا مدحه فيه وقرظه ، فقال له الرشید ، ألم أنهك عن مثل هذا في شعرك يا أخا بنی أسد ؟ إذا أنت قلت فقل كما قال مروان بن أبي حفصة في أبي هذا وأشار إلى ما يقول :

(١) ابن وادران ، تاريخ العباسيين ، ط ٢ ، بيروت ، طبعة دار الغرب الإسلامي ، تحقيق : وتقديم : المنجي الكعبي ، سنة ١٩٩٣ ، ص ٤٢٠ .

**بُنُوْ مَطْرِ يَوْمِ الْقَاءِ كَانُُهُمْ .: أَسْوُدُ لَهَا فِي غِيلِ خَفَّانَ أَشْبُلُ  
هُمْ يَمْتَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَانُُهُمْ .: لَجَارُهُمْ بَيْنَ السَّمَاكِينَ مِنْ زَلَّ  
بَهَا لِيلٌ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ .: كَأَوَّلِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ  
هُمُ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا .: أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا**

**وَمَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فِعَالُهُمْ .: وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّاثِبَاتِ وَأَجْمَلُوا<sup>(١)</sup>**  
فهذاوعيٌّ تامٌ ، ومعرفةٌ كاملة بأدب العصر ، وقد كان هارون الرشيد مضرب  
المثل في الحكمة والعلم والاهتمام بالعلماء والإحاطة بالأدب ، وجعل ذلك أحمد  
فريد الرفاعي يقول عنه : " على أن شهرة هذا الخليفة ومصدر صيته راجع إلى  
أن حكمه عجل بدخول عصر الأداب ، فقد كان قصره المثابة التي يهرع إليها  
الحكماء والعلماء من أنحاء العالم ، وكانت سوق البلاغة والشعر والتاريخ والفقه  
والطب والموسيقى والفنون نافقة ، إذ يقابلها الخليفة مقابلة من في سجيته النبل  
والكرم ، كل ذلك مما آتى أكله وثمره الناضج في العصور الآتية"<sup>(٢)</sup> . ولم تكن  
هذه الثقافة وهذا المعرفة لتأتي من فراغ ، أو دون جهد من الحكام ، وإنما كان  
الخلاف على ترفهم ورهافتهم ونعمتهم دائمي النظر في الأدب في وجود أصحابه  
ودون وجودهم ، يجدون في ذلك لذة ومتعة ، لا يتزكون أنفسهم مطبة للهو والتمتع  
والزخرفة في كل الأحيان ، ولكنهم يجعلون جل وقتهم للمفيد من العلم ، والجيد  
من الشعر ، والمفيد من الأدب ، على تفاوت بينهم إلى حد ما .

إذاً فإن خلفاء العباسيين كانوا يتبعون الحركة الأدبية في عصرهم متابعة جيدة  
يقيمون الشعر ، ويعرفون غثه من سمينه ، ويعطون الشعراً ما لا يتخيل من  
الأعطيات حال رضاهم عن جودة الشعر ، ويصل عقابهم إلى القتل عندما يتجاوز  
الشاعر حدوده في إغضاب الخليفة أو الحاكم كما حدث مع أبي نحيلة وبشار بن

(١) ابن عبد ربه ( عمر جمال الدين يوسف بن عمر ) ، العقد الفريد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة  
والنشر ، ضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه : أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم

الأبياري ، سنة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م ، ٥ / ٢٩١ . ديوان مروان ، ص ٨٨ .

(٢) عصر المؤمن ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ ، ١ / ١١٦ .

برد ، مما كان له أثره ، وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل عن الحديث عن دورهم في تطور الأغراض في الشعر العباسي .  
**المستوى الفني عند الطبقة الحاكمة :**

ولم تكن هذه الثقافة مجرد علم نظري علمه هؤلاء الخلفاء ، وإنما أنتج لنا تشعّبهم بالثقافة اللغوية والأدبية فناً أدبياً عالياً الجودة ، وقد كان هذا ثمرة مرجوة من هذه الأنفس ، وإذا نظرنا في كتاب الأوراق لأبي بكر الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ هـ القسم الخاص بأخبار أشعار أولاد الخلفاء ، أدركنا مدى ما أنتج أولاد الخلفاء من فن راقٍ عالي الجودة ، إن دل على شيء فإنما يدل على ثمر الجهود الذي كان الخفاء يبذلونه ، وقد كان للخلفاء أنفسهم قطعٌ فنية ، كانت أثراً طبيعياً لهذا الكم من الثقافة ، يقول السيوطي في ( تاريخ الخلفاء ) ( ومن شعر المنصور وشعره قليل ) :

**إذا كنت ذا رأى فكنْ ذا عزيمةٍ .: فإنَّ فساد الرأي أن تترددَا  
ولا تمْهِل الأعداء يوماً بقدْرَةٍ .: وبادرُهُمْ أن يملُكُوا مثْلَهَا غَداً<sup>(١)</sup>**  
 ولما قتل أبو مسلم الخراساني ورأه طريحاً بين يديه قال :  
**قَدْ اكتَتَتْكَ خِلَاتٌ ثَلَاثٌ .: جَلَبْنَ عَلَيْكَ مَحْتُومَ الْحِمامِ  
خِلَافُكَ وَامْتِنَاعُكَ مِنْ يَمِينِي وَقُوْدُكَ لِجَمَاهِيرُ الْعِظَامِ<sup>(٢)</sup>**  
 ومن شعره أيضاً :

**الْمَرْءُ يَأْمُلُ أَنْ يَعِي .: شَ وَطُولُ عُمْرٍ قَدْ يَضُرُّهُ  
تَبَأْنِي بَشَاشَتُهُ وَيَبْ .: قَيْ بَعْدَ حُلُوِّ الْعَيْشِ مُرُّهُ  
وَتَخُونُهُ الْأَيَّامُ حَتَّى .: لَا يَرَى شَيْئًا يَسُرُّهُ  
كَمْ شَامَتِ بِي إِنْ هَكَ .: تُ ، وَقَائِمٌ لِلَّهِ دَرُّهُ<sup>(٣)</sup>**

. (١) ص ٢٢١ .

(٢) الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، المنصورة ، طبعة مكتبة الإيمان ، خرج أحديه ، محمد بيومي ، عبد الله المنشاوي ، محمد رضوان مهنا ، ٤٨٣ / ١٠ . د.ت.

(٣) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق : جمال محمود مصطفى ، سنة ( ١٩٩٩ ) - ١٤٢٠ هـ ، ص ٢١٥ .

والمهدي ينشد الشعر ، ومما رواه له الصولي :

مَا يَكُفُ النَّاسُ عَنَّا .: مَا يَمْلُ النَّاسُ مِنَّا  
إِنَّمَا هُمْ تُهُمْ أَنْ .: يَبْشِرُونَ مَا قَدْ دَفَّا  
لَوْسَ كَنَّا بَطْنَ أَرْضٍ .: فَأَنَّا حِينَ ثُكَّا  
وَهُنَّمُ إِنْ كَاشَ فُونَا .: فِي الْهَوَى يَوْمًا مَجَّا<sup>(١)</sup>

ومن شعره أيضاً :

ظَفَرَتْ بِالْقَادِيَّ بِمَنْيٍ .: غَادَةٌ مِثْلُ الْهِلَالِ  
كَلْمَاصَحَّ لَهُ لَاؤْدٌ .: يَجَاءُتْ بِسَاعِتِ الْعِلَالِ  
لَا حُبٌّ الْهَجْرِ مِنْيٍ .: وَالْتَّنَائِي عَنْ وَصَالٍ  
بِلْ لِإِبْقَاءِ عَلَيْهِ حُبٌّ .: يَلْهَا خَوْفَ الْمَالِ<sup>(٢)</sup>

وله في نديم له يسمى عمر بن بزيغ :

رَبُّ تَمْمُ لَيْ نَعِيمٍ .: بِأَبِي حَفْصِ نَدِيمٍ  
إِنَّمَا لَذَّةُ عِيشٍ يِ .: فِي غَنَاءِ وُكُرُومٍ  
وَجَوارِ عَطِ رَاتٍ .: وَسِمَاعِ وَنَعِيمٍ<sup>(٣)</sup>

فإذا ما جئنا إلى هارون الرشيد وجناه شاعراً ملقاً لشهادة معاصريه " قال الأصمسي : دخل العباس بن الأحنف على هارون الرشيد ، فقال له الرشيد : أشدني أرق بيته قالته العرب ، فقال : قد أكثر الناس في بيته جميل حيث يقول : **أَلَا لَيْتَنِي أَعْمَى أَصَمَّ تَقْوُنِي .: بُثِّيَّةٌ لَا يَخْفَى عَلَى كَلَمُهَا** قال هارون : أنت والله أرق منه حيث يقول : **طَافَ الْهَوَى فِي عَبَادِ اللَّهِ كُلُّهُمْ .: حَتَّى إِذَا مَرَّ بِي مِنْ بَيْنِهِمْ وَقَفَ**

(١) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق : جمال محمود مصطفى ، سنة ١٩٩٩ م - ١٤٢٠ هـ ، ص ٢٢١ .

(٢) نفسه ، ص ٢٢١ .

(٣) نفسه ، ص ٢٢١ .

قال العباس : أنت والله يا أمير المؤمنين أرقُ قولًا مني ومنه حيث تقول :  
 أَمَا يَكْفِيْكِ أَنَّكِ تَمْكِيْنِي .: وَأَنَّ النَّاسَ كَلَهُمْ عَبِيْدِيْ  
 وَأَنَّكِ لَوْ قَطَعْتَ يَدِيْ وَرْجُلِي .: لَقْلَتُ مِنَ الْهَوَى أَحْسَنْتِ زِيْدِيْ  
 فأعجب الرشيد بقوله وضحك <sup>(١)</sup> . وإذا كانت صورة الخبر تقول إن الشاعر  
 يجامل الخليفة ، فإن عين الخبر وهو الشعر نفسه يملك ما يثبت شاعرية الرشيد ،  
 فهو شعر قويٌ في معناه وفي مبناه .

ومن شعره أيضاً في ثلاثة جوار كُن له :

**مَلَكَ الْثَلَاثُ الْغَانِيَاتُ عَنَّانِي .:** وَحَلَّنْ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ  
 مَالِي تُطُوا عَنِي الْبَرِيَّةُ كُلُّهَا .: وَأَطِيعُهُنَّ وَهُنَّ فِي عِصْبَيَانِي  
**مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ سُلْطَانَ الْهَوَى .:** وَبِهِ قَوْيَنَ أَغَزَّ مِنْ سُلْطَانِي <sup>(٢)</sup>  
 ولسنا في حاجة إلى كلام كثير لندلل به على امتلاك الرشيد للنفس الشاعرة ، فإن  
 له كثير من الشعر في مصادر الأدب والتاريخ ، يدل على شاعريته .  
 أما المأمون فقد كان عالم ببني العباس الأول ، علماً وفقهاً ، شعراً ونثراً ، فقد كان  
 يبهر الناس بثقافته التي كانت تساقط من فمه في كل موقف يعرض له ، ومن  
 شعر المأمون :

**بَعْثُتُكَ مُرْتَادًا فَفُزْتَ بِنَظْرَةِ .:** وَأَغْلَقْتَنِي حَتَّى أَسَأَتُ بِكَ الظَّنَّا  
 فَنَاجَيْتَ مَنْ أَهْوَى وَكُنْتَ مُبَاعِدًا .: فَيَا لَيْتَ شِعْرِي عَنْ دُنُوكَ مَا أَغْنَى  
**أَرَى أَثَارًا مِنْهُ بَعْيَنِي كَبَيْتًا .:** لَقَدْ أَخَذْتُ عَيْنَكَ مِنْ عَيْنِهِ حُسْنَا <sup>(٣)</sup>  
 ونظر المأمون يوماً إلى ابنه العباس وأخيه المعتصم ، فابنه العباس يتخذ المصانع  
 ويبني الضياع ، والمعتصم يتخذ الرجال ، فقال شعراً :  
**يَبْنِي الرِّجَالَ وَغَيْرُهُ يَبْنِي الْقُرَى .:** شَتَّانَ بَيْنَ قُرَى وَبَيْنَ رِجَالِ

(١) الخطيب البغدادي (أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت أحمد) ، تاريخ بغداد ، بيروت ، دار الكتاب العربي  
 للنشر والتوزيع ، ١٤ / ١٢ .

(٢) ابن الجوزي المننظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي ، ٥ / ٣٦٩ .

(٣) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، طبعة دار المعارف ،  
 تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، سنة ١٩٦٦ م . ٨/٦٥٨ .

**فَلِقْ بِكَثْرَةِ مَالِهِ وَضِيَاعِهِ .: حَتَّى يُفَرِّقَهُ عَلَى الْأَبْطَالِ**  
وَعَلَوْيْهِ قَالٌ : خَرَجَ الْمَأْمُونُ يَوْمًا وَمَعَهُ أَبْيَاتٌ قَدْ قَالَهَا وَكَتَبَهَا فِي رِقْعَةِ بَخْطَهِ ،  
وَهِيَ :

خَرَجْنَا إِلَى صَيْدِ الظِّبَاءِ فَصَادَنِي .: هُنَاكَ غَزَالٌ أَدْعَجُ الْعَيْنِ أَحْوَرُ  
غَزَالٌ كَانَ الْبَدْرَ حَلَّ جَيْبَنَاهُ .: وَفِي خَدَّهِ الشَّعْرَيِ الْمُنْيِرَةُ تُزْهِرُ  
فَصَادَ فَوَادِي إِذْ رَمَانِي بِسَهْمِهِ .: وَسَهْمُ غَزَالٍ إِلَّا سِرْفٌ وَمَحْجَرٌ  
فِيهَا مَنْ رَأَى ظَبِيًّا تَصِيدُ وَمَنْ رَأَى .: أَخَا قَصَصٍ يُصْطَادُ قَهْرًا وَيُقْسَرُ<sup>(١)</sup>

فيالها من بِلَاغَةٍ ، وياله من بِيَانٍ ، وقد أَفَاضَ كَثِيرٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ فِي الثَّيَاءِ عَلَى  
شَاعِرِيَّةِ الْمَأْمُونِ ، حَتَّى أَصْبَحَ عِلْمُ الْمَأْمُونِ وَتِقَافَتُهُ الْوَاسِعَةُ وَشَاعِرِيَّتُهُ مِنَ  
الْمُسْلِمَاتِ الْمُعْتَرَفُ بِهَا ، وَمَا يُرُوِيُ لَهُ كَدِيلٌ عَلَى بِلَاغَتِهِ الْعَفْوِيَّةِ غَيْرُ الْمُتَصَنَّعَةِ  
مَا ذَكَرَهُ الْمُؤْرِخُونَ أَنَّهُ أَصَيبَ بِابْنَةِ لَهُ ، كَانَ يَجِدُ عَلَيْهَا وَجْدًا شَدِيدًا "فِجْلِس" ،  
وَأَمْرٌ أَنْ يَؤْذِنَ لِمَنْ بِالْبَابِ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْعَبَّاسُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَلَوِيُّ ، فَقَالَ لَهُ : يَا  
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّا لَمْ نَأْتُكَ مَعْزِينَ ، وَلَكِنَّ أَتَيْنَاكَ مَقْتَدِينَ ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَمِيرَ  
الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ لِسَانِي يَنْطَلِقُ بِمَدْحُوكٍ غَائِبًا ، وَأَحَبُّ أَنْ يَتَزَيَّدَ عَنْ دَكَ حَاضِرًا ،  
أَفَتَأْذِنُ فَأَقُولُ ، قَالَ الْمَأْمُونُ : قَلْ فَإِنَّكَ تَقُولُ فَتَحْسِنُ ، وَتَشَهِّدُ فَتَزِينُ ، وَتَغْيِبُ  
فَتَؤْتَمِنُ ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ لَهُ ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَاذَا أَقُولُ بَعْدَ هَذَا لَقْدَ بَلَغْتَ مِنْ مَدْحِي  
مَا لَا أَبْلَغَهُ مِنْ مَدْحُوكٍ<sup>(٢)</sup> . فَلَقَدْ بَهَرَتِ الرِّجْلُ رَغْمَ بِلَاغَتِهِ - بِلَاغَةِ الْمَأْمُونِ  
فَأَحْسَنَ أَنَّهُ لَنْ يَصُلُ إِلَى هَذَا الرُّونِقَ ، وَإِلَى هَذِهِ الرِّشَاقةِ ، فَأَثَرَ السُّكُوتَ .

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس ، بإشراف وتحقيق : إبراهيم الأبياري ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، ٤١٤٦ / ١١ .

(٢) ابن طيفور ، (أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر) كتاب بغداد ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، نشر ، عزت العطار الحسيني ، تحقيق : محمد زاهد الكوثري ، ص ٥١ .

## المبحث الثالث

### الاهتمام بالثقافات الوافدة

من المتعارف عليه بين دارسي ذلك العصر ، أعني العصر العباسي في الفترة (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) ، أنه كان عصر العلم والثقافة والمعرفة ، وقد ذكرت آنفًا أن المجتمع قد عجَ بالثقافات المختلفة ، إذ كانت مصادرُ الحصول على الثقافة والعلم متوفرةً وميسرةً ، وقد عب من هذا الزاد الوفير كل من له رغبة في العلم ، غنياً كان أو فقيراً ، وقد تحدثت عن انكباب الخلفاء والحكام وأبنائهم على منابع العلم يغترفون منها ، فيتعلمون اللغة وآدابها ، والشعر وحكمه ، والقرآن وعلومه ، والحديث متنه وسنته ، وغير ذلك من العلوم ، ولم يكتف الحكام بالاعتراف من الثقافات العربية وحدها ، وإنما وجداً كثريين منهم يدرسون الثقافات الوافدة ، هندية كانت أم فارسية أم يونانية ، فقد كان المنصور أول من عنى بالفلسفة مع براعته في الفقه<sup>(١)</sup> ، فقد "كان أول خليفة قرَبَ المنجمين وعمل بأحكام النجوم ، وكان معه (نوبخت الماجوسي) المنجم ، صاحب القصيدة في النجوم ، وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك ، و(علي بن عيسى الأسطر لابي) المنجم ، وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية"<sup>(٢)</sup> .

يقول جميل نخلة المدور "لما جاء أبو جعفر قرب إليه المنجمين ، وقدم عليهم نوبخت المنجم المشهور"<sup>(٣)</sup> وقد كان هذا من أبي جعفر لأنَّه كان ميالاً إلى التمجيم ، لا يكاد يعمل عملاً إلا استشار المنجمين فيه ، وهو أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم .

ونظراً لكلف المنصور بحركات الكواكب ، وحبه للإطلاع عليها قصده أصحابها من بلاد فارس والهند والروم ، وفي جملتهم رجل من الهند ، بارع في حساب السند هنتا ، جاءه سنة ١٥٦ هـ وعرض عليه كتاباً في النجوم مع تعديل

(١) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، لسنة ١٩٩٧ م ، ٢٩٧ / ١ .

(٢) المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ، طبعة المكتبة الإسلامية ، ٤ / ٣١٤ .

(٣) حضارة الإسلام في دار السلام ، بولاق طبع بالمطبعة الأميرية ، سنة ١٩٣٧ م ، ص ١٦٥ .

معمولية على مذاهب الهند فأمر المنصور أن ينقل هذا الكتاب إلى العربية ، وأن يُؤلف فيه كتاباً يتلذذه العرب أصلاً في حركات الكواكب .

ويقول أحمد أمين " أول من عنى بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور .. فكان - رحمة الله - مع براعته في الفقه مقدماً في علم الفلسفة وخاصة في علم صناعة النجوم كلفاً بها وبأهلها " <sup>(١)</sup> .

أما المهدى فإنه انشغل عن هذه العلم بما ظهر في أيامه من البدع الدينية وما انتشر من كتب مانى وابن ديسان ومرقيون ، فكثر الزنادقة ، وظهرت آراؤهم في الناس ، فأمر المهدى أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب لإبطال هذه المذاهب ، فلم ينشغل - تقريباً - بالعلوم الوافية كما انشغل سلفه .

أما هارون الرشيد فقد ذكر ابن أبي الحديد أنه قال للكسائي : " يا عليَّ بن حمزة ، قد أحطناك المحل الذي لم تكن تبلغه همتك ، فرونا من الأشعار أفعها ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق وذاكرنا بآداب الفرس والهند ، ولا تسرع علينا الرد في ملأ ، ولا تترك تنفيينا في خلاء " <sup>(٢)</sup> .

فقد درس الرشيد إذاً آداب الفرس ، وقد جالس مجي الفلسفة من الأطباء والعلماء " لأن الأفكار كانت قد نضجت ، والأذهان قد زادت تتبعها إلى علوم الأقدمين بما كان يتقاطر إلى بغداد من الأطباء والعلماء من السريان والفرس والهنود ، وكانوا أهل تمدن وعلم كما رأيت ، وكانوا يتعلمون العربية ويعاشرون المسلمين ويباحثونهم في تلك العلوم " <sup>(٣)</sup> . أما المأمون العباسي فقد كان موسوعة علمية بكل المقاييس ، لم تقتصر فائتة من علوم عصره إلا وذكرها وكان له باع علمي فيها ، حتى جعل أحد معاصريه وهو ( جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدَ الْأَنْمَاطِي ) يقول : " تغديننا يوماً عنده - أي المأمون - فظننت أنه وضع على المائدة أكثر من ثلاثة لون ، فكلما وُضِعَ لونٌ نظر المأمون إليه فقال : هذا يصلح لكتذا ، وهذا

(١) ضحي الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ، سنة ٢٠٠٢ م . ٢٨٤ / ١ .

(٢) نفسه ، ١ / ١٨٨ .

(٣) جورجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، القاهرة ، طبعة دار الهلال ، طبعه راجعوا وعلق عليهما حسين مؤنس ، ٣ / ١٥٧ .

نافع لكذا ، فمن كان منكم صاحب بلغم ورطوبة فليجتنب هذا ، ومن كان صاحب صفراء فليأكل من هذا ، ومن غلت عليه السوداء فليأكل من هذا ، ومن أحب الزيادة في لحمه فليأكل من هذا ، ومن كان قصده قلة الغذاء فليقتصر على هذا ، قال : فوالله ما زالت تلك حالة في كل لونٍ يقدم حتى رفعت الموائد . قال : فقال له يحيى بن أكثم : يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب كنت ( جَالِيُّوس ) في معرفته ، أو في النجوم كنت ( هرمس ) في حسابه ، أو في الفقه كنت ( عَلَيْ بن أبي طالب ) صلوات الله عليه ) في علمه ، أو ذكر السخاء فأنت فوق حاتم في جوده ، أو ذكرنا صدق الحديث كنت أباذر في صدق لهجته أو الكرم كنت ( كعب بن ماماً ) في إثارة على نفسه فسرّ بهذا الكلام <sup>(١)</sup> . فلم يكن المأمون مقتبراً على علوم اللغة والأدب والدين فقط ، وإنما خلط ذلك بكثير من العلوم الوافدة ، وقد أكثر مؤرخو الأدب من ذكر معرفته بعلوم الفرس واليونان <sup>(٢)</sup> . " فقد كان على ذلك متأثراً بما ترجع من أخلاقيات فلاسفة اليونان وعلومهم ، وآداب ذلك متأثراً بما ترجم من أخلاقيات فلاسفة اليونان وعلومهم ، وآداب الفرس وفنونهم " <sup>(٣)</sup> يقول جرجي زيدان : " فلما أفضت الخلافة إلى المأمون ( ١٩٨ - ٢١٨ هـ ) تغير وجه المسألة ، لأنَّه كان مع فطنته وسعة علمه شديد الميل إلى القياس العقلي ، وقد تعلم وتفقه وطالع ما نقل إلى عهده من كتب القدماء ، فازداد رغبة في القياس والرجوع إلى أحكام العقل ، ويكتفي دليلاً على غوصه في علوم اعتقاده لمذهب المعتزلة ، ومعرفة صلة المعتزلة بالعلوم اليونانية والفارسية " <sup>(٤)</sup> .

إننا نستطيع أن نقول إن المأمون والمنصور قد طالعوا العلوم الوافدة ، الهندية أو الفارسية أو اليونانية ، وإن كان تبحر المأمون في هذه العلوم وأضاً

(١) ابن طيفور ( أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر ) كتاب بغداد ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، نشر عزت العطار الحسيني ، تحقيق : محمد زايد الكوثري ، ص ٣٦ .

(٢) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ م ، ١ / ٢٨٩ .

(٣) نفسه ، ١ / ٢٩٠ .

(٤) تاريخ التمدن الإسلامي ، القاهرة ، طبعة دار الهلال ، طبعة راجعها وعلق عليها : حسين مؤنس ، ٣ / ١٥٩ .

في تأثره بعلماء الكلام بشكل يجعل علمه بها من الأمور الواضحة أما باقي الخلفاء فلم أر لهم شيئاً يدل على علمهم بثقافات أخرى غير الثقافة العربية الإسلامية ، والله أعلم .

### **التباین الشفافی بین الخلفاء :**

من خلال معايشة خلفاء العصر العباسي ( ١٣٢ - ٢٣٢ هـ ) معايشة موضوعية متأنية ، ألا حظ أن هناك تبايناً واضحاً في ثقافات هؤلاء الخلفاء ؟ ففي حين كان أبو جعفر المنصور " جيد المشاركة في العلم والأدب ، فقيه النفس " <sup>(١)</sup> . وكان هارون الرشيد " مليحاً ، فصيحاً ، له نظر في العلم والأدب " <sup>(٢)</sup> والمهدى قد " تأدب وجالس العلماء " <sup>(٣)</sup> وكان الهادي " فصيحاً ، قادراً على الكلام أدبياً " <sup>(٤)</sup> ، وكانت للأمين " فصاحة وبلاهة ، وأدب ، وفضيلة " <sup>(٥)</sup> ، يقول الباحث؛ إذا كان هؤلاء الخلفاء على شيء غير قليل من العلم والأدب ، ومن الفصاحة والبلاغة والنظر ، فإن فيهم عالماً أجمع مؤرخو الأدب على علمه ، ألا وهو الخليفة المأمون ، يقول جلال الدين السيوطي عنه - أي المأمون - " وكان أفضل رجال بني العباس حزماً ، وعزماً ، وحلماً ، وعلماً ، ورأياً ، ودهاءً ، وهيبةً ، وشجاعةً ، وسؤداً ، وسماحةً ، ولـه محسن وسيرة طويلة " <sup>(٦)</sup> ، فكان يعد من كبار العلماء <sup>(٧)</sup> .

وقد لا يحتاج إلى ذكر أدلة اتفاق كثير من علماء الأدب ، ومن المؤرخين على علم هذا الرجل ، الذي ذكرنا شيئاً منه آنفاً ، ولم يكن هذا الإجماع وهذا الاتفاق إلا لأن المأمون العباسي كان عالماً بالشرع واللغة والنجوم والفلسفة

(١) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق : جمال محمود مصطفى ، سنة ١٩٩٩ م - ١٤٢٠ هـ ، ص ٢٠٨ .

(٢) نفسه ، ص ٢٢٧ .

(٣) نفسه ، ص ٢١٨ .

(٤) نفسه ، ص ٢٢٤ .

(٥) نفسه ، ص ٢٣٧ .

(٦) نفسه ، ص ٢٤٥ .

(٧) نفسه ، ص ٢٤٥ .

والمنطق ، وقد كان على العكس منه أبو إسحاق المعتصم ( ٢١٨ - ٢٢٧ ) هجرية ، فقد ذكر السيوطي ، عن الصولي ، " عن محمد بن سعيد ، عن إبراهيم بن محمد الهاشمي ، قال : كان مع المعتصم غلام في الكتاب يتعلم معه فمات الغلام ، فقال له الرشيد أبوه : يا محمد ، مات غلامك ، قال : نعم يا سيدي واستراح من الكتاب فقال : وإن الكتاب ليبلغ منك هذا ، دعوه ، لا تعلّموه ، قال : فكان يكتب ويقرأ قراءة ضعيفة <sup>(١)</sup> . فإذا جاز لنا أن نصف المأمون بأنه أعلم خلفاء بني العباس ، ويرى الباحث أن المعتصم كان أقلّهم علمًا ومعرفةً ، وبين هذين الخليفتين كان هناك - فيما يرى - تناوتٌ ليس كبيراً بين باقي الخلفاء ، إلا أنّ هناك ملاحظة لابد من ملاحظتها ، وهي طول وقصر مكث الخليفة في خلافته ، فإن كثيراً من المصادر لا تسلط الضوء على الخليفة إلا بعد جلوسه على كرسى الخليفة ، وعنها فإذا صح ذلك فإن خلفاء كالهادى والأمين والواثق لم يعمروا في الخليفة كالمتصور ، والرشيد ، والمأمون ، وبذلك فإنه يجوز لنا اعتبار طول مدة الحكم ذات أثر مهم في وصول شخصية الخليفة بكل جوانبها إلى المؤرخين ، ثم إلينا ، فمن الملاحظ أن الخلفاء الذين يكثر في المصادر ذكر علمها ، يكون من أهم الأسباب في ذلك طول مدة حكمهم ، ويقل بقلتها ، وذلك - من بعض الجوانب - أمرٌ طبيعي ، وذلك لأن الخليفة يكون منشغلًا في بداية حكمه بأمور السياسة اهتماماً زائداً ، ولم يكن العلم - غالباً - أحدهما ؛ لأن بداية تولي الخليفة يستلزم من يتولاها أن يُبَرِّز شخصيته للناس ، ويثبت أركان حكمه ، بل تكون ملامح شخصيته قد استقرت قبل ذلك ، إن كان عالماً أو غير عالم ، أما اهتمامه بالعلم كشخصية حاكمة فلابد له من استقرار يحتاج إلى شيء من الوقت ، فإذا استقام له الحكم أمكن لشخصيته أن تظهر ملامحها ، وأن تتضح كمية حبها للعلم والفكر ، ومدى استيعابها له ، لذا فقد اشتهر عن الخلفاء ذوي المدد القصيرة كالهادى والأمين والواثق ، بأنهم أقل علمًا من غيرهم ، أولئك الذين طالت مدة حكمهم ، لذى يرى الباحث أن هذا الأمر قد يكون منقصاً من علم بعض الخلفاء ، أو مظهراً للحقيقة غير تامة ، لكن الذي برع من خلال ما وصلنا هو ذلك التناوت .

---

(١) نفسه ، ص ٢٦٥ .

إذا كان هذه هي ثقافة الخلفاء ، وإذا كان هذا هو علمهم ، وإذا كان هذا هو فهمهم وتذوقهم فمما لا شك فيه أن هناك مجموعة من العوامل أوصلت الخلفاء إلى هذا العلم ، وإلى هذه الثقافة وإلى هذا الفكر ، فقد كان هناك استعداد خاصٌ عند هؤلاء الخلفاء لتحصيل العلم وقد كانت أرض الخلافة مهيئة لشروع العلم ، وذلك لقوة الخلفاء ، وأحكام سيطرتهم بشكل تام على مقاليد الأمور في الدولة ، وقد تركوا هذا التحكيم ، وهذه السيطرة الفرصة للعلماء والمفكرين لنشر علمهم ومعارفهم لأن أولي الأمر مغرمون بالمعرفة ، محبون لها ، إلا أنَّ أمراً هاماً لابد من إرجاع كثير من الفضل إليه في تنقيف هؤلاء الخفاء ، وتعليمهم العلم النافع ، وإفادتهم الأمور كما يجب أن تفهم إلى جانب حبهم للعلم والمعرفة ؛ ألا وهو دور أساذتهم ومعلميهم ، الذين لقنوه لهم العلم ، فإذا كان أبناء الخلفاء هم أعلى طبقة في الناس في ذلك الوقت قدرًا وغنىًّا واهتمامًا من قبل آبائهم فقد كان معلموهم يوازونهم في علو طبقة العلم لذا فقد اهتم الخلفاء بالدين واللغة اهتماماً بالغاً ، وكانوا يحرصون على تعليم أبنائهم اللغة العربية والعلوم الإسلامية ( فالمُفضل الضَّبَّيْ ) معلم الرشيد ولهم اختار مجموعته الشعرية الملقبة بالمفضليات ، و ( الكسائي ) معلم الرشيد وابنيه الأمين والمأمون ، و ( قطُّرُب ) مؤدب الأمين وأبناء ( أبي دُلَف العَجَّلِي ) قائد المأمون المشهور ، و ( عَلَيُّ بن المُبارك الأحْمَر ) أحد مؤدبى الأمين<sup>(١)</sup> .

ومن العلماء الذين أفادوا اللغة والأدب في العصر العباسي ١٣٢ - ٢٣٢ هـ هذا وفي كل العصور ، وسنذكر أمثلة لهؤلاء العلماء على سبيل المثال لا الحصر .

فمنهم المُفضل الضَّبَّيْ<sup>(٢)</sup> : وهو المُفضل بن مُحَمَّد الضَّبَّيْ ، من كبار علماء الأدب في الكوفة ، وكان يتميز بالصدق وكمال الوثوق ، أخذ عنه أبو زيد الأنصاري من البصريين لثقته به ، وكتابه في روایة الشعر يسمى ( المفضليات ) وهو قرابة مائة وثلاثين قصيدة ، جمعه الخليفة المهدى وأهداه إليه توفي سنة ١٦٨ هجرية .

(١) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٢٦٦ م ، ص ١٠٠ .

(٢) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق محمود مصطفى سنة ١٩٩٩ - ١٤٢٠ هـ ، ص ٢٠١ .

ومنهم الخليل بن أَحْمَد الفَرَاهِيْدِي البَصْرِي<sup>(١)</sup> : تلميذ أبي عمرو بن العلاء ، وأستاد سيبويه ، وشيخ علماء اللغة في البصرة ، صاحب كتاب العين ، توفي سنة ١٧٥ هجرية .

ومنهم خلف الأحمر<sup>(٢)</sup> : مولى أبي بردة ، أخذ عنه الأصممي وسائر أهل البصرة ، وقد عرف بكثرة معارفه ، وبقدرته على انتقال الشعر لعلمه بأوزانه وقوافيها ، " كان عالماً بالغريب والنحو والنسب والأخبار شاعراً كثير الشعر ، ولم يكن في نظرائه من أهل العلم أكثر شعراً منه"<sup>(٣)</sup> توفي سنة ١٨٠ هجرية .

ومن أهمهم الكسائي<sup>(٤)</sup> : وهو عَلَيْ بْنُ حَمْزَة ، مولى بني أسد ، وأصله من فارس ، وهو من أشهر نحاة الكوفة ، أخذ النحو عن مُعاذِ الهراء ، وأبي جَعْفر الرؤاسي في الكوفة ، وعن الخليل في البصرة ، وقدمه الرشيد والبرامكة ، وتأنب عليه الأمين والمأمون ، ودارت بينه وبين سيبويه شيخ نحاة البصرة مناظرات في النحو ، توفي الكسائي سنة ١٩٧ هجرية .

ومنهم الفرّاء<sup>(٥)</sup> : وهو أَبُو زَكَرِيَا يَحْيَى بْنُ زِنَادِ الفَرَّاء الدَّيْلِمِي من موالى بني أسد في الكوفة ، تتلمذ على الكسائي شيخ نحاة الكوفة ، وبلغ من الشهرة مبلغ أستاذة وفاق عليه ، واختص بالخلفية المأمون ، وعهد إليه بتأديب ابنيه ، توفي

---

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، القاهرة ، دار المعارف ، نقله إلى العربية ، عبد الحليم النجار ، سنة ١٩٦١ م ، ٢ / ١٣١ .

(٢) نفسه ، ص ١٩ ، وابن النديم ، (أبو الفرج محمد بن إسحاق بن أبي يعقوب ) ، الفهرست ، بيروت ، دار المعرفة ، سنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ، ص ٧٤ .

(٣) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الشعر والشعراء ، بيروت ، دار إحياء العلوم ، قدم له ، حسن تسيم ، وراجعه وأعد فهارسه محمد عبد المنعم العريان ص ٥٣٦ .

(٤) ابن النديم (أبو الفرج محمد بن اسحاق بن أبي يعقوب ) ، الفهرست ، بيروت ، دار المعرفة ، سنة ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م ، ص ٤ وابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ) النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، مصر ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، ٢ / ٣٠ .

(٥) الخطيب البغدادي (أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد ) تاريخ بغداد ، بيروت ، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع ، ١٤٩ / ١٤ . ومحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله سير إعلام النبلاء ، ط ٩ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي ، سنة ١٤١٣ هـ ، ١٠ / ١١٨ .

الفراء سنة ٢٠٧ هجرية . وقربت مؤلفات الفراء على آثار الكسائي فضلاً عن كونها تعدت علم النحو إلى كثير من العلوم ، ومنها كتاب ( معاني القرآن ) . ومنهم الأصمسي<sup>(١)</sup> : موسوعة الأدب العربي هو لشهرته غني عن التعريف .

( وقطُرُب ) النحوي ، و ( حَمْزَة الزَّيَّات ) أحد معلمي القرآن ( وعبد الله بن إدريس ) المحدث، و ( عيسى بن يُونس ) أحد أهم المحدثين في عصره ، والإمام ( يَحْيَى بن مَعِين ) المتوفي سنة ٢٢٣ هـ ، و ( أبو مُحَمَّد البَزِيْدِي ) معلم المأمون ، وغيرهم .

والخلاصة ، فإن من كان علماء الأمة أساتذته ومعلميها ، فلا بد أن يكن فهمه فهم العلماء ، وأن يكون " فصيحاً بليغاً مفوهاً خليفاً للإماراة "<sup>(٢)</sup> وأن يكون من أفضل الناس " حزماً ، وعزماً وحلاً ، وعلماً ، ورأياً "<sup>(٣)</sup> .

---

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، القاهرة ، دار المعارف ، نقله إلى العربية ، عبد الحليم النجار ، سنة ١٩٦١ م ، ١٤٧ / ٢ .

(٢) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ط ١ ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، تحقيق : جمال محمود مصطفى ، سنة ١٩٩٩ م - ١٤٢٠ هـ ، ص ٢٠٨ .

(٣) نفسه ، ص ٢٤٥ .

## **الفصل الثاني**

**اهتمام الطبقة الحاكمة**

**بالأدب والنهوض به**

## المبحث الأول : الدعم المالي

من الأمور المشهورة بين مؤرخي الأدب وعلماء اللغة ، التي يعدها كثيرون من الباحثين من المسلمات ؛ أن العصر العباسي ( ١٣٢ - ٢٣٢ هـ ) من أزهى عصور العرب على الإطلاق من الناحية العلمية والثقافية ؛ فقد عمت هذا العصر نهضة شاملة وكبيرة ، تكاد تبرز عبر تاريخ العرب الطويل ، بروزاً لافتاً للنظر ، مثيراً لكثير من علامات الاستفهام ، عن هذا الكم الوافر من الفكر والعلم والفن ، الذي عج به هذا العصر ، لم تضارع حضارة من الحضارات ولم يضارع عصرٍ من العصور - لا نستثنى من هذا التعميم حضارة الصين في أيام لي بو ، ودوفو، ولا حضارة فيمار veimar حين كان فيها ( مائة مواطن وعشرة آلاف شاعر ) - الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية في عدد شعرائها وتراثهم<sup>(١)</sup> فقد حوى هذا العصر في مجال ، عمدة الرواية أو مرجع شعرائها في علوم العرب ، كما يقول / جرجي زيدان<sup>(٢)</sup> من أمثال أبي عمرو بن العلاء ت ١٥٤ هـ وأبي عبيدة معمراً بن المُتّنى ت ٢٠٩ هـ ، والأصمعي ت ٢١٣ هـ ، وأبي زيد الأنصاري ت ٢١٤ هـ ، وأبي عبيد الله القاسم بن سلام ت ٢٢٣ هـ . فمن العلماء الرواة للشعر العربي وجدنا عدداً كبيراً من أهم رواة الشعر عبر تاريخه الطويل ، منهم حمادُ الرواية ت ١٥٦ هـ ، والمفضل بن محمد الضبي ت ١٦٨ هـ ، وخَلَفَ بن حيَّان الأحمر ، وأبو عمرو الشيباني ت ٢١٣ هـ ، ومحمد بن سلام الجمحي ت ٢٣٢ هـ ، وهؤلاء هم أصحاب الفضل في وصول الشعر العربي إلى الأجيال اللاحقة لهم ، لا يستطيع منصف أن ينكر فضلهم . وإذا انتقلنا إلى علم النحو وجدنا هذا العصر يضم أهم علماء النحو في كل العصور ، من أمثال سيبويه ت ١٨٠ هـ ، ومعاذ الهراء ت ١٨٧ هـ ، والكيسائي ، وأبوزكريا يحيى بن زياد الفراء ت ٢٠٧ هـ .

(١) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ط ٣ ، انفتقت على ترجمته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، سنة ١٩٧٤ ، ترجمة محمد بدران ، جـ ١ ، المجلد الرابع ، ص ٢٢٥ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة ، دار الهلال ، راجعها شوقي ضيف ، ٢ / ١١٣ .

وفي علوم اللغة ، ضم العصر الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب علم العروض ، ومؤرّج السدوسي ت ١٩٥ هـ ، والنضر بن شمیل ت ٢٠٣ هـ ، وابن الأعرابي ت ٢٣١ هـ .

ومن أهم العلماء في العلوم الفقهية في كل العصور أئمة الإسلام الأربعـة المشهورون ، أبو حنيفة النعمان ت ١٥٠ هـ ، والإمام مالك بن أنس ت ١٧٩ هـ ، والإمام محمد بن إدريس الشافعي ت ٢٠٤ هـ ، والإمام أحمد بن حنبل المتوفـي في سنة ٢٤١ هـ ، وإلى جانب هؤلاء الأربعـة فهناك القاضي أبو يوسف ت ١٨٢ هـ ، ومحمد بن الحسن الشيباني ت ١٨٩ هـ .

هذا من العلماء والمصنفين وأصحاب الثقافة والفكر ، أما الشعراء والكتاب فقد ضم العصر أيضاً عدداً وافراً منهم ، كبشر بن برد ت ١٦٨ هـ ، والسيـد الحميري ت ١٧٣ هـ ، ومروان بن أبي حصـة ت ١٨٢ هـ ، وأبي نواس ت ١٩٨ هـ ، ومسـيم بن الولـيد ت ٢٠٨ هـ ، وأبي العـاثـة ت ٢١١ هـ ، وأبي تمام ت ٢٣١ هـ ، وأحمد بن يوسف الكاتـب ، وعـمارـة بن حـمـزة ، والـبـحـتـري ، ومحمد بن الملك الزـيـات ، وغيرـهم كثـيرـون .

يقول الباحث : إذاً هذا العصر ضم بين جنباته هذا العدد ، لا يقول الوافـر بقدر ما يقول المهم من أئمة كل العلوم العربية ، والأدبـية الفـقهـية ، بـجانـبـ الشـعـراءـ أـصـاحـابـ الـبـصـمةـ الـواـضـحةـ فـيـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ ، فـمـاـ لـاـ شـكـ فـيـهـ أـنـ حـكـامـ هـذـاـ عـصـرـ وـأـمـرـاءـهـ كـانـ لـهـمـ دـورـ مـهـمـ فـيـ الـنـهـوـضـ بـالـقـاـفـةـ وـالـإـبـادـاعـ فـيـ هـذـاـ عـصـرـ ، وـإـذـاـ كـانـتـ مـجـمـوعـةـ مـنـ الـأـسـبـابـ قـدـ تـجـمـعـتـ وـتـسـبـبـتـ فـيـ إـفـرـازـ هـذـاـ فـلـةـ الـرـاقـيـةـ مـنـ الـعـلـمـاءـ وـالـمـبـدـعـينـ فـيـ هـذـاـ عـصـرـ ، فـمـاـ لـاـ شـكـ فـيـهـ أـنـ اـهـتـمـامـ حـكـامـ عـصـرـ بـالـفـكـرـ ، وـتـشـجـعـ الـعـلـمـاءـ وـالـمـفـكـرـينـ ، وـتـقـدـيمـ الـعـوـنـ لـهـمـ ، كـانـ لـهـ أـثـرـ الـفـعـالـ ، الـذـيـ لـاـ يـمـكـنـ إـنـكـارـهـ ، فـيـ نـضـوجـ هـذـهـ الطـبـقـةـ الـعـالـمـةـ ، وـتـوـسـيـعـ مـدارـكـهاـ ، وـسـعـةـ إـطـلاـعـهاـ وـشـمـولـيـةـ وـدـقـةـ عـلـمـهاـ وـفـنـهاـ .

وإذا كان الحديث عن الأدب هو بغيتنا ، والتوصـلـ إـلـىـ أـثـرـ حـكـامـ فـيـ الـنـهـوـضـ بـهـ هـدـفـنـاـ ، فـإـنـاـ نـسـتـطـيـعـ أـنـ نـرـكـزـ اـهـتـمـامـنـاـ أـكـثـرـ عـلـىـ عـلـومـ الـأـدـبـ ، وـالـلـغـةـ نـظـرـاـ لـكـونـهـاـ أـدـةـ الـأـدـبـ . فـإـذـاـ كـانـ الـخـلـفـاءـ وـالـحـكـامـ عـلـىـ هـذـهـ الشـاكـلـةـ مـنـ الـقـاـفـةـ

العالية والغزارة العلمية ، فمن خلال البحث لاحظت أن لهؤلاء الحكماء مجموعة من الأدوار ، ساهمت بشكل مباشر في النهوض بالأدب في شقيه؛ الفني متمثلاً في الشعر والنشر وما امتازا به من جودة وإتقان وغزارة وتجدد ، والتصنيفي متمثلاً في دراسة العلم وتصنيف الكتب ومن خلال البحث يرى أن هذه الأدوار تبرز في:

### أولاً - الدعم المالي :

#### أ- الاهتمام بالعلماء وتشجيعهم :

من المعروف بين الناس أن للمال أثراً كبيراً في الحياة بمناحيها المختلفة فإليه تتهافت النفوس ، ومن أجله تكون الصراعات ، ليس بين الأفراد فقط ، بل بين المجتمعات الكبيرة أيضاً ، ومن أجله تخضع الرقاب ، وتزهد الأرواح ويجد كثير من الناس لذة كبيرة في جمعه وتحصيله ، وفي إتفاقه وتوزيعه ، لذا لا يوجد خلاف على دور المال المهم والكبير في التأثير في كل مناحي الحياة ، " وقد قيل لبزر جمهر: العلماء أفضل أم الأنبياء؟ فقال : العلماء فقيل له : بما بال علماء بأبواب الأغنياء أكثر من الأغنياء بأبواب العلماء؟ فقال : لمعرفة العلماء بفضل الغني وجهل الأغنياء بفضل العلم "(١).

فإذا كان العلماء أكثر الناس معرفة بأهمية المال ، فلابد وأن يؤثر المال كثيراً من العلماء كما يؤثر غيرهم ، حرصاً عليه ، واهتمامًا به وسعياً من أجله ، وشعوراً بأهميته ، لذا فإن المال له أثره في كل مناحي الحياة تقريباً ، وفي كل العصور ، فله دوره الاجتماعي ، ودوره السياسي ، ودوره الثقافي والعلمي وغير ذلك من الأدوار في جوانب الحياة المختلفة والمتعددة .

وإن نظرة سريعة إلى ما دخل بيت مال المسلمين في العصر العباسي ( ١٣٢ - ٢٣٢ هـ ) من الأموال ، لتوضح لنا مدى ثراء الدولة البالغ ، فإنَّ هارون الرشيد " قد بلغ المحمول إليه في كل سنة نحوَ من خمسمائة ألف درهم - من الفضة ، وعشرون ألف ألف دينار من الذهب ، ما عدا الغلات والمصنوعات ،

---

(١) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، عيون الأخبار ، ط ١ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٢٨ م ، المجلد الثاني ، ص ١٢٢ .

فحمل الناس كثرة المحمول على أن يعدوه بالوزن لا بالعدد ، فيقولون : إنه يبلغ ستة آلاف أو سبعة آلاف قنطار من الذهب <sup>(١)</sup>.

ولا يعد ذلك غريباً على دولة متراصة الأطراف ، لم تكف عن الفتوحات ، ولا عن جني ثمارها من الغنائم ، بل يأتيها بجانب ذلك الخراج والجزية وغير ذلك ، ويكفي دليلاً على ثراء الدولة ثراء أفرادها ، فإن البرامكة - مثلاً لما صودرت جميع أموالهم يقال إنها بلغت ٣٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار ( ١٤٢٥٠٠٠٠٠ ) دولار أمريكي <sup>(٢)</sup>.

فقد كانت الدولة بشكل كبير ، مملوءة الخزائن أموالاً ، وأيدي الخلفاء في هذه الأموال نافذة ، ينفقونها فيما يحبون ، ويعطونها لمن يشاءون ، سواء أرضي ذلك الناس أم أغصبهم خالق هواهم أم وافقه .

وفي حقيقة الأمر ، فإن خلفاء بنى العباس أنفقوا على الثقافة والعلم بأيدٍ سخية ، لم يخلوا على العلماء والمصنفين ، ولم يقصروا في أعطياتهم ، وجعلوهم يعيشون عيشة تشبه عيشة الملوك ، يتعمدون بنعيم الدنيا المتاح كله ، يأكلون ماكل الخلفاء ، ويتمتعون بما يتمتع به الحكام أنفسهم ، فهذا أبو يوسف القاضي يقول:

"توفي أبي وأنا صغير فأسلمتني أمي إلى قصار<sup>(٣)</sup> فكنت أمر على حلقة أبي حنيفة فأجلس فيها ، فكانت أمي تتبعني ، فتأخذ بيدي من الحلقة ، وتذهب بي إلى القصار ، ثم كنت أخالفها في ذلك وأذهب إلى أبي حنيفة ، فلما طال عليها ذلك قالت لأبي حنيفة : إن هذا صبي يتيم ، ليس له شيء إلا ما أطعمه من مِغْزَلٍ ، وإنك قد أفسدته على ، فقال لها : اسكتي يا رعناء ، ها هو ذلك يتعلم العلم وسيأكل الفالوذج بدهن الفستق في صحون الفيروذج ، فقالت له : إنك شيخ قد

(١) جميل نخلة المدور ، حضارة الإسلام في دار السلام ، المطبعة الأميرية ، بولاق ، سنة ١٩٣٧ م ، ص ١٤١ .

(٢) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ج ٢ ، مجلد ٤ ، ص ٩٤ .

(٣) \* القصار : المبيض للثياب ، وهو الذي يهئ النسيج بعد نسيجه يبله ويدقه القصرة .

خرفت. قال أبو يوسف : فلما وليت القضاء ، فبينما أنا ذات يوم عند الرشيد إذ  
أتى بفالوذوج في صحن فيروذوج " <sup>(١)</sup> .

ومن هذا الخبر يتضح لنا أن كثيراً من المتعلمين كانوا ينظرون إلى قصور  
الحكام ، وإلى ملادهم ونعيهم ، بعين ملؤها الشوق واللهفة ، ولا بد أن يكون هذا  
دافعاً لهم من أحد الوجوه إلى الصبر في تحصيل العلم ، وتحمل المشاق في  
درسه ، لأنه عندم السلم الذي يصعدون به إلى أعلى المراتب ومن خلاله يصلون  
إلى كراسي الخلفاء ، ينالون الحظوة والمال والشهرة .

أما من يصل إلى مجالس الحكام من هؤلاء العلماء ، فقد كانت تأتيه  
الأموال دون حساب ، وينفق عليه ببذخ وإسراف ، ويبتعد عما يعتري الناس من  
مشكلات مالية ، فأبو جعفر المنصور ، على الرغم مما عرف عنه من محافظته  
الشديدة على المال وعدم إنفاقه إلا بحساب شديد ، حتى أطلق عليه أبا الدوانيق  
لشدة محافظته على المال ، أقول : على الرغم من هذا ، فقد أعطى " جورجيس  
بن بختي Shaw " عالم الطب ثلاثة آلاف دينار ، وأرسل إليه ثلات جوار روميات ،  
حينما استخدمه لمعالجته في بغداد <sup>(٢)</sup> وكان المأمون ينفق على العلم بكرم زائد ،  
حتى أنه كان يعطي زنة ما يترجم له من الكتب ذهباً خالصاً <sup>(٣)</sup> ، وكذلك كان  
هارون الرشيد ، ذلك الخليفة الذي كان يختلف المواقف ، ويتفنن في الطرق التي  
يعطي بها العلماء والمفكرين ما يشجعهم به على مواصلة العلم ، ويحفزهم على  
الدقة والإتقان في جمعه ، والوقوف عليه ، قال الأصممي " دخلت على هارون  
الرشيد وبين يديه بدرة - ١٠ ألف درهم - فقال يا أصممي ، إن حدثتي بحديث

---

(١) الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، طبعة مكتبة الإيمان بالمنصورة ،  
خرج أحدياته / محمد بيومي ، عبد الله المنشاوي ، محمد رضوان مهنا ، ١٠ / ٥٤٠ ، د.ت.

(٢) جرجى زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، القاهرة ، دار الهلال ، طبعة راجعها وعلق عليها حسين مؤنس  
٣ / ١٥٦ .

(٣) نفسه ، ٣ / ١٦١ .

في العجز فأضحكتي ، وهبتك هذه البدرة ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين " إلى أن حق الخليفة ما أراده وأعطاه البدرة فأخذها الأصمي وانصرف<sup>(١)</sup> .

وكان بال الخليفة هارون الرشيد يتمتع بالعطاء لكل من شعر عنده بعلم أو بفن ، وقد كان كثير العطاء للأصمي ، ولأبي يوسف القاضي ، وللكسائي ولأبي عبيدة عمر بن المثنى ، وغيرهم من العلماء ، بجانب غيرهم من الشعراء والمغنيين والكتاب .

أما المأمون فلم يكن سوى سحابة عطاء على العلماء ، وأهل الفهم والنباهة والفن ، فإنه يعلم جيداً قيمة هؤلاء العلماء ، وضرورة إغرائهم بالمال ؛ حتى يتقرعوا لعلهم وففهم لأن الكفاية من أهم الأمور التي تعين على تحصيل العلم<sup>(٢)</sup> . إن الفراء لما اتصل بالمأمون أمره أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو ، وسمع من العربية وأمر أن يفرد بحجرة من حجر الدار ، ووكل به جواري وخداماً يقومون بما يحتاج إليه ، حتى لا يتعقد قلبه ، ولا تتوق نفسه إلى شيء ، حتى أنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة ، وصیر له الوراقين ، وألزمـه الأمـاء والمنـفـقـين ، فـكان يـمـليـ وـالـورـاقـونـ يـكـتـبـونـ ، حتى صـنـفـ الحـدـودـ فيـ سـنـتـيـنـ وـأـمـرـ المـأـمـونـ بـكـتـبـهـ بـالـخـزـائـنـ<sup>(٣)</sup> .

ال الخليفة يأمر بعزل هذا العالم عن كل شيء من سبيله أن يشغلـهـ ، أو يـشتـتـ ذـهـنـهـ ، فقد هـيـأـ لهـ كلـ سـبـلـ الـرـاحـةـ وـالـمـاسـعـدـةـ عـلـىـ إـتـمـامـ مـصـنـفـهـ ، حتى أـتـمـهـ فـيـ هذهـ المـدـةـ القـصـيرـةـ .

(١) ينظر أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الدينوري ، عيون الأخبار ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة ، ٣ / ٣٠٠ ( بتصرف ) .

(٢) ينظر أبو هلال العسكري ، الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه ، مطبعة دار الفضيلة ، تحقيق عبد المجيد دياب ، ص ٥٢ .

(٣) ابن خلكان ( أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ) وفيات الأعيان وأئمـاءـ أـبـنـاءـ الزـمـانـ ، ط ١ ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٤٨ م ، تحقيق / محمد محـيـ الدينـ عبدـ الحـمـيدـ ، ٥ / ٢٢٦ .

وكما كان عصره عامراً بالعلماء والأدباء والنحاة ؛ فإنه كان كذلك حافلاً بجماعة المحدثين والمؤرخين ، والفقهاء كالبخاري ، والواقدي ، الذي نحن مدينون له بأوثق السير عن النبي - صلى الله عليه وسلم -<sup>(١)</sup>.

ولم تكن مجالس الحكم إلا أملاً يطمح إليه العلماء ، والشعراء وأصحاب الفضل ، من أجل التقرب من الخليفة وحاشيته ، لما لهم من كلمة مسموعة في كل الأمور من جهة ومن أجل الحصول على الأموال الطائلة في الشهرة وذيع الصيت من جهة أخرى ، ولم يكن الخلفاء ينتظرون حتى يحتاج العلماء إلى المال، بل كانوا يغدقون عليهم الأموال والهبات بأسباب يختلفونها ، حدث ذلك مع الرشيد والأصمسي ، وهذا هو حماد الرواية يقول : "دخلت على المهدى فقال : أنشدني أحسن أبيات في السكر ، ولك عشرة آلاف درهم ، وخلعتان من كسوة الشتاء والصيف ، فأنشدته قوله الأخرس :

ترَى الزُّجَاجَ وَلَمْ يَطِمْ يَطِيفْ بِهِ .. كَانَهُ مِنْ دَمِ الْأَجْوَافِ مُخْتَضَبُ حَتَّى إِذَا افْتَضَ مَاءُ الْمُزْنِ عُدْرَتَهَا .. رَاحَ الزُّجَاجَ وَفِي الْوَانِهِ صَاهِبُ تُتْرُوْ إِذَا شَجَّهَا بِالْمَاءِ مَا ذِجَّهَا .. نَزَوَ الْجَنَادِبِ فِي رَمْضَانَ تَتَهَبُ رَاحُوا وَهُمْ يَحْسِبُونَ الْأَرْضَ مِنْ فَلَكٍ .. أَصْرَعُوهُ وَقْتَ الرَّاحَاتِ وَالرُّكُبِ  
قال لي : أحسنت ، وأمر لي بما شرطه ووعدني به فأخذته"<sup>(٢)</sup> .

ولم يكن الخلفاء وحدهم أصحاب الفضل على العلماء ، بل كان الوزراء أيضاً أصحاب ثقافة عالية وفضل ما ينسיהם هموم الحياة المادية ، " وكان البرامكة على الخصوص يحبون العلم والعلماء ويبذلون الأموال في تكريبهم "<sup>(٣)</sup> . وقد كان يحيى بن خالد يجري على سفيان عينيه كل شهر ألف درهم ، وكان سفيان يدعوه

(١) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المؤمنون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ ، ١ / ٣١٤ .

(٢) أبو الفراج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الأبياري ، ٥ / ٢١٦٨ .

(٣) جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة ، دار الهلال ، راجعها شوقي صيف ، ٢ / ٢٣ .

له في سجوده يقول : " اللهم إله قد كفاني المؤونة ، وفرغني للعبادة ، فاكفه أمر آخرته " <sup>(١)</sup> .

ولم يكن عطاهم للعلماء على هذه الشاكلة إلا لمعرفتهم بقدر العلم ، وضرورة احتواء العلماء ، واحتمال مؤونتهم ، والحفظ عليهم من عضة الدهر التي قد تشغل العالم عن علمه ، يقول إبراهيم بن محمد البيهقي : " حدثنا يزيد البرمي قال : قدم الواقدي من المدينة بأسوأ حال ، فصار إلى يحيى وهو لا يعرفه ، فوضع الطويلة على رأسه ، فركب يحيى وخرج ، فرأه جالساً على باب داره في زي القضاة ، فقام الواقدي وأثنى عليه ، ودعا له ، ومر يحيى في موكبه إلى دار أمير المؤمنين ثم انصرف وإذا الواقدي في مجلسه ذلك ، فقام إليه ودعا إليه وأثنى عليه ، فدخل منزله وجلس الواقدي فسأل يحيى عنه ، وقال : من هذا الشيخ رث الهيئة ، فلم يعرفه أحد ، فقال : ويحكم ، لا شك أنه شيخ أصيل ، معه علم وفقه ، ودعا بكيس فيه أربعة آلاف دينار ، وأمر وكيله أن يدفعها إليه ، وكان قصارى الواقدي ومناه أن يصله بآلف درهم فخرج الرسول ووضع الكيس في حجره ، فلما رأى عظم الكيس ، أقبل يدعو ليعي ويتشتت عليه ، ثم قام وانصرف إلى منزله ، وقد أخذته الرعدة والحرص أن يرى ما في الكيس ، وإذا أربعة ألف دينار ، فكاد أن يغشى عليه من السرور ، فرم من حاله ، واتخذ ثياباً سوية ، وعزم على أن ينصرف إلى المدينة ، فلما كان من الغد بكر على يحيى ليودعه ، فدخل وأنشد فرآه عالماً فقيهاً مسامراً بليغاً ، فأعجب به ، فقام ليودعه ، فقال : أقم عندنا ولક في كل حول هذا المقدار . فأقام عنده <sup>(٢)</sup> .

وقد تركت نكبة البرامكة انتكاسة كبيرة في الكثير من مناحي الحياة في عصر الرشيد ، لأن هؤلاء القوم عرموا بالكرم الزائد على كثير من رجالات هذا العصر ، علماء ، وأدباء ومتقين ، وأناس عاديين ، حتى أن كرمهم طال كثيراً من طوائف الناس ، إذا صح ما امتلأت به كتب الأدب ، ومصادر التاريخ عن

(١) الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، طبعة مكتبة الإيمان بالمنصورة ، خرج أحدياته ، محمد بيومي ، عبد الله المنشاوي ، أحمد رضوان مهنا ، ١٠ / ٥٦٦ ، د.ت.

(٢) المحسن والمساوئ ، طبعة دار المعرف ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ١ / ١٨٥ .

الأموال الهائلة التي كان ينفقها هؤلاء القوم على الناس ، فطبيعي أن يتأثر العلم بشكل سلبي بنكبة هؤلاء الوزراء بصورة أو بأخرى ، وإحقاقاً للحق ؛ فإن البرامكة لم يكونوا - بالرغم من كرمهم الزائد - منفردين بالاهتمام بالعلماء ، وإن رافقهم بالأموال ، بل كان معظم وزراءبني العباس أصحاب ثقافة واسعة ، جعلتهم يهتمون بالعلم ، ويشجعون العلماء بشتى الوسائل ، بما في ذلك التشجيع المالي ، فهذا عبد الله بن طاهر بن الحسين يحتوي أبا عبيد الله القاسم بن سلام - ت ٢٢٣ هـ ، فقد كان هذا العالم كلما ألف كتاباً أهداه إليه ، فيحمل له مالاً كثيراً ، فلما عمل كتاب غريب الحديث استحسن ابن طاهر ، وقال : " إن عقلاً بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب ، لحقيقة ألا يخرج عنا إلى طلب المعاش فأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر<sup>(١)</sup> .

وكان محمد بن عبد الملك الزيات محبًا للعلوم ، وقد أسهם بنصيب كبير في ازدهار العلوم والمعارف ، وقد شجع حركة الترجمة في عصره تشجيعاً كبيراً ، فكان يشجع العلماء ، ويجزل لهم العطاء وقد ذكر ابن أصيبيعة أن محمد بن عبد الملك الزيات " كان يقارب عطاوه للنقلة والنساخين في كل شهر ألفي دينار ، ونقلت باسمه كتب كثيرة ، وكان مما نقل له الكتب اليونانية ، وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء "<sup>(٢)</sup> .

فعلى هذه الشاكلة ، اهتم الحكام في هذا العصر اهتماماً خاصاً بالعلماء ، فلم ينسهم الخلفاء ، واحتوى كثريين منهم الوزراء ، بل وغير الوزراء من القائمين على حكومةبني العباس ، وقد كان لهذا الاهتمام ، وهذه الهبات فعل السحر من كافة النواحي في ازدهار العلوم ، فقد حملت عنه هموم الحياة المادية ، ومشاكلها الحياتية ، التي قد تعصف بنفسية العالم وتأخذ قسطاً وافراً من حياته وجهده وعرقه ، وقد كان له دورها أيضاً النفسي ، من إشعار هؤلاء العلماء بقيمتهم أمام أنفسهم من جهة ، وأمام المجتمع كله من جهة ثانية ، فإن العالم في كثير من

(١) جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة ، دار الهلال ، راجعها شوقي ضيف ، ٢ / ١١٨.

(٢) ابن أبي أصيبيعة ، ( موقف الدين أبو العباس أحمد بن القاسم ) ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ص ٢٨٤ ، د.ت.

الأحيان يحتاج إلى من يقدّر علمه ، ويهم بفكره وعقله وإبداعه ، فيكون ذلك دافعاً له إلى مزيد من الجهد في الاهتمام بالعلم ، والانشغال به ، مما ينبع عنه دقة في التحصيل ، ودقة في الملاحظة ، ودقة في التوصيل ، وبالطبع قام الحكماء بهذا الدور دون توان ، هذا جانب توفير الوقت لهؤلاء العلماء حتى يستثمروه في العلم ولا يضيئوه في كلفة السعي لجلب الرزق ، والكى لسد الفاقة ، والانشغال بسبب الحصول على المال ، والتقن في سلب نهب الأموال لسد حاجة النفس والأسرة .

ويمكننا أن نقول بأن الحكماء كانوا عليهم أن يشجعوا العلماء مادياً وأن يمدوا لهم يد العون ، وأن يحتوهم على طلب العلم ، وقد قاموا - فيما يظن - بهذا الدور إلى حد كبير ، وإنقاذاً للحق ، فإن بعض العلماء قد سخر علمه وفكره وعقله لمرضاته الله تعالى ، حباً منه للتزود من العلم ، والتطلع فيه ، غير ناظر إلى كيس أمير ، ولا متلمظاً إلى جائزة وزير ، وعرضت عليه خزائن الحكم فأعراض عنها ، دعى إلى بلاطهم فاعتذر عنه مبتغيًا بعلمه الجائزة من خالقه ، منهمكاً في عمله دون نظر إلى هدية دنيوية .

ومن العلماء من لم تتح لهم فرصة الالتفاء بالحكماء ، والانتفاع بعطائات الخلفاء والوزراء وبالرغم من ذلك خدم العلم وأفاد العلماء .

وهذا بالطبع لا ينقص القاعدة الأساسية ، وهي أن خزائن الدولة كانت ذات أثر بالغ في العلم والفكر ، وتقدمه خطوات ، كان من الممكن أن يحدث لها شيء من التعثر إذا حرمت منه .

### **بـ- النهضة الثقافية :**

إذا كان العالم يمتلك من العلم - بعد رسوخ قدمه فيه - ما يصل به إلى ما يريد ، أو يأخذ بيده لينال ما تطمح إليه كثير من الأنفس ، من الوصول إلى بلاط الخليفة أو الوزير ، لينال عنده الشهرة والمال ، حتى إذا ما وصل تحقق له ما يريد كثيرون ويتمونه من ذلك ، فمن الطبيعي أن هذا العالم لم يولد عالماً ، ولم يأته العلم دون توفر لأسبابه الرئيسية ، من رغبة وحرص ، وغير ذلك ، هذا جانب موارد الثقافة التي يستنقى منها المتعلّم علمه ليصل إلى رتبة العلماء ، متمثلة في العلماء وأهل الفكر ، أو في الكتب التي تحفظ العلم ، أقول : إن مصادر

وموارد العلم إذا لم تكن متوفرة ، وفي متناول المتعلمين فإن ينبع العلم سينقطع ، وإن مشاعله ستطفئ بتوالي الأيام والسنوات ، إذن فلا بد من توافر ينابيع الثقافة والعلم ؛ لكي ينهل منها المتعلمون أسس العلم ، ثم يطورون ويدعون في هذه الأسس ، مستخدمين عقولهم وأفهامهم ، فيصبحون علماء على أساس من هذه الينابيع ، ومن هذه المصادر ، وإذا كنا قد تحدثنا عند دور الحكم المادي متمثلًا في تشجيع العلماء ورعايتهم ماديًّا ، فإنه من الضروري أن نتعرف للعباسيين بالفضل أيضًا تسهيل طرق الحصول على الثقافة في بلادهم في أثناء هذه الفترة التي نحن بصددها ، مما جعلها " تحقق أكبر نهضة ثقافية شهدتها الحضارة الإسلامية " <sup>(١)</sup> فقد كانت طرق الحصول على الثقافة سهلة ميسرة لكل الناس ، وقد نبغ على أساس من هذه السهولة كثير من أبناء الطبقات الدنيا في المجتمع " ويكتفي أن نعرف أن أعلام الشعر حينئذ وهم ( بشار بن بُرد وأبو نواس وأبو العتاهية ومُسلم بن الوليد وأبو تمام ) كانوا جميعًا من الطبقة الدنيا من المجتمع ، فبشار كان أبوه طيأً يضرب اللَّبن ، وأبو نواس كانت أمّه غازلة للصورف ، ومن هذا الغزل كانت تعوله ، وأبو العتاهية كان في صغره يحمل الخزف والجرار على ظهره في شوارع الكوفة يبيعها للناس ، وكان أبو مسلم حائِكًا ، أما أبو تمام فكان أبوه عطارًا أو خمارًا ، ومن وراءهم من الشعراء كانوا من أبناء العامة " <sup>(٢)</sup> .

من هذا يمكننا أن نتعرف للحكام بشيء غير قليل من الدور جعل التعليم سهلاً أمام عامة الناس ، الغني والفقير ، الكل باستطاعته الحصول على العلم ، والكل باستطاعته النبوغ فيه ، أما هذا التسهيل فتمثل في :

### ١ - التعليم المجاني :

لا يذكر المسجد في أوساط المسلمين إلا وتنذر الصلاة ملزمة له ، ذلك لأن المسجد هو المكان الذي تؤدي فيه الصلاة في كل يوم خمس مرات ، ويغيب عن الكثرين أن المسجد منذ عهد النبي – صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هو مكان العبادة

(١) محمد بن عبد العزيز المواتي ، حركة التجديد في الشعر العباسي ، مكتبة الشباب ، سنة ١٩٩١ م ، ص ٤١ .

(٢) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ م ، ص ١٠٧ .

عامة وليس الصلاة فقط ، فهو المكان الذي يجتمع فيه الحاكم والمحكوم ، فيتاح من خلاله المنازعات الاجتماعية ، وقد كان أيضاً المكان الذي تجيء إليه الزكاة ، تم يتم توزيعها على المستحقين إلى غير ذلك من الأمور التي تمس عدة جوانب من هموم المجتمع المسلم " والمسجد لم يكن في صدر الإسلام مكاناً للسجود فحسب ، ولم يكن بمعزل عن الحياة وتطورها ورقيها ، بل كان المسجد ياتح مع المجتمع ؛ ليقدم له النماذج الطيبة من العناصر الصالحة التي تربت بين جدرانه ، ونشأت في محيطه ، وشربت من رحيق الإيمان الصافي " <sup>(١)</sup> .

وبجانب هذا وذاك كان من أهم أدوار المسجد كونه مدرسة لتعليم العلم ، يذهب إليه من يريد مقابلة العلماء ؛ فيسألهم عن كافة ما يحتاج إليه من علم وفقه ، " والمساجد تظل في العادة مفتوحة الأبواب طوال النهار ، يؤمها كل مسلم صالح أو زنديق ، ليتوضاً أو ليصلي أو ليستريح ، وهناك تحت سُقفها الظليلية كان المدرسون يعلمون التلاميذ ، والقضاة يفصلون في الخصومات ، والخلفاء يعلنون سياستهم أو أوامرهם ، وكان الناس يجتمعون فيها ليتحدثوا في كل ما يعنيهم " <sup>(٢)</sup> .

فلم يكن المسجد في يوم من الأيام حكراً على أنس دون آخرين ، يتعلم فيه العلم طائفة دون أخرى ، بل كان مفتوحاً أمام جميع المسلمين ، يتعلم فيه الناشئة ما يريدون تعلمه من أصناف العلم المختلفة " حلقة لفقيه ، وحلقة لمحاث ، وحلقة لفاص أو لمفسر ، وحلقة للغوى ، وحلقة لنحوى ، وحلقة لمتكلم " <sup>(٣)</sup> .

ويجلس المتعلم في الحلقة التي يريد لها ، ويجلس ما يحلو له أن يجلس ، ثم ينصرف وقتما يحب ، لم يتكلف أعباءً مادية تنقل كاهله وتجعله يترك العلم ، ولم يجر على حلقة بعينها قد لا تتوافق مع هوئ نفسه أو مع ميوله الشخصية ، لذا نرى كثيراً من أبناء الطبقة الدنيا في هذا المجتمع لمعوا أو اشتهروا - كما قلنا آنفاً - ، ووصلوا إلى أعلى المراتب العلمية ، بل وإلى بلاطات الخلفاء والوزراء،

(١) منصور الرفاعي عبيد ، مكانة المسجد ورسالته ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، ص ٢٨ .

(٢) ول ديورانت ، قصة الحضارة ن ط ٣ ، اتفقت على ترجمته الإدارية الثقافية في جامعة الدول العربية ، سنة ١٩٧٤ ، ترجمة محمد بدران ، ج ١ ، المجلد ٤ ، ص ١٢٠ .

(٣) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ ، ص ١٠١ .

من أمثال أبي تمام ، وأبي العتاهية ، وأبي يوسف القاضي ، وبشار ، ومسلم بن الوليد ، وغيرهم ، ولأن منابع ومصادر العلم مفتوحة للجميع ، لم يكن طالب العلم يجد عنتاً أو في إيجاد إجابات لما قد يعن له من أسئلة علمية ترد على ذهنه ، في أي مكان ، فما كان منه إلا أن يذهب لأداء فريضة الصلاة ، ثم يسأل العالم المتخصص فيها يريد ، وليس هناك حكرٌ في الوقت ، أو التزام يضيق على العالم الوقت المخصص للعلم ، أو للإجابة على أسئلة السائلين ، بل كان جلوس العالم في المسجد معظم الوقت ، لأن تعليم العلم شغله واهتمامه .

" وكانت في معظم المساجد مكتبات ، كما كان معظم المدن دور عامة للكتب تضم عدداً كبيراً منها ، وكانت مفتاحاً للأبواب لطلاب العلم "(١). فالمكتبات، وجود العلماء في المسجد جعلاه منارة علمية تحوي ينابيع العلم ، وفنون الثقافة وهي مفتاح الأبواب أمام الناس ، مما كان له أكبر الأثر في ازدهار الحركة العلمية والثقافية في العصر العباسي (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) ، ونصب عينيَّ الكثير من العلماء وصلوا من خلال التعليم بالمسجد إلى بلاط خليفة ، أو منزل وزير أو ثري ، أو أمير تحسن أحواله المادية من خلاله ، فقد حدث الزجاج قال: "اشتهيت النحو فلزمت المبرد لتعلميه وكان لا يعلم مجاناً ولا يعلم بأجرة إلا على قدرها ؛ فقال لي : أي شيء صناعتك ؟ قلت : أخرط الزجاج ، وكسبني في كل يوم درهم ودانقان ، أو درهم ونصف ، وأريد أن تبالغ في تعليمي ، وأعطيك كل يوم درهماً ، وأشارت لك أن أعطيك إياه أبداً ، إلى أن يفرق الدهر بيننا ، استغنيت عن التعليم أو احتجت إليه ، قال : لزمته وكانت أخدمه في أموره مع ذلك ، وأعطيه الدرهم فينصحني في العلم حتى استقللت ، فجاءه كتاب بعض ( بَنِي مَازَمَة ) من السراة يتlossen معلماً نحوياً لأولادهم ، فقلت له أسمني لهم ،

---

(١) ول يورات ، قصة الحضارة ، ط ٣ ، أنفقت على ترجمته الإدارية الثقافية في جامعة الدول العربية ، سنة ١٩٧٤ م ، ترجمة محمد بدران ، ج ٢ المجلد ٤ ، ص ١٧٠ .

فأسماني ، فخرجت فكنت أعلمهم وأنفذ إليه في كل شهر ثلثين درهماً ، وأزيده بعد ذلك بما أقدر عليه<sup>(١)</sup> .

ولم يقتصر دور المسجد العلمي على احتواه على مجموعة علماء العصر، وعلى ما تضمه المكتبات بداخله من كتب ومجلدات وقرطيس ، بل كان المسجد أيضاً منبراً مهماً للنحوات الشعرية ، فلقد كان الشعراء يستغلون اجتماع الناس في المسجد ، وينشدون أشعارهم التي يمدحون بها من يمدحون ، أو يهنئون بها من يهنئون ، هذا بجانب عرض بعض الشعراء أشعارهم على المتخصصين ، ليستفيدوا بفهمهم قبل إنشادها المدحدين ، فهذا خلاذ الأرقط يقول : " جاءنا مروان بن أبي حفصة إلى حلقة يوْنُس ، فأخذ بيده خلف الأحمر فأقامه ، وأخذ خلف بيدي فقمنا إلى دار أبي عمير ، فجلسنا في الدهليز ، فقال : مروان لخلف : ناشتك الله يا أبا محرز إلا نصحتي في شعري ، فإن الناس يخدعون في أشعارهم ، وأنشده قوله :

**طَرَقْتُكَ زَائِرَةً فَحَيِّ خَيَالَهَا .. بَيْضَاءُ تَخْلِطُ بِالْجَمَالِ دَلَاهَا**  
قال له : أنت أشعر من الأعشى في قوله :  
**رَحَّكَتْ سُمِّيَّةً غُدْوَةً أَجْمَالَهَا**

قال له مروان : أتبغ بي الأعشى هكذا ! ولا كل ذا : قال : ويحك ! الأعشى قال في قصيده هذه : " فأصاب قلبها وطحالها " والطحال ما دخل قط في شيء إلا أفسده ، وأنت قصيتك سليمة كلها "<sup>(٢)</sup> .

وهذا الخبر نفسه في " العقد الفريد " أن إنشاد مروان كان في المسجد والذي بهمنا من هذا كله أن المسجد كان مندى للشعراء ، وقد وجده الخليفة

(١) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ط الأخيرة ، القاهرة ، دار المأمون ، طبعه لجنة التأليف والترجمة والنشر ، عنابة أحمد فريد الرفاعي ، ٤٧ / ١ .

(٢) أبو الفرج على بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة محررة معها بإشراف ، وتحقيق / إبراهيم الأبياري ، ٣٥٦٤ / ١٠ وقصيدة الأعشى - ديوان الأعشى ، ط ١ ، بيروت ، طبعة دار الجيل ، سنة ٤١٣ هـ - ١٩٩١ شرح يوسف شكري فرات ، ص ٢٢٦ .

المهدي يزحف من صدر مصلاه حينما سمح قصيدة مروان السابقة ، ولاشك أن صدر مصلاه هذا كان في المسجد ، وقد كان بشار يجلس بالليل في مسجد الرصافة ، فيحضره ناس كثير ، ويحدثهم ، وينشدهم شعره <sup>(١)</sup> ، وذكر أحمد بن عبيد بن ناصح أن أبا تمام كان يجيء إلى المسجد الجامع ينشد أشعاره <sup>(٢)</sup>.

ويرى الباحث : إن المسجد لم يكن فقط منارة علمية تحوي كبار العلماء والعدد الكبير من الكتب في مكتباتها ، بل كان إلى جانب هذا منبراً لـلقاء الشعر الرصين من أكابر الشعراء ، بل والتحاور حوله بالمدح أو القبح ، مما كان له أكبر الأثر في انتشار الشعر في الأماكن المختلفة ، وقد أفاد كل هذا الأدب والعلم والفكر والفن إفادة لا يمكن لمنصف أن ينكرها .

وقد كان المسجد في كثير من الأحيان يمثل ما يشبه درجات السلم ، أمم العالم أو الشاعر أو الفقيه ، فمن خلاله قد يصل إلى دار الخلافة نديماً أو معلماً أو قاضياً " وليس من شك في أن هذا الصنيع كان من أهم الأسباب في ازدهار الحركة العلمية بالمساجد ، إذ كان من بزغ نجمه حلقاتها لا يلبث أن يستدعي إلى دار الخلافة أو دار الولاية أو دور أحد الوزراء ، فإذا العطايا تفرض عليه وإذا الرواتب تفرض له شهرياً " <sup>(٣)</sup>.

## ٢ - بناء المكتبات العامة :

ولم تكن المساجد وحدها هي المورد السهل الذي يقصده محب العلم ومبتغي الثقافة دون غيرها ، ولكن تطوراً آخر - في حياة العباسين العلمية - ظهر بصورة ملموسة ، جعلت الحصول على العلم والثقافة أكثر سهولة من اللجوء لمجالس العلماء ، وحلقات الدرس في المساجد ، وجعلت العلم يذهب إلى الناس في منازلهم ، يرافقهم حيث يسيرون ، ولم يكن هذا التطور سوى بدعة عباسية خالصة، وأقصد بهذا التطور ظهور (الورق) ، فمن المعروف أن الناس كانوا

---

(١) الخطيب البغدادي ، أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد ، بيروت ، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع ، ٢٤٩ / ٨ .

(٢) نفسه : ٤٦٨ / ٨ .

(٣) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعرف ، سنة ١٩٦٦ م ، ص ١٠٢ .

يدونون العلم قبل ذلك في الجلود والقراطيس ، إلى أن أنشأ ( الفضل بن يحيى البرمكي ) في عهد الرشيد مصنعاً للورق ببغداد " ففشت الكتابة فيه لخفة ، وغلبت على الكتابة في الجلود والقراطيس " <sup>(١)</sup>.

وإذا استطعنا أن نرجع بخيالاتنا إلى ما قبل هذه الفترة الطويلة ، وتخيلنا الفارق الكبير بين الكتابة في الجلود ، والكتابة في الورق ، أقول : إذا استطعنا ذلك شعرنا بالنقلة الحضارية الكبيرة التي سهلت تدوين العلم من جهة ، وسهلت حمله من جهة ثانية ، وسهلت أيضاً مدارسته من جهة ثالثة ، وهي عوامل لم تكن متاحة من قبل ، فلما " جاء العصر العباسي ، ونشطت حركة التأليف والترجمة ، وعظمت صناعة الورق ، وتبع ذلك ظهور حرفة الوراقين ، ووجود أمكنة لهم تتخذ مباة للعلماء والأدباء " <sup>(٢)</sup>.

فإن حركة التأليف والترجمة ازدهرت ازدهاراً ملحوظاً في هذا العصر ، وذلك بفضل جهود المأمون أعلم خلفاء بنى العباس في هذا الجانب ، الذي شجع الترجمة تشجيعاً لم يسبق له مثيل في العصور السابقة عليه ، وإن كان خلفاء عصره من قبله ، أمثال المهدي والرشيد ، كان لهم نشاط في ذلك ، إلا أنه لم يكن بحجم جهوده في مجال الترجمة على وجه الخصوص : " وفي القرن الأول من خلافة العباسيين كان المתרגمون من الإغريقية إلى السريانية ، ومن السريانية إلى العربية هم الذين يحتلوا المرتبة الأولى من النشاط العلمي ، ولاسيما أولئك المתרגمون الذين كانوا من المسيحيين المنشقين ، مثل " تيوفيل بن توما الرّاهاوي " الذي كان فلكي الخليفة المهدي ، وقد ترجم من السريانية كتاباً لجالينوس ، مثل " جرجيس بن جبريل بن بختيشوع " الذي عمل عند المنصور ، وهو أقدم ممثل لطبقة من الأطباء الذائعي الشهرة " <sup>(٣)</sup> فلم يكن المأمون أول خليفة اهتم بالترجمة

---

(١) نفسه : ص ١٠٣ .

(٢) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ، سنة ١٩٩٨ م ، طبعة سنة ٢٠٠٢ م ، ٢ / ٦١ .

(٣) محمد مصطفى هدارة ، المأمون الخليفة العالم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٥ م ، ص ٢١٧ .

وإن كان عصره أزهى عصورها " وكان تشجيعه لكل العلوم على قدم المساواة ومن هنا جاء الازدهار العظيم في حياة الترجمة في عصره <sup>(١)</sup> . وقد ذكر (جورجي زيدان) في (تاريخ التمدن الإسلامي) الكتب التي ترجمت في النهضة العباسية <sup>(٢)</sup> والمقام لا يستوجب ذكرها ، فكل ما يعنينا أن نعلم أن الكم الكبير من الكتب المترجمة كان في حاجة ماسة إلى التفكير في مصنع الورق الذي ذكرناه آنفاً ، والذي كان له أثر كبير في انتشار العلم المؤلف والمترجم ، وعلى أساس منه ظهرت حرفة الوراقين الذين يكتبون العلم في الورق ، ووجود أمكنة لهم تتخذ مبادرة العلماء والأدباء ما يتزودون منها العلم ، وكثرة المكتبات وذخرت بالكتب <sup>(٣)</sup> .

وكان من أهم مظاهر اهتمام الدولة بالعلم والكتب أن أنشأت خزانة للكتب أسمتها (بيت الحكم) أيام الرشيد أو ولده المأمون ، وإن كان مؤرخو الأدب قد اختلفوا هل هي من صنع الرشيد أم من صنع المأمون ، فهذا لا يعنينا كثيراً ، فهي في الحالتين في العصر الذي نحن بصدده دراسته ، وقد قدمت هذه المكتبة خدمة هامة في سبيل تسهيل الحصول على الثقافة والعلم ، وهي مكتبة ضخمة عنيت فيها الدولة أشد العناية بالكتب المترجمة التي تحمل كنوز الثقافات الأجنبية ، ولا ريب في أن هذه المكتبة كان جامعاً كبرى لطلاب العلم والمعرفة .

" وقد أخذ كثير من الأفراد يعنون بافتتاح المكتبات ، وكانوا يوظفون فيها بعض الوراقين للنسخ ، من ذلك مكتبة إسحق بن سليمان العبسي ، وكانت تمتلئ بالكتب والأسفاط والرقائق والقمطير والدفاتر والمساطر والمحابر <sup>(٤)</sup> .

وأضخم منها وأعظم مكتبة يحيى بن خالد البرمكي والتي يقال إنه لم يكن في مكتبة كتاب إلا وله ثلات نسخ <sup>(١)</sup> ؛ وربما فاق هذه المكتبة عظماً وضخماً

(١) نفسه : ص ٢١٦ .

(٢) ١٧١ / ٣ .

(٣) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، الهيئة المصرية للكتاب ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ، ١٩٩٨م ، طبعة سنة ٢٠٠٢ م ، ٦١ / ٢ .

(٤) عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، الحيوان ، القاهرة ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، سنة ١٩٣٨ م ، ٦١ / ١ .

الواقدى المؤرخ المشهور ، ت ٢٢٧ هـ ، وكانت تشتمل على ستمائة صندوق مملوءة بالكتب ، وكان له مملوكان يكتبان له ليلاً ونهاراً<sup>(٢)</sup> .

ولأن العصر كله كان يدوي باختراع مادة الورق ، وبالمصنع الذي أنشئ لها في بغداد على يد البرامكة ، فقد ازدهرت حرفة الوراقين ، وأفادوا منها ، وأفادوا محبي العلم والثقافة أيضاً ، فقد " أنشأ بعض الوراقين لهم دكاكين كبيرة ملأوها بالكتب ، يتجرون فيها ، وكان بعض الشباب يغدو إلى هذه الدكاكين ، لا يشتري منها فحسب ، بل ليقرأ فيها ما لذ وطاب من صفوف الآداب ، نظير أجر بسيط يتقاده منه صاحبها "<sup>(٣)</sup> .

فقد أصبحت الورقة مصدراً لكسب الرزق ، يتنافس الوراقون وأصحاب الدكاكين فيما بينهم ، ليجذبوا إليهم القراء والمطبعين ، إما بتقليل الأجر الذي يتقادونه من القراء ، أو بتجويد خطوطهم وزخرفتها وتحسينها لتروق القراء وفي هذا وذاك خدمة كبيرة لتشجيع العلم بطريق مباشر أو غير مباشر ، وبلغ من عناية الوراقين بعلمهم ، أن موه بعضهم خطوطه بالذهب ، وينظر الجاحظ أن الزنادقة كانوا يتأنقون في كتبهم تأنقاً شديداً<sup>(٤)</sup> وهذا التأنق وهذه الزخرفة يعدان عنصراً مهماً لجذب القراء " وكان في معظم المدن دور عامة للكتب تضم عدداً كبيراً منها ، وكانت مفتحة الأبواب لطلاب العلم "<sup>(٥)</sup> ونستطيع أن نقول - على أساس من ذلك - إن طرق الحصول على الثقافة كانت سهلة ميسرة ، فيتناول كل من أراد العلم ، فقد كان منها أن شجع الحكام العلماء بعده وسائل ، فجعلوهم منشغلين بالعلم وحده وأنشأوا المكتبات العامة يردها الراغبون ، فيجدوا أصنافاً من العلم ، يتزود كل مما يميل إليه " ويخيل إلى الإنسان كأنما كانت أزواب المعرفة والثقافة ملقاء

---

(١) نفسه : ١ / ٦٠ .

(٢) ابن النديم ( أبو الفرج محمد بن إسحاق بن أبي يعقوب ) الفهرست ، بيروت ، دار النهضة ، سنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ، ونسخة طبعة مصر ، ص ١٤٤ .

(٣) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، درا المعارف ، سنة ١٩٦٦ م ، ص ١٠٤ .

(٤) الحيوان ، القاهرة ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، سنة ١٩٣٨ م ، ٥٥/١ .

(٥) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ط ٣ ، أنفقت على ترجمته الإدارية الثقافية في جامعة الدول العربية ، سنة ١٩٧٤ م ، ترجمة محمد بدران ، ج ٢ ، مجلد ٤ ، ص ١٧٠ .

بكل مكان بأمصار العراق ، وهي حقاً كانت مطروحة في الطرقات ، معرضة لكل الأيدي ، فأبواب المساجد مفتوحة على مصاريعها لكل الواردين ، ومثلها دكاكين الوراقين ، ولا مصاريف تطلب للتعليم ، فالتعليم مجاناً ومن حق الجميع<sup>(١)</sup> وقد تمنت طوائف مختلفة من هذا الانفتاح الثقافي الذي عمَّ المجتمع ، حتى الجواري ، كان النخاسون يوفرون لهن أسباب الدراسة والثقافة ، لتزداد قيمتهن ، ولسيستفيدوا من صناعتهن فوائد مضاعفة ، إذ كان الشباب يجتمعون في بيوتهم لاستماع الغناء والتلذذ بالغزل والشراب .

### جـ- دعم الأدباء والشعراء :

إذا كان حكام العباسين قد اجتمعوا بالعلماء والمصنفين ، وشجعوهم تشجيعاً مادياً بسخاء زائد ومدوا لهم يد العون ، وشجعوهم تشجيعاً كبيراً ، وحوthem على العلم تأليفاً وترجمة ، وكالوا لهم الدراهم والدنانير كيلا، مما كان له أكبر الأثر في ازدهار العلم والفكر، يقول الباحث : إن ذلك لم يكن للعلماء ، فقط ، ولكنه شمل أيضاً الأدباء والشعراء، فإذا كانوا قد اهتموا بالعلم فإنهم لم يغفلوا الفن ، فقد احتواوا الشعراء ، ومنحوه من العطايا حسب ما ذكر ذلك كثير من مصادر الأدب- ما يبهر العقول ، وقد يجعلها تقف حائرة بين التصديق والتکذيب لهذه الأخبار التي أوردها مؤرخو الأدب ، "دخل ابن الخطاط المكي على المهدى وقد مدحه، فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما قبضها فرقها على الناس وقال: أَخَذْتُ بِكَفَّيْ كَفَّهُ ابْتَغَى الْغَنَى .: وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفَّهِ يُعْدِي فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذُوو الْغَنَى .: أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي فَبَدَدْتُ مَاعِنْدِي فنمى إلى المهدى فأعطاه بكل درهم ديناراً " <sup>(٢)</sup>.

ولقد كان المهدى من أكثر خلفاء بنى العباس كرمًا مع الشعراء ، فقد أعطى مروان بن أبي حفصة مالم يعطى لشاعر من قبله ، ولقد أحس الشعراء ، بكرمه هذا فأتحفوه بشعرهم الرائع الرصيف حتى غيبوه من وعيه في العطاء " وكان سَلم الخَاسِر - قد كسب مالاً بقصيدته التي مدح بها المهدى ، التي أولها:

(١) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ م ، ص ١٠٧.

(٢) ابن الجوزي، المنظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي، ٢٥٩/٥

حَصْرَ الرَّحِيلُ وَشُدَّتْ الْأَحْدَاجُ .: وَحَدَّا بَهْنَ مُشَمْرُ مِزْعَاجُ  
 شَرِبَتْ بِمَكَّةَ مِنْ دَوِيْ بَطْحَائِهَا .: مَاءَ النُّبُوَّةَ لَيْسَ لَيْسَ فِيهِ مِزَاجٌ  
 وَكَانَ الْمَهْدِيَ قَدْ أَعْطَى ابْنَ أَبِي حَفْصَةَ مِائَةَ أَلْفَ دَرْهَمَ بِقَصِيدَتِهِ إِلَى أَوْلَاهَا:  
 " طَرْقَتْ زَاثِرَةَ فَحِيَ خَيَالَهَا " فَأَرَادَ أَنْ يَنْفَصِسْ سَلْمًا عَنْ هَذِهِ الْجَائِزَةِ ، فَحَلَّ سَلْمٌ  
 أَلَا يَأْخُذُ إِلَّا مِائَةَ أَلْفَ دَرْهَمٍ ، وَأَلْفَ دَرْهَمٍ ، وَقَالَ: تَطْرُحُ الْقَصِيدَاتَ إِلَى أَهْلِ الْعِلْمِ  
 حَتَّى يَخِيرُوا بِتَقْدِيمِ قَصِيدَتِي ، فَأَنْفَذَ لِهِ الْمَهْدِيَ مِائَةَ أَلْفَ دَرْهَمٍ ، وَأَلْفَ دَرْهَمٍ ، فَلَمَّا  
 بَلَغَ إِلَى زَمَانِ الرَّشِيدِ قَالَ قَصِيدَتِهِ التِّي أَوْلَاهَا :  
**قُلْ لِلنَّازِلِ بِالْكِتَابِ الْأَعْفَرِ .: أَسْقِيْتِ غَادِيَةَ السَّحَابِ الْمُمْطَرِ**  
**قَدْ بَاعَ الثَّقَلَنِ مَهْدِيَ الْهُدَى .: مُحَمَّدُ بْنُ زُبِيْدَةَ ابْنَةَ جَعْفَرِ**  
 فَحَشَّتْ زَبِيْدَةَ فَاهْ دَرَا " (١) .

" ذَكَرَ أَبُو مُحَمَّدَ التَّيْمِيَّ قَالَ: دَخَلَتْ عَلَى مُحَمَّدِ الْأَمِينِ أَوْلَى الْخِلَافَةِ، فَقَالَ :  
 يَا تَيْمِيَّ ، وَدَدَتْ أَنْهُ قَيْلَ فِي مَثْلِ قَوْلِ طَرِيحِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ فِي الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ  
**طُوبَى لِفَرْعَيْكَ مِنْ هَنَّا وَهُنَّا .: طُوبَى لِأَعْرَاقِكَ التِّيْ تَشَجَّعُ**  
 فَإِنِّي وَاللَّهِ أَحْقَ بِذَلِكَ مِنْهُ ، فَقَلَّتْ : أَنَا أَقُولُ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ دَخَلَتْ إِلَيْهِ  
 مِنْ غَدِ فَأَنْشَدَتْهُ قَصِيدَتِي : إِلَى :  
**لَا بُدَّ مِنْ سَكْرَةٍ عَلَى طَرَبِ .: لَعَلَّ رُوحَ بَدِيلَ مِنْ كُرْبَ**  
 حَتَّى اَنْتَهِيَتْ إِلَى قَوْلِي :

**أَكْرَمْ بِفَرْعَيْنِ يَجْرِيَانِ بِهِ .: إِلَى الْإِمَامِ الْمَتَصُورِ فِي النَّسَبِ**  
 فَتَبَسَّمَ ، ثُمَّ التَّفَتَ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ رَبِيعَ ، فَقَالَ: بِحَيَايِي أَوْ قَرَ لَهُ زُورَقَهُ مَالًا ، فَقَالَ:  
 نَعَمْ يَا سَيِّدِي فَلَمَّا خَرَجَتْ طَالِبَتِ الْفَضْلُ بِذَلِكَ ، فَقَالَ: أَنْتَ مَجْنُونٌ ، مَنْ أَيْنَ لَنَا مَا  
 يَمْلَأُ زُورَقَكَ: ثُمَّ صَالَحَنِي عَلَى مِائَةِ أَلْفِ دَرْهَمٍ" (٢) .

وَخَلْفَاءُ بَنِي الْعَبَّاسِ جَمِيعَهُمْ كَانُوا يَغْدِقُونَ الْأَمْوَالَ عَلَى الشِّعْرَاءِ بِبِذْخٍ وَإِسْرَافٍ  
 زَائِدٌ، إِلَّا (أَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ) ، فَقَدْ كَانَتْ حَيَاةُ فِي شَخْصِهِ، وَفِي عَمَالِهِ ، وَفِي

(١) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي، ٤٩١/٥.

(٢) أبو الفرج عل بن الحسين الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الشعب، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩م، طبعة كاملة محررة معها فهراس بإشراف وتحقيق إبراهيم الإيباري، ٧٦٨٥/٢٢.

أهلة تخضع لمحاسبة شديدة، فقد كتب إليه صاحب الخبر مرة أن المهدى - وهو ولی عهده- أعطى المؤمل بن أمیل الشاعر<sup>(۱)</sup> عشرين ألف درهم على قصيدة امتدحه بها، فإذا به يبعث في طلب الشاعر، ويسترد منه المال إلا أقله<sup>(۲)</sup> ولم يكن هذا التصرف من المنصور مع شاعر مجید مبنیاً على عدم التقدير للفن نفسه، ولكن يرى أنه أراد أن يعلم المهدى التصرف بحساب، وخاصة أن الدولة في بدايتها تحتاج إلى مثل هذا الحساب، حتى لا تتها سريعاً بسبب البذخ والإسراف، ولكن حاسة المنصور الفنية لم تكن عاجزة عن تقدير الفن، وتکريم المبدعين من الشعراء ، والدليل على ذلك أن المنصور كانت تسرقه نفسه أحياناً فيعطي الشعراء ببذخ أيضاً، من ذلك ما حکاه الجاحظ قال: " كان أبو دلامة بين يدي المنصور واقفاً، فقال له: سلني حاجتك ، قال أبو دلامة: كلبٌ أتصيد به، قال أعطوه إيه. قال: ودابةٌ أتصيد عليها. قال أعطوه. قال: غلامٌ يصيد بالكلب ويقوده . قال: أعطوه غلاماً. قال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه. قال: أعطوه جارية. قال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عبيدك فلا بد لهم من دار يسكنوها . قال أعطوه داراً تجمعهم قال: فإن لم تكن لهم ضياعة فمن أين يعيشون : قال قد أعطيتك مائة جريب<sup>(۳)</sup> عامرة، ومائة جريب غامرة. قال وما الغامرة ، قال: ما لا نبات فيها. قال: قد أعطيتك أنا يأمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فيافيبني أسد، فضحك وقال: اجعلوها كلها عامرة "<sup>(۴)</sup>، ولم يكن المنصور ليحتمل هذا الإفراط في المطالب- فيما يرى - على هذه الشاكلة إلا من رجل هو يعلم قيمته وقدره، لذا فقد أعطاه وأغناه.

(۱) المؤمل بن أمیل، شاعر من أهل الكوفة ، أدرك العصر الأموي واشتهر في العصر العباسي، انقطع إلى الخليفة المهدى قبل خلافته وبعدها، وهو صاحب الأبيات التي أولها : إذا مرضنا أتیناكم لعودكم \*\*\* وتنذنون فتأتیکم فنعتذر. وقد عمى في آخر عمره ، توفي سنة ۱۹۰هـ. ينظر : خیر الدين الزركلي ، الإعلام ، ط ۱ بيروت ، دار العلم للملائين ، مؤسسة تقافية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ۱۹۶۶م، ۳۳۴/۷.

(۲) أبو جعفر محمد بن جریر الطبری، تاريخ الرسل والملوک، ط ۳، منقحة ، دار المعارف، سنة ۱۹۶۶م، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهیم ، ۷۳/۸.

(۳) الجريب : المزرعة - المعجم الوسيط ، جرب.

(۴) الأصفهانی، الأغانی، ۳۷۰۰/۱۰.

أما غير المنصور فإن الأعطيات كانت تخرج عن حدود المعقول، وتدخل في باب المبالغات في كثير من الأحيان ، ولو لم تذكر الأخبار ذلك في أكثر من مصدر لعدت من قبيل الأكاذيب. وقد كانت هذه الأموال الكثيرة التي يحصل عليها الشعراء، كفيلة بأن يجعلهم يجلسون في بيوتهم، لا هم إلا إحكام بناء القصائد ، والدقة في معانيها؛ لتثال القبول الذي يجلب هذه الأموال ، يقول مروان بن أبي حفصة: " إني إذا أردت أن أقول القصيدة ، رفعتها في حول ، أقولها في أربعة أشهر ، وأنخلها في أربعة أشهر ، وأعرضها في أربعة أشهر "(١) فلم يكن نيل القبول بالأمر الهين ، لأنهم كانوا يمدحون علماء بالشعر خبراء به.

وعلى شاكلة المهدي كان الرشيد، وكان المأمون، وكان المعتصم، وإن كان هناك تفاوتٌ إلى حد ما بينهم في العطاء ، إلا أنهم على الجملة قد أغروا الشعراء وكفواهم، وأغدقوا عليهم الأموال بغير حساب ، بل وحددوا لهم أوقاتاً معينة يسمح لهم بالوصول إليها ، والوقوف بحضرتهم ، وإنشاد الشعر لهم.

ولم يكن الخلفاء وحدهم أصحاب الفضل على الشعراء في العطاء ، بل كان كذلك وزراؤهم وقوادهم ، وأعيانهم ، وأهلوهم أصحاب فضل أيضاً ، فالبرامكة كانوا أجود الناس على وجه العموم ، وخاصة مع الشعراء والمبدعين " دخل سعيد بن وهب على الفضل بن يحيى يوماً وقد جلس للشعراء ، فجعلوا يشدونه ويأمر لهم بالجوائز حتى لم يبق منهم أحدٌ ، ثم التفت إلى سعيد بن وهب كالمستطيق له : أيها الوزير : إني ما كنت استعددت لهذه الحال ، ولكن قد حضرني بيتان أرجو أن ينوبا عن قصيدة فقال: هاتهما ، فرُبَّ فلِيلٍ أَبْلَغُ مِنْ كَثِيرٍ ، فقال:

**مَدَحَ الْفَضْلُ نَفْسَهُ بِالْفَعَالِ . . فَعَلَا عَنْ مَدِيْحَنَا بِالْمَقَالِ  
أَمْرُونِي بِمَدْحِهِ قُلْتُ كَلَّا . . كَبُرَ الْفَضْلُ عَنْ مَدِيْحِ الرِّجَالِ**

فطرب الفضل وقال: أحسنت وأجئت ، ولئن قل القول وندر ، لقد اتسع المعنى وكثير ، ثم أمر له بمثل ما أعطى لكل من أشده يؤمئذ ، وقال: لا خير فيما يجيء بعد بيتك وقام من المجلس"(٢).

(١) نفسه : ٣٥٤٦/١٠.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، طبعة دار الفكر العربي ١٩٣/٦.

وقد كان البرامكة يحترمون الشعراء احتراماً شديداً، ويقدرونهم حق قدرهم، ولا ينظرون إليهم نظرة انقصاص بسبب طلبهم للأموال على قول الشعر، وكان الشعراء يسمون في قديم الدهر إلى أيام خالد بن برمك السؤال، فقال خالد: "هذا والله إسم استقله لطلاب الخير، وأرفع قدر الكريم عن أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤمنين . لأن ، فيهم الأشراف ، والأحرار ، وأبناء النعيم ، ومن ولعله خيرٌ من يقصد ، وأفضل أدباً، ولكن نسميهم الزوار ، فقال بشار : يمدحه بذلك:

**حَدَّا خَالِدُ فِيْ فِعْلِهِ حَدْوَ بَرْمَكٍ .: فَمَجْدُ لَهُ مُسْتَطِرَفُ وَأَصِيلُ  
وَكَانَ ذُوو الْأَمَالِ يُدْعَوْنَ قَبْلَهُ .: بِلْفَظٍ عَلَى الإِعْدَامِ فِيهِ دَلِيلٌ  
يُسَمَّونَ بِالسُّؤَالِ فِيْ كُلِّ مَوْطِنٍ .: وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ نَابَةٌ وَجَائِيلٌ  
فَسَمَّاهُمُ الْزُّوَّارَ سَتْرَا عَلَيْهِمْ .: فَأَسْتَرَهُ فِي الْمُجْتَدِينَ سُدُولُ<sup>(١)</sup>**

وكان لكتاب القادة شعراء أيضاً يغدقون عليهم الأموال الطائلة ، من أمثال معن بن زائدة الشيباني، وعمرو بن العلاء ، وأبي دلف العجي وغيرهم ، ولقد بلغ بعلي بن جبلة أنه استحيا من كثرة عطاء أبي دلف له قال " علي بن جبلة: كنت لا أدخل على أبي دلف إلا يلقاني ببر ، فلما أفرط انقطعت عنه حياء منه ، فبعث إلى أخيه يقول : لم هجرتنا فكتبت إليه :

**هَجَرْتُكَ لَمْ أَهْجُرْكَ مِنْ كُفْرِ نِعْمَةٍ .: وَهَلْ يُرْتَجِيَ نَيْلُ الزِّيَادَةِ بِالْكُفْرِ  
وَلَكِنَّنِي لَمَّا أَتَيْتُكَ زَائِراً .: فَافرَطْتَ فِيْ بَرِّيْ عَجَزْتُ عَنِ الشُّكْرِ  
مِنَ الْآنِ لَا آتِيَكَ إِلَّا مُسَلِّماً .: أَزُورُكَ فِي الشَّهْرَيْنِ يَوْمًا وَفِي الشَّهْرِ  
فَإِنْ زَدْتَنِي بِرَّا تَزَايَدْتُ جَفْوَةً .: وَلَمْ تَلْقَنِي طُولُ الْحَيَاةِ إِلَى الْحَسْرِ<sup>(٢)</sup>**

وكان بهؤلاء المدحدين يسعون للمجد الدائم من خلال الشعر ، وينفقون على أصحابه بهذا الكرم؛ لإحساسهم بقيمة الباقيه.

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩-١٩٦٩ م ، طبعة كاملة ، محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق ، إبراهيم الإبياري ، ٣/١٥١٩ .

(٢) ابن الجوزي ، المنظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي ، ٦/٢٣٧ . وديوان علي بن جبلة " ط٣ ، دار المعارف ، جمع وتحقيق وتقدير حسين عطوان ، ص ٦٣ . د.ت.

- نستطيع بعد ذلك أن نقول مطمئنين : إن حكام العباسين اعتنوا بالفن الشعري متمثلاً في الشعراء، وأراحوا كثيرين منهم من هموم الحياة المالية، وجعلوهم يعيشون حياة رغدة ثرية ، لم يشعروا فيها بضيق الرزق، ولا بالسعى لجلبه بل " ما كانوا ليجدون الاعتراف الكامل بموهبتهم الفنية إلا في بلاط الخلافة " <sup>(١)</sup>.

- وإحقاقاً للحق ، فإن طائفة من الشعراء لم تتکسب بالشعر، ولم تسع به إلى اعتاب القصور، طلباً لجائزة من خليفة، أو درهم من وزير، ولكن كان من الواضح أن الشعراء الذين داروا في فلك الحكام كانوا أكثر شهرة وأجود إنتاجاً من ابتعد عن مدحهم.

" حسبك أن تعلم أن للخلفاء شعراء اختصوا بهم ، كأبي دلامة، وحماد عجرد ، وبشار بن برد، ومروان بن أبي حفصة، وأبي نواس، ومنصور النمري، وغيرهم، وللبرامكة شعراء أمثال: أبان بن عبد الحميد ، وابن منذر، والرقاشي " <sup>(٢)</sup>.

- إذا كان الحكام العباسيون قد أنفقوا على الشعراء بهذه الكثرة ، فلم يكن هذا إلا تقديرًا منهم للفن والأدب، وعلماً بأهمية الشعر كفخر لهم يبقى أبداً الدهر، لذا هانت عليهم الأموال، والتذوا بالسماع ، وطربوا للمديح، وفي الجهة المقابلة فإن سطوة سلطانهم - الحكام - قد دفت بعض ينابيع الشعر دفناً نهائياً، وحرمت دنيا الأدب من فنهم وإبداعهم ، لأسباب اختلف فيها بسبب ما قتل عيسى بن موسى أبا نحيله الشاعر حينما " لقب نفسه شاعر بني هاشم، فمدح الخلفاء من بني العباس، وهجا بني أمية فأكثر، وكان طاماً ، فحمله ذلك على أن قال في المنصور أرجوزة يغريه فيها بخلع عيسى بن موسى، ويعقد العهد لابنه محمد المهدي، فوصله المنصور بآلفي درهم ، وأمره أن ينشدتها بحضرته عيسى بن موسى، فعل، فطلبته عيسى فهرب منه ، وبعث في طلبه فأدركه في خراسان ، فذبحه وسلخ جلده ،

---

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦١ ، نقله إلى العربية ، عبدالحليم النجار ، ١٢/٢ .

(٢) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، ط٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ م ، ١٥٤/١ .

وأقسم ألا يريم مكانه حتى تمرق الطير والسباع لحمه، فأقام حتى لم يبقى إلا عظامه وانصرف " (١) .

- فالقرب من هذه الطبقة سلاح ذو حدين ، قد يرفع المرء إلى أعلى المراتب، وقد يكلفه حياته، وقد " كان سبب قتل المهدى ليشار ، أن المهدى ولى صالح بن داود أخا يعقوب بن داود وزير المهدى ولاده ، فهجاه بشار بقوله:

هُمْ حَمَلُوا فَوْقَ الْمَنَابِرِ صَالِحًا .: أَخَاكَ فَصَجَّتْ مِنْ أَخِيكَ الْمَنَابِرُ

- بلغ يعقوب هجاؤه فدخل على المهدى وقال له: إن بشاراً هجاك ، قال: ويلك ماذا قال. قال: يعفني أمير المؤمنين من إنشاد ذلك فقال: لابد. فأنسده:

خَيْرَةُ يَزْنِى بِعَمَّاتِهِ .: يَلْعَبُ بِالدَّبُوقِ وَالصَّوْلَاجَانِ

أَبْ دَلَّنَا اللَّهُ بِهِ غَيْرَهُ .: وَدَسَ مُوسَى فِي حَرَ الخَيْرُزُرَانِ  
فطلبته المهدى ، فخاف يعقوب أن يدخل عليه فيمدحه فيعفوا عنه، فوجه إليه من القاء في البطיחה" (٢) .

- وقد حدث ذلك مع صالح بن عبد القدوس الشاعر حينما اتهمه المهدى بالزندة، فأمر بحمله إليه فأحضر ، فلما خاطبه أعجب بغزاره علمه وأدبه وحسن ثيابه، فأمر بتخلية سبيله، فقال : ألسنت القائل:

وَالشَّيْخُ لَا يَتَرَكُ أَخْلَاقَهُ .: حَتَّى يُوَارِى فِي ثَرَى رَمْسَهِ  
إِذَا ارْعَوَى عَادَ إِلَى جَهَلَهُ .: كَدَا الْفَتَى عَادَ إِلَى نُكْسَهِ  
قال: بلى ، قال: وأنت لا تترك أخلاقك، ونحن نحكم فيك بحكمك ، ثم أمر به فقتل وصلب على الجسر (٣).

وإذا كان صالح بن عبد القدوس قد اتهم بالزندة فكانت سبب قتله ، فإن غيره قتل بسبب شعره ليس إلا ، كأبي نخيلة مثلاً .

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩-١٩٦٩ م ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإيباري ، ٢٣/٨٠٧.

(٢) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر) / ط١ ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٤٨ م ، تحقيق / محمد محي الدين عبد الحميد ١/٤٨٢.

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي ، ٥/٣٣١.

والذي يخلص إليه بعد كل هذا ، أن الحكم شجعوا العلماء، وسهلوا طرق الحصول على العلم والثقافة ، وأثابوا الشعراء، واهتموا بهم، إلا أنهم بالرغم من ذلك قد أخدوا بعض ينابيع البيان ، والدرس الموضوعي يتضمن أن نعترف أن هذه خسارة للأدب والشعر .

## **المبحث الثاني : الدعم الثقافي والعلمي**

إذا كان قد تحدثنا في ثقافة حكام العباسين حديثاً فيه شيء من التفصيل والتوضيح، وحاولنا الإلام بالجوانب المختلفة لثقافة هؤلاء الحكام، من دينية إلى أدبية ولغوية أو ثقافات أجنبية، وإذا كما قد توصلنا إلى مكانة هؤلاء الحكام العلمية المتميزة ، والتي جعلتهم في منزلة العلماء ، وإذا كنا قد أوضحنا الدور المالي المهم لهؤلاء الحكام ، والذي تمثل في إنفاق الحكام الكثير من الأموال على العلماء ، تشجيعاً لهم على مواصلة السير في هذا الطريق الوعر ، وأعني به طريق العلم وتحصيله ، وعلى منابع الثقافة ومصادرها المختلفة حتى يسهلاً للناس التزود بالعلم، وارتياح منابع الفكر ، وعلى الأدباء والمبدعين والشعراء والمتقين ومحبي البيان الرفيع ، اهتماماً بفنهم وإبداعهم ، واحتواء لهمومهم المالية التي قد تعرقل أدبهم وشعرهم.

يقول الباحث : إذا كان ذلك قد ثبت واتضح، فإحقاقاً للحق، لم يكن دور الحكام من خلفاء وزراء وقادة مقتصرأ على هذه النواحي المالية وحدها، إلا لأن أصبح هذا الدور - المالي - مجرد واجهة يتحلى بها الحكام دون إحساس حقيقي بقيمة ما ينفقون من أجله، ولأنه أصبح الأدب مفتقداً لشيء غير قليل من رونقه ومن قيمته المالية. بل كان لهم دورهم الثقافي والعلمي الملموس، والذي قدم للأدب شعراً ونثراً - الكثير من العنون، وكان له أكبر الأثر في توجيهه الأدب، وفي نهوضه ، وفي صياغته الفنية العالية ، وفي تحريكه في اتجاه معين ، وفي ظهور سمات معينة محورها الحكام وحدهم لولاهم لما وجدت ، هذا بجانب التوجيهات الفنية الدقيقة التي صدرت عن خليفة ، أو عن وزير ، وكان لها أكبر الأثر في أدب أديب أو مجموع من الأدباء.

وإذا حاولنا تلمس هذا الدور العلمي الذي أداء الحكام ، نجد يتمثل في :

**أ- الندوات الأدبية :**

من المتعارف عليه بين مؤرخي الأدب ، أن المجالس الأدبية قد عرفت قبل العباسين ، بل كانت هناك مجالس أدبية راقية قبل الإسلام ، سوق عكاظ

وغيرها، وفي صدر الإسلام وعصر بنى أمية اهتم العرب اهتماماً كبيراً بالأدب أيضاً، غير أن الدور الحقيقى الذى لعبته قصور الأمويين فى تنشيط هذه المجالس وتطويرها ، بدأ مع عبد الملك بن مروان ، نظراً لما تتمتع به هذا الرجل من أدب رفيع ، وثقافة واسعة ، وسليفة أدبية حملته على الاهتمام بشئون الشعر والأدب ، وإكرام أهلها<sup>(١)</sup> . واستمر الأمويون يهتمون بالشعر والأدب داخل قصورهم ، يتباين ذلك من خليفة إلى آخر ، حتى وصلت هذه المجالس إلى أعلى مستوى لها في الاهتمام والإعداد والثقافة ، وذلك في عهد خلفاء الدولة العباسية ، فقد صادفت هذه المجالس حكاماً من نوع تميز عامر بالعلم ، وافر الثقافة ، محبٌ للفن ، مشغوف بالإبداع ، فتصادفنا شخصيات أدبية راقية من الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد ، فنجد أنفسنا أمام أسماء شامخة كالرشيد ، والمأمون ، والواشق ، والبرامكة ، وإذا بهؤلاء الحكام يهتمون اهتماماً كبيراً ومتميزاً ب مجالسهم الأدبية ، يهيئون لها الأماكن التي تلقي بها ، باللغة من الرقي والتنظيم والزخرفة والبذخ مبلغًا هائلاً ، من ذلك ما رواه الأصممي عن مجلس الفضل بن يحيى قائلًا " .. فلما دخلت عليه إذا هو في بهو له قد فرش بالسمور ، وهو في دست منه ، وعلى ظهره دواج سمور أشهب ، مبطن بخز ، وبين يديه كانون فضة ، فوقه أثقبة ذهب ، في وسطها تمثال أسدٍ رابض ، في عينيه ياقوتان تتقدان ، وفوق الصينية إبريق زجاج فرعوني ، وكأس كأنها جوهرة محفورة ، تسع رطلًا لا أظنهما يفي بها مالاً كثير ، وهو على سرير من عاج "<sup>(٢)</sup> . وأعظم من هذه المجلس أبهة وإسرافاً وبذخاً ما رواه ابن المعتر عن مجلس الأمين يقول :

"بنى للمخلوع مجلس لم تر العرب والعم مثله ، قد صور فيه كل التصاوير ، وذهب سقفه وحيطانه وأبوابه ، وعلقت على أبوابه ستور معصفرة مذهبة ، وفرش بمثل ذلك من الفرش ، فلما فرغ من جميع أسبابه ، وعرف ذلك اختار له يوماً ، وتقدم بأن يؤمر النداء والشعراء بالحضور غدوة ذلك اليوم ، ليصطحبوا معه

(١) علي محمد هاشم ، الأندية الأدبية في العصر العباسي في العراق حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، بيروت ، منشورات دار الأفاق الجديدة ، سنة ١٩٨٧ ، ص ٥٩ .

(٢) ابن المعتر ، طبقات الشعراء ، دار المعارف بمصر ، تحقيق عبد الستار فراج ، ص ٢١٤ .

فيه، فلم يختلف أحد وكان فيمن حضر أبو نواس ، فدخلوا فراؤا أساً لم يروا مثله فقط ، ولم يسمعوا به ، من إيوان مشرف فاتح فاسخ يسافر عليه البصر ، وجعل كالبيضة بياضاً ثم ذهب بالإبريز المخالف بينه باللازوردي ، ذي أبواب عظام ، ومصاريع غلاظ ، تتألأ فيها مسامير الذهب ، وقد قمعت رؤوسها بالجوهر النفيس ، قود فرش بفرش كأنها صبغ الدم ، فنقش تصاوير الذهب ، وتماثيل العقيان ، ونضد فيه العنبر الأشهب ، والكافور المصعد ، فأمر فنثرت عليهم فانتهوا ، والشراب يدور عليهم بالكبير والصغير ، من الصرف والممزوج ، وليس يمنع أحد منهم مما يريد ، ولا يكره على ما يأبه وكان جيد الشراب ، فصبروا معه إلى أن سكر فنام <sup>(١)</sup> .

وإذا كانت كل هذه الزخارف لا تعنينا كثيراً في شكلها ، فإن الذي يعنينا اهتمام الحكام بها على هذه الشاكلة ، فلم يكن يعني هذا الاهتمام إلا بما يدور فيها من أدب وفن ، فكما اهتم الحكام بهذه الصورة بتجهيز أماكن مجالسهم الأدبية فإنهم اهتموا أكثر بما يدور داخلها من أدب ، وأشرفوا عليه إشراف المتمكن منه ، العالم به ، المشارك فيه ، الممتنع به ، وقد امتلأت كتب ومصادر الأدب بكثير من الشعر والنشر الذي تداوله الشعراء والمبدعون في حضرة الحكام في هذه المجالس " كانوا في هذه المجالس يتداولون جد الحياة فيحسنون فيه ، فنراهم يرونون الشعر ، وينقدون الشعراء ، ويتحدثون بطرائف الحديث وغرائبه ، ويتداولون الخلفاء والأمراء والوزراء بالمدح وضرب الثناء ، فيخرجون وقد أملأوا أيديهم بخيرات الدنيا ، فإذا خرجوا ذهباً بما كسبوا من العطاء إلى حيث ينفقونه في اللهو واللعب ، وفي اللذة والفسق <sup>(٢)</sup> .

وقد كان من الخلفاء من يجعل يوماً من أيام الأسبوع لاستقبال الشعراء ، والاستماع إلى أدبهم في مجلسه ، و يجعل محور الحديث برمته للشعر ، فيتباري كل شاعر في أن ينال الجائزة الكبرى من الخليفة أو من الوزير ، كل يحسّن بضاعته بما يستطيع لها من تحسين ، ويبحث عما يرضيولي الأمر بكل ما أوتي

(١) نفسه : ص ٢٠٩ .

(٢) طه حسين ، حديث الأربعاء ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

من بيان ، سواء اتفق ذلك مع مذاهبه وميوله هو أو لم يتفق ، لأنه إنما جاء إلى هذا المكان المعد لذلك من أجل غيره لا من أجله هو "بعث المهدى إلى بشار فقال له : قل في الحب شعراً ولا تطل ، واجعل الحب قاضياً بين المحبين ولا تسْمَ أحداً ، فقال :

اجْعَلِ الْحُبَّ بَيْنَ حَبْيٍ وَبَيْنِي .. قاضياً إِنَّنِي بِهِ الْيَوْمَ رَاضِي  
فاجْتَمَعْنَا فَقُلْتُ يَا حَبَّ نَفْسِي .. إِنَّ عَيْنِي قَلِيلَةٌ إِلا غَمَاضٌ  
فبعث إليه المهدى: حكمت علينا ووافقنا ذلك ، فأمر له بـألف دينار " (١) .

ومن ذلك أن المهدى كان قد أجرى الخيل ، فسبقها فرس له يقال له الغضبان ، فطلب الشعرا ، فلم يحضر إلا أبو دامة فقال له : قلد يا زند ، فلم يفهم ، ما أراد ، فقلده عمامته ، فقال المهدى : يابن اللخاء أنا أكثر عمامٍ منك ، إنما أردت أن تقلده شعراً ، ثم قال : يالهفي على العماني ، فلم يتكلم بها حتى أقبل العماني ، فقيل له : ها هو ذا قد أقبل الساعة يا أمير المؤمنين ، فقال : قدموه ، قدموه ، قلد فرسي هذا ، فقال غير متوقف :

قَدْ غَضِبَ الْغَضْبُ إِذْ جَدَّ الْغَضَبُ .. وَقَامَ يَحْمِي حَسَبًا فَوْقَ الْحَسَبِ  
مِنْ إِرْثِ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ .. وَجَاءَتِ الْخَيْلُ بِهِ تَشْكُو النَّعْبَ  
لَهُ عَلَيْهَا مَا لَكُمْ عَلَى الْعَرَبِ (٢)

ويُعجب الهدى بسيف عمرو بن معديكر ، فدعا به بعد ما ولى الخلافة ، ووضعه بين يديه ، وملء مكتل دنانير ، وقال ل حاجبه : إذن للشعرا ، فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا في السيف ، فبدأهم ابن يامين البصري فقال :

حَازَ صَمْصَاماً الزَّبَيْدِيِّ عَمْرُو .. مِنْ جَمِيعِ الْأَنَامِ مُؤْسَى الْأَمِينِ  
سَيْفُ عَمْرُو وَكَانَ فِيمَا سَمِعْنَا .. خَيْرٌ مَا أَغْمَدَتْ عَلَيْهِ الْجُفُونُ  
أَوْقَدَتْ فَوْقَهُ الصَّوَاعِقُ نَارًا .. ثُمَّ شَابَتْ فِيهِ الدَّعَافُ الْمَنْوَنُ

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهرس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإباري ٣ / ١٠٦٨ .

(٢) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، القاهرة ، نسخة طبعة دار الكتب المصرية ، سنة ١٩٣٥ ، ١٨ / ٣٢٠ .

وإذا ما شُهْرَتْهُ تَبَهَّرُ الشَّمْسَ .: مِنْ ضِيَاءٍ فَلَمْ تَكُنْ تَسْتَبِينُ  
 وَكَانَ الْفَرْنَدُ وَالْجَوْهَرُ الْجَارُ .: رَيْ فِي صَفْحَتَيْنِ مَائَةُ مَعِينٌ  
 مَا يُبَالِي إِذَا الضَّرِيْبَةُ كَاتَ .: أَشِمَالُ سَطَّتْ بِهِ أَمْ يَمِينُ<sup>(١)</sup>  
 حَتَىٰ وَصَلَ الْأَمْرُ إِلَىٰ هَارُونَ الرَّشِيدِ وَجَدَنَا أَكْثَرَ مِنْ سَابِقِيهِ اهْتِمَامًا بِالْأَدْبُ ،  
 وَرِعَايَةً لَهُ ، وَجَبًا لِسَمَاعِهِ وَتَوْجِيهِهِ " قَالَ الرَّشِيدُ لِلْمَفْضُلِ الْضَّبِيِّ : أَنْشَدْنَا بَيْتًا  
 أَوْلَهُ أَعْرَابِيًّا فِي شَمْلَتِهِ ، هَبْ مِنْ نُومَتِهِ ، وَآخِرَهُ مَدْنِي رَقِيقٌ غُدُّي بِمَاءِ الْعَقِيقِ .  
 قَالَ الْمَفْضُلُ : هَوْلَتْ عَلَىٰ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَيْتَ شِعْرِي بِأَيِّ مَهْرٍ تَفْتَضِ  
 عَرْوَسُ هَذَا الْخَدْرِ ؟ قَالَ هَارُونُ : هُوَ بَيْتُ جَمِيلٍ حَيْثُ يَقُولُ :  
 أَلَا أَيُّهَا النُّوَّامُ وَيَحْكُمُ هُبُوا .: أَسَأْلُكُمْ هَلْ يَقْتُلُ الرَّجُلُ الْحُبُّ<sup>\*</sup>  
 قَالَ لَهُ الْمَفْضُلُ : فَأَخْبَرْنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ بَيْتِ أَوْلَهُ ( أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِي ) فِي  
 إِصَابَةِ الرَّأْيِ ، وَآخِرَهُ ( بُقْرَاطُ ) الطَّبِيبُ فِي مَعْرِفَتِهِ بِالْدَّاءِ وَالدَّوَاءِ ، قَالَ لَهُ  
 هَارُونُ : مَا هُوَ ؟ قَالَ : هُوَ بَيْتُ الْحَسَنِ بْنِ هَانَىٰ حَيْثُ يَقُولُ :  
 دَعْ عَنْكَ لَوْمِيْ فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ .: وَدَاؤِنِيْ بِالْتَّىٰ كَاتَ هِيَ الدَّاءُ  
 قَالَ : صَدِقْتَ " <sup>(٢)</sup> :

وَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ صَاحِبُ تَارِيخِ الرَّسُلِ وَالْمُلُوكِ قَالَ : " دَخَلَ أَعْرَابِيًّا فِي  
 جَبَةِ خَزَرِ ، وَرَدَاءِ يَمَانِ ، قَدْ شَدَ وَسْطَهُ ثُمَّ تَنَاهَ عَلَىٰ عَاتِقِهِ ، وَعَمَّامَةٌ قَدْ عَصَبَهَا  
 عَلَىٰ خَدِيهِ وَأَرْخَى لَهَا عَذْبَةً ، فَمَتَّ بَيْنَ يَدَيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأُلْقِيَتِ الْكَرَاسِيِّ ،  
 فَجَلَسَ الْكَسَائِيُّ وَالْمَفْضُلُ وَابْنُ سَلَمٍ وَالْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ ، فَقَالَ ابْنُ سَلَمٍ لِلْأَعْرَابِيِّ :  
 خَذْ فِي شَرْفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَاندَفَعَ الْأَعْرَابِيُّ فِي شِعْرِهِ ، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ :  
 أَسْمَعْكَ مُسْتَحْسَنًا ، وَأَنْكِرْكَ مُتَهَمًا عَلَيْكَ فَإِنْ يَكُنْ هَذَا الشِّعْرُ لَكَ وَأَنْتَ قَاتِلُهُ مِنْ

(١) المسعودي ( أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ) ط ٣ ، مطبعة السعادة بمصر ، سنة ١٩٥٨ م ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ٣ / ٣٤٥ .

\* جمیل بثینة ، دیوان ، بیروت ، دار صادر ، سنه ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م ، تقدیم / بطرس البستانی ، ص ١٦ .

(٢) ابن عبد ربه ( عمر جمال الدين يوسف بن عمر ) العقد الفريد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنه ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م ، ضبطه وعنون موضوعاته ورتب فهرسه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإلباري ، ٥ / ٣٢٨ .

نفسك ، فقل لنا في هذين بيتين ، يعني محمداً والمأمون - وهم حفافاه - فقال : يا أمير المؤمنين حملتني على القدر في غير الحذر روعة الخلافة ، وبهر البديهة ، ونفور القوافي عند الروية ، فيمهلني أمير المؤمنين ، يتآلف إلى نافراتها ، ويسكن روعي ، قال : قد أمهلتاك يا أعرابي وجعلت اعتذارك بدلاً من امتحانك ، فقال :

يأمير المؤمنين نقشتَ الخناق ، وسَهَّلتَ ميدان النفاق ، ثم أنسد يقول :

**هُمَا طُبَابَاهَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهِمَا . . وَأَنْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَمُودُهَا  
بَنِيَّتْ بَعْدَ اللَّهِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ . . دُرِّي قَبَّةُ الْإِسْلَامِ فَاهْتَرَّ عُودُهَا**

قال : وأنت يا أعرابي بارك الله فيك ، فسلنا ولا تكن مسألتك دون إحسانك ، قال الهنيدة\* يا أمير المؤمنين ، قال : فتبسم أمير المؤمنين وأمر له بمائة ألف دهم وسبع خلع " (١) .

فإذا كنا نرى أن ثقافة هؤلاء الحكام لم تكن دون ثقافة المتخصصين في علوم اللغة والأدب إلا بقدر يسير ، فما بالنا إذا كانت المجالس الأدبية التي ينشد فيها كل شاعر ما جاءت به قريحته أمام الخليفة أو الوزير قد ضمت معهم علماء من أهل اللغة والأدب ، فطبعيًّا أن ينعكس ذلك ولا بد على الأدب نفسه إنقاًداً وتجويداً لاشك في ذلك ، فهذا المجلس الذي ضم الكسائي والفضل وغيرهم ، لا بد أن يجعل الشاعر واعياً أشد الوعي لتحسين بضاعته وتجويدها ، لا يقول إلا ما يتحقق مع الصحة اللغوية والأدبية والبلاغية ، من أجل ذلك وجدة الشاعر يطلب من الخليفة ضرورة التروي حتى يمرر ما سيقوله على عقله ولو للحظات ، وفي كثير من الأحيان كان الخليفة يطلب من أحد الشعراء أن يسمعه شعراً بعينه ، كشعر لم يُقل فيه ، أو قاله شاعرٌ من الشعراء وأعجب به الحكام ، أو يطلب مطلباً شعرياً بعينه من الشعراء ومن عرفه منهم أجازه ، فعن مروان بن أبي حفصة قال : " قال لي الرشيد يوماً : هل دخلت على الوليد بن يزيد ؟ فقلت : نعم ، دخلت مع عمومتي إليه . قال : فأخبرني عنه ، قال : فذهبت أتزحزح . فقال

\* الهنيدة للملة ، المعجم الوسيط ، مادة هند .

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، ط دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ م ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٨ / ٣٦٣ .

لي: إن أمير المؤمنين لا يكره ما تقول ، فقل ما شئت فقلت : يا أمير المؤمنين ، كان من أجمل الناس ، وأشدهم وأشعرهم وأجودهم .. إلخ ، قال لي الرشيد : فهل تحفظ شيئاً من شعره ؟ قلت : نعم سمعته ينشد في خلافته ذكر هشاماً وتحامله عليه :

**لَيْتَ هِشَامًا عَاشَ حَتَّى يَرَى .. مِكْتَأَةُ الْأَوْفَرِ قَدْ أَثْرَعَ  
كِلَّا لَهُ الصَّاعَ التِّي كَلَّاهَا .. وَمَا اظْلَمْنَاهُ بِهَا أَصْوَاعًا  
وَمَا أَثْيَنَا ذَاكَ عَنْ بَدْعَةٍ .. أَحَلَّهُ الْفُرْقَانُ لِيْ أَجْمَعًا**

قال الرشيد : يا غلام ، الدواة والقرطاس ، فأتى بهما ، فأمر بالأبيات فكتبت<sup>(١)</sup> .

ومن ذلك ما يروى " عن كوثر خادم المخلوع - أي الأمين - أن مهداً أرق ذات ليلة ، وهو في حربه مع طاهر ، فطلب من يسامره فلم يقرب إليه أحد من حاشيته ، فدعا حاجبه فقال : ويلك ! قد خطرت بقلبي خطرات فأحضرني شاعراً ظريفاً أقطع به بقية ليلتي . فأتاه بأبي نواس ، فقال الأمين له : إنه عرضت بقلبي أمثال أحببت أن تجعلها في شعر ، فإن فعلت ذلك أجزت حكمك فيما تطلب ، فقال : وما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال : قولهم : عفا الله عما سلف ، وبئس والله ما جرى فرسي ، واكسرني عوداً على أنفك ، وتنуни أشهى لك . قال حكمي أربع وصائف مقدودات ، فأمر بإحضارهن ، فقال :

**فَقَدْ دَتْ طُولَ اعْتِلَائِكِ .. وَمَا أَرَى فِي مِطَالِئِ  
لَقَدْ أَرَدْتِ جَفَائِي .. وَقَدْ أَرَدْتُ وَصَالَكِ  
مَادِاً أَرَدْتِ بِهِ ذَا .. تَمَّعَنَّي أَشْهَى لِكِ**

وأخذ بيده وصيفة فعزلها ، ثم قال :

**قَدْ صَحَّتِ الْأَيْمَانُ مِنْ حَلْفِكِ .. وَصَحَّتْ حَتَّى مَتْ مِنْ خَلْفِكِ  
بِاللهِ يَا سَتَّ احْتَيْ مَرَّةً .. ثُمَّ اكْسِرِي عُودًا عَلَى أَنْفِكِ**

ثم عزل الثانية ، ثم قال :

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهرس بإشراف وتحقيق : إبراهيم الأبياري ، ٣٥٤٥/١٠ .

فَدِينُكِ مَاذَا الصَّلَافُ .. وَشَتْمُكِ أهْلَ الشَّرَفُ !  
 صِلِي عَاشِقًا مُّدْنَافًا .. قَدْ اعْتَبْ مِمَّا اقْتَرَفَ  
 وَلَا تَذْكُرِي مَا مَضَى .. عَفَّا اللَّهُ عَمَّا سَأَلَ

ثم عزل الثانية ، فقال :

وَبَاعِثَاتِ إِلَى فِي الْغَاسِ .. أَنْ ائْتَا وَاحْتَرَسْ مِنْ الْعَسَسِ  
 حَتَّى إِذَا نُوَمَ الْعُدَادُ وَلَمْ .. أَخْشَ رَقِيبًا وَلَا سَانَاقِبَسِ  
 رَكِبُ مَهْرِي وَقَدْ طَرَبْتُ إِلَيِ .. حُورَ حِسَانَ نَوَاعِمَ لَعَسِ  
 فَجَئْتُ وَالصُّبْحُ قَدْ نُهَضْتُ لَهِ .. فَبَئْسَ وَاللَّهِ مَا جَرَى فَرِسِي  
 قال له : خذهن لا بارك الله لك فيهن " (١) .

وقد كان المأمون عالم هذه الدولة ، لم يقتصر في تبحره على علم واحد ، وإنما كان موسوعة علمية أدبية فقهية بلاغية ، لم ينقصه عن مرتبة العلماء شيء ، زين مجلسه بالعلماء والأدباء ، ومسامراته بالشعر ومحالسه كل مجي العلم ، ولم يكن مجلسه الأدبي إلا سوقاً كبيرة يروج فيها الشعر ، " قال اليزيدي : قال المأمون يوماً في مجلسه وعنه جماعة من قريش : أياكم يحفظ أبيات عبد الله بن الزبوري التي يعتذر فيها إلى رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، قال مصعب بن عبد الله الزبوري : أنا يا أمير المؤمنين ، قال فأنشدنا ، فأنشد :

مَنْعَ الرُّقَادَ بِلَابَلٍ وَهُمُومٌ .. وَاللَّيْلُ مُغْتَلِجُ الرُّوَاقِ بَهِيمٌ  
 مِمَّا أَتَانِي أَنَّ أَحْمَدَ لَامِنِي .. فِيهِ فِتْ كَأَنِّي مَحْمُومٌ  
 يَا خَيْرَ مَنْ حَمَلتُ عَلَى أَوْصَالِهَا .. عَيْرَانَةَ سَرْحُ الْيَدَيْنِ رَسُومٌ  
 إِلَى آخر القصيدة ، فأمر المأمون لمصعب بثلاثين ألف درهم وقال : ليكن  
 الْقُرْشَيُّ مَثَلَكَ " (٢) .

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٨ / ٥٢٠ .

(٢) ابن طيفور ( أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر ) ، كتاب بغداد ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، نشر عزت العطار الحسيني ، تحقيق محمد زايد الكوثري ، ص ٥٣ .

" قال محمد بن الجهم : دعاني المأمون فقال : أنشدني بيت مدح نادر ،  
فأنشته :

**يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا . . وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةَ الْجُودِ**

قال : وليتك همدان ، فأنشدني بيت هجاء نادرًا فأنشته :

**قُبَحَتْ مَنَا ظِرْهُ فَحِينَ خَبَرْتُهُ . . حَسُنَتْ مَنَاظِرُهُ لِقُبْحِ الْمَخْبَرِ**

قال : قد وليتك الدّينور ، فأنشدني بيت مرثية نادرًا فأنشته :

**أَرَادُوا لِيُخْفِوْا قَبْرَهُ عَنْ عَدُوِّهِ . . فَطَيِّبُ تُرَابُ الْقَبْرِ دَلٌّ عَلَى الْقَبْرِ**

قال : قد وليتك نهاوند ، فأنشدني بيت غزل فأنشته :

**حِبٌّ مُجَدٌ وَحَبِيبٌ يَلْعَبُ . . وَالْقَلْبُ مَا بَيْنَهُمَا يَذْهَبُ**<sup>(١)</sup>

وكان لبعض الشعراء مواعيد محددة يذهبون فيها إلى قصر الحاكم من أجل إنشاد الشعر ، سواء أنشدوا أم لم ينشدوا ، فحسين بن الصحاك يقول " كانت لي نوبة في دار الواقع أحضرها جلس أو لم يجلس "<sup>(٢)</sup>.

- أما عن الموضوعات التي كانت موضع اهتمام الشعراء ، فقد كان المدح أولها بطبيعة الحال على في المجلس مادحًا وممدوحًا ، ولكن المدح لم يستول على هذه الجلسات بمفرده ، وإنما وجد غيره من أغراض الشعر ، من رثاء ، أو غزل أو هجاء إلى غير ذلك من الفنون .

ولم يكن لشخصية الحاكم - خليفة كان أو غير خليفة - دوره الهام في توجيه هذه المجالس الوجهة الصحيحة فقط ، بل كان يغوص في مواضيع الساعة ، واهتمامات المثقفين ، ويبقى الرشيد وولده المأمون منارتين مشعتين في هذا المجال .

- ولم تقتصر هذه المجالس على الخلفاء فقط ، وإنما شاركهم فيها الوزراء وكبار القادة ، ولا يزال التاريخ يسرد لنا الحكايات الطويلة عن مجالس البرامكة وما قدمته من خدمات لا تذكر للعلم والأدب ، وفي شهرة مجالسهم عوض عن ذكر

(١) ابن الجوزي ، المنظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعه درا الفكر العربي ، ٦ / ٧٤ .

(٢) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ( ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م ) طبعة كاملة معها فهرس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٧ / ٢٦٠١ .

شيء منها ، فقد كانوا حركة أدبية تستحق الدراسة والبحث إن لم تكن قد درست بالفعل .

- وكان لكثير من كبار القادة مجالس أدبية ، ويرعون الشعراء ، من ذلك ما يرويه أحمد بن يوسف عن أحد الأدباء حين ذهب إلى (أبي دلف) ينشده الشعر ، فإذا بعض من حضر ينكر على أبي دلف اهتمامه به وحد به عليه فقال له أبو دلف: "إنه أديب ، وإنه شاعر" <sup>(١)</sup>

قدمت إذن هذه المجالس التي كان الحكم من بنى العباس يرعونها أيامياً سخية للأدب والشعر ، وساعدت في تطويره وتشجيعه ، ووجهته ، وتركت فيه أثراً بيناً، لن تكون مبالغين حين نعترف لهم بالفضل على الأدب وعلى الأدباء ، بل إن ذلك حقهم ، ولنا أن نتخيل مجتمعاً كهذا ، قد لا يمر يوم إلا وتعقد جلسة أدبية ل الخليفة أو لوزير ، فإن لم تكن لوزير فلقائد أو قريب من القصر العباسي ، وكأنني بهذا المجتمع الحاكم انشغل بالأدب بشكل كبير حتى جعل له الكثير من الوقت ، والكثير من الاهتمام ، والكثير من الجهد.

وتحتسب أن ترجع شيئاً كثيراً من الدور لحكام بنى العباس في هذا الكم الهائل من الشعر والأدب ، الذي أنشده الشعراء داخل قصور الحكم ، ومن الملاحظات التي يجب عدم إغفالها أن الجزء الأكبر من الشعراء ذوي المواهب المتميزة في هذا العصر كان معظم شعرهم يدور في فلك خليفة أو وزير أو أمير ، وقد اشتهرت مجموعة من الشعراء بالدعوة العباسية كأبي ذلامة ، ومروان بن أبي حفصة ، وسلم الخاسر ، ومجموعة أخرى بالوزراء والولاة والقواد كأبي الشيس ، وعبد الله بن أبي التميمي ، وعلي بن جبلة العكوك ، والخرمي ، هذا بجانب أعلام الشعراء ودور انهم في فلك الحكم كبشر ، وأبي نواس ، وأبي العناية ، وسلم بن الوليد ، وأبي تمام ، وابتعد كثيراً من الشعراء عن الشهرة ، مثل نصيب الأصغر ، وأبي شراعة ، وأبي الأسد وغيرهم ، وهم من شعراء هذا العصر ، ولم يكن السبب المباشر لعدم شهرتهم إلا ابتعادهم عن الدوران في فلك الحكم .

---

(١) ابن طفور (أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر) ، كتاب بغداد ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، نشر عزت العطار الحسين ، تحقيق / محمد زايد الكوثري ، ص ١٣٢ .

## بـ- نقدهم للشعر والشعراء :

لم تكن هذه الثقافة العالية التي عرفت بها شخصيات الخلفاء والوزراء والقادات في دولة بنى العباس سلبية تجاه مسيرة الأدب وألسنة الأدباء ، وإنما وجدناه تترك أثاراً واضحة ملموسة في الحركة الأدبية في هذا العصر .

فلم تكن القصائد التي يمدحون بها أو يسمعونها تمر عليهم مروراً عابراً كما تمر على عامة الناس ، ولكنها كانت تجد آذاناً نقدية تقدر البيان الرفيع المكتمل للنواحي الفنية ، بالرضى والقبول والعطاء بغير حساب ، وفي نفس الوقت كانت تقف أمام الأخطاء الشكلية والمعنوية موقف الناقد البصير ، الذي يقوم من الأدب ما يحتاج إلى تقويم ، وينقد منه ما يحتاج إلى نقد ، وإن كان الدرس الموضوعي يقتضينا أن نعترف أن الحكم كان لهم ذوقهم الخاص الذي أملأ عليهم قبول معانٍ معينة ، ورفض معانٍ أخرى ، فقد كان الشعر الذي ينشد للخلفاء على ضربين ، فمنه ما يصل ب مدحهم أو مدح غيرهم ، وفي هذا يهتم السامع بالمعانٍ وموازنتها بما قيل في غيره ، أما إذا كانت الأغراض الأخرى من وصفِ أو غزلِ أو هجاء أو رثاء أو حكمةٍ أو فضيلةٍ ، فإن النظر النقدي الفني للنص باعتباره شرعاً هو الغالب على ذوق الخلفاء وغيرهم ، فقد كانوا طلاب معانٍ جيدة في مبانٍ فنية ، وقد يكون في بعض الأحيان نقدهم غير متعلق بالجودة الفنية بقدر ما هو متعلق بالمعانٍ التي يعبر عنها الأدب ، فنحن أمام نقد فني يتدخل في صياغة الأدب صياغة فنية ترضي الناقد المتمرّس ، الفاهم لفطنه لما يجب أن يكون عليه الأدب العالي الجودة ، أو في بعض الأحيان نجده نقداً يتعلق بأذواق الحكمائهم ، وما يطلبونه لجلالة الخلافة من المعانٍ ، أو معانٍ قيلت في غيرهم يتمونها لأنفسهم ، أو ينتقدون معانٍي كان لها مساس بالدين ، قالها الشعراء تزلاقاً للحكماء ، ظناً منهم أنهم يطلبون الرضا بالخوض في الحرام ، وفيما يغضب ربهم ، وفي بعض الأحيان كان لهم نقدٌ لغوٌ يتعلّق بالأخطاء النحوية واللغوية الواضحة ، والتي يمكن لأي متّفقٍ نقادها ، وفي كل الأحوال قد كان لهذا النقد دورٌ في توجيه الأدب ، وتقويمه ، وجودة صياغته ، وكان له انعكاساته على الأدباء والمتّفقين والفنانين بشكل أو بآخر .

ومن الأمور الجديرة باللحظة أن الخلفاء كانوا يغرون أشد الغيرة من شعر جيد قيل في غيرهم ، يعاتبون الشعراء عليه ، بل ويوبخونهم ، وقد تصل المسألة إلى أكثر من ذلك خاصة إذا كان المدح قد أصاب عظمة الخليفة بطريقة غير مباشرة لم يقصدها الشاعر في كثير من الأحيان .

#### ١ - النقد الفني :

فإذا نظرنا إلى نقد الحكم الفني ، الذي يتعلق بجودة الصياغة ، الرونق الفني العالي؛ وجدنا المأمون - خاصة - يمتلك حاسة فنية عالية ، فهذا على بن جَبَلَةُ يقول " قلت ( لِحُمَيْدٍ بْنَ عَبْدِ الْحَمِيدِ الطُّوْسِيِّ ) : يَا أَبَا غَانِمَ ، إِنِّي قَدْ مَدَحْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَدْحٍ لَا يَحْسُنُ مِثْلَهُ أَحَدٌ مِّنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَادْكُرْنِي لِهِ : قَالَ : فَأَنْشَدْنِي ، فَأَنْشَدْتَهُ قَالَ : أَشْهَدُ أَنَّكَ صَادِقٌ ، مَا يَحْسُنُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ هَذَا ، وَأَخَذَ الْمَدْحِيْحَ فَأَدْخَلَهُ إِلَى الْمَأْمُونَ ، فَقَالَ لِهِ : يَا حُمَيْدَ ، الْجَوابُ فِي هَذَا وَاضْحَى ، إِنْ شَاءَ عَفَوْنَا عَنْهُ وَجَعَلْنَا ذَلِكَ ثَوَابًا لِمَدِحِهِ ، وَإِنْ شَاءَ جَمَعْنَا بَيْنَ شِعْرِهِ فِيْكَ وَفِيْ أَبْنِي دَلْفَ ، وَبَيْنَ شِعْرِهِ فِيْنَا ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي قَالَهُ فِيْكَمَا أَجْوَدُ ، ضَرَبْنَا ظَهْرَهُ وَاطَّلَنَا حَبْسَهُ ، وَإِنْ كَانَ الَّذِي فِيْنَا أَجْوَدُ ، أَعْطَيْنَاهُ لَكَ بَيْتَ أَلْفِ دَرْهَمٍ ، وَإِنْ شَاءَ أَفْنَاهُ ؛ فَقَلَتْ لِهِ : يَا سَيِّدِي ، وَمَنْ أَنَا ، وَمَنْ أَبُو دَلْفَ حَتَّى يَمْدُحَنَا بِأَجْوَدِ مِنْ مَدِحِكَ ؛ فَقَالَ : لَيْسَ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ الْجَوابِ فِيْ شَيْءٍ ، فَأَعْرَضْ مَا قَلَتْ لَكَ عَلَى الرَّجُلِ ؛ فَقَالَ : أَفْعُلُ ، قَالَ عَلَى بْنَ جَبَلَةَ : فَقَالَ لِي حُمَيْدٌ : مَا تَرَى ؟ فَقَلَتِ الإِقَالَةُ أَحَبُّ إِلَيَّ ؛ فَأَخْبَرَ الْمَأْمُونَ بِذَلِكَ ؛ فَقَالَ : هُوَ أَعْلَمُ " (١) .

فالمامون والشاعر في هذا الخبر اشتراكاً في مراعاة الجودة الفنية في الشعر الذي قيل في القائدين حُمَيْدٍ بْنَ عَبْدِ الْحَمِيدِ وَأَبِي دَلْفَ ، وَعِلْمًا مَعًا أَنَّهُ أَقْوَى وَأَمْنَنَ مِنَ الشِّعْرِ الَّذِي قيل في الخليفة ، وهذا المأمون أَيْضًا " دَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو الْعَتَاهِيَةَ فَأَنْشَدَهُ : مَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالَهَا .. إِذَا أَطَّاعَ اللَّهَ مَنْ نَالَهَا مَنْ لَمْ يُوَاسِ النَّاسَ مِنْ فَضْلِهَا .. عَرَضَ لِلإِذْبَارِ إِقْبَالَهَا

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهرس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٢٢ / ٧٦٥٣ .

قال له المأمون : ما أجد البيت الأول ، فاما الثاني فما صنعت فيه شيئاً ، الدنيا تدبر عنك واسى منها أو ضَنَ بها ، وإنما يوجب السماحة بها الأجر ، والضن بها الوزر ، قال : صدقت يا أمير المؤمنين ، أهل الفضل أولى بالفضل ، وأهل النقص أولى بالنقص ، قال المأمون : ادفع له عشرة آلاف درهم لاعترافه بالحق ، فلما كان بعد أيام عاد فأنسده :

كَمْ غَافِلٌ أُودِي بِهِ الْمَوْتُ .. لَمْ يَأْخُذِ الْأَهْبَةَ لِلْفَوْتِ  
مَنْ لَمْ تَزُلْ نِعْمَتُهُ قَبْلَهُ .. زَالَ عَنِ النِّعْمَةِ بِالْمَوْتِ

قال له : أحسنت <sup>(١)</sup> . فالmAمون يستحسن صياغة أحد البيتين وينتقد الآخر نقداً فييناً يتعلق بالمعنى وإحكامه ، ثم إذا تمكن الشاعر من أدواته بعد ذلك أثني على شعره ووصله ، ومما يروى: "أن (الحسين بن مطير) وفد على (معن بن زائدة)، لما ولـيـ الـيـمـنـ وـقـدـ مدـحـهـ ، فـلـمـ دـخـلـ عـلـيـهـ أـنـشـدـهـ :

أَتَيْتُكَ إِذْ لَمْ يَئِقَ غَيْرَكَ جَابِرٌ .. وَلَا وَاهِبٌ يُعْطِي اللَّهَا وَالرَّغَائِبَا

قال له معن : يا أخابني أسد ليس هذا مدح ، إنما المدح قول نهار بن توسعه <sup>(٢)</sup> .  
أخيبني تميم بن ثعلبة ، مسمع بن مالك :

قَلَّدَتْهُ عُرَى الْأَمْوَرْ نَزَارٌ .. قَبْلَ أَنْ يَهْلِكَ السَّرَّاءُ الْبُحُورُ <sup>(٣)</sup>

فقد يكون النقد متمثلاً في الإحساس بالصياغة الفنية العالية ، وجودة الفن ، فلم يكون اعتراف الخليفة أو الحاكم بجودة سبك الشعر ، إلا صورة من صور النقد ، تتمثل في الاعتراف بفنيته وجودته .

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهرس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٤ / ١٢٦٧ .

(٢) \* نهار بن توسيعـةـ بنـ أبيـ عـتبـانـ ، منـ بـنـ بـكـرـ بنـ وـائلـ .ـ شـاعـرـ بـكـرـ فيـ خـراسـانـ ،ـ كـانـ هـجـاءـ هـجاـ قـتـيبةـ بـنـ مـسـلـمـ ،ـ فـطـلـبـهـ ،ـ فـهـرـبـ وـاسـتـجـارـ بـأـمـ قـتـيبةـ فـتـرـضـتـ لـهـ اـبـنـهـ فـرـضـيـ عـنـهـ وـأـكـرـمـهـ ،ـ لـهـ أـبـيـاتـ فـيـ رـثـاءـ المـهـلـبـ بـنـ أـبـيـ صـفـرةـ الـمـتـوـفـيـ ٨٣ـ هـ ،ـ قـالـ الـآـمـدـيـ :ـ لـهـ (ـبـيـوانـ)ـ مـفـرـدـ ،ـ وـهـ كـثـيرـ الـجـيدـ وـكـانـ أـبـوـهـ توـسـعـهـ مـنـ شـعـرـاءـ بـكـرـ بـنـ وـائلـ أـيـضاـ .ـ يـنـظـرـ :ـ خـيرـ الـدـينـ الزـرـكـلـيـ ،ـ الـإـلـاعـامـ ،ـ طـ ١٠ـ ،ـ بـيـرـوـتـ ،ـ دـارـ الـعـلـمـ للـمـلـاـيـنـ ،ـ مـؤـسـسـةـ ثـقـافـيـةـ لـتـالـيـفـ وـالـتـرـجـمـةـ وـالـنـشـرـ ،ـ سـنـةـ ١٩٩٢ـ .ـ ٤٩ـ /ـ ٨ـ .ـ

(٣) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهرس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ١٦ / ٥٧٨٠ .

"فأحمد بن يوسف الكاتب يقول : كنت أنا وعبد الله بن طاهر عند المأمون ، وهو مستلق على قفاه ، فقال لعبد الله بن طاهر : يا أبا العباس ، من أشعر الناس في خلافةبني هاشم ؟ فقال : أمير المؤمنين أعلى عيناً وأعرف بهذا ؟ فقال : على ذاك فقل ، وتكلم أنت أيضاً يا أحمد بن يوسف ؟ فقال عبد الله بن طاهر : أشعرهم الذي يقول :

**وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كُنْتَ أَوَّلَ حُفْرَةٍ .: مِنَ الْأَرْضِ خُطِّتْ لِلسَّمَاحَةِ مَوْضِعًا**  
قال : قلت بل أشعرهم الذي يقول :  
**أَشْبَهْتُ أَعْدَائِيْ فَصَبَرْتُ أَحِبْهُمْ .: إِذْ كَانَ حَظِّيْ مِنْكَ حَظِّيْ مِنْهُمْ**  
قال المأمون : يا أحمد ، أبيت إلا غزلا ، أين أنت عن الذي يقول :  
**يَا شَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكْمٍ .: نِمْتَ عَنْ لِيْلَى وَلَمْ أَنْمِ**  
فقلنا : صدقت يا أمير المؤمنين " <sup>(١)</sup> .

فالmAمون لا يفضل إلا ما أحكمت صياغته وحسنـت ديباجـته وقوـى نظامـه .  
ومن ذلك - أيضاً - أن الحسن بن ر جاء لما امتحـنه أبو تمام بقصـيدـته التي  
يقول فيها :

**لَا تُنْكِرِيْ عَطَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغَىِ .: فَالسَّيْلُ حَرْبُ الْمَكَانِ الْعَالِيِّ**  
قام الحسن بن ر جاء على رجليـه ، وقال : والله لا أتمـتها إلا وأنا قـائم <sup>(٢)</sup> .  
فـكما كانوا يـنقدـون رـكيـكـ الشـعـرـ ويـلاحـظـونـ الضـعـفـ الفـنيـ فيهـ ، فـقدـ كانواـ أيضـاـ  
وـفيـ المـقـابـلـ يـعـرـفـونـ جـيـدـهـ وـمـحـكـمـهـ ، وـيـتـمـعـونـ بـهـ ، وـيـقـدـرـونـهـ حقـ قـدرـهـ .

## ٢ - نـقـدـ المعـانـيـ :

كـماـ كانواـ يـنـقـدـونـ جـيـدـ النـظـمـ منـ رـديـئـهـ ، فـقدـ كانواـ يـنـقـدـونـ المعـانـيـ التـيـ  
يـرـونـ فـيـهاـ ضـعـفـاـ مـعـنـيـاـ لـاـ يـسـتوـيـ وـأـذـواـقـهـ الـفـنـيـ الـخـاصـةـ " دـخـلـ بنـ هـرـمـةـ عـلـىـ

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م ، طبعة كاملـةـ معـهاـ فـهـارـسـ بـإـشـرافـ وـتـحـقـيقـ / إـبرـاهـيمـ الإـبـارـيـ ، ٣ / ٩٨٧٣ .

(٢) نفسه : ٦٢٤١ / ١٧ .

المنصور وقال : يا أمير المؤمنين ، إني قد مدحتك مدحًا لم يمدح أحد أحداً بمثله ؛ قال : وما عسى أن تقول فيَ بعد قول كَعْبُ الأشْقَرِيُّ<sup>(١)</sup> في المُهَلَّبِ :

**بَرَاكَ اللَّهُ حِينَ بَرَاكَ بَحْرًا . . وَجَرَ مِنْكَ أَنْهَارًا غِزَارًا**

قال له : قد قلت أحسن من هذا ؛ قال : هات ، فأنشده قوله :

**لَهُ لَحَظَاتٌ عَنْ حَافَى سَرِيرِهِ . . إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَتَائِلٌ**

قال : فأمر له بأربعة آلاف درهم . قال له المهدى : يا أمير المؤمنين ، قد تكلف في سفره إليك نحوها ؛ فقال له المنصور : يابني ، إني قد وهبت له ما هو أعظم من ذلك ، وهبت له نفسه ، أليس هو القائل لعبد الواحد بن سليمان :

**إِذَا قِيلَ مَنْ خَيْرٌ مَنْ يُرْجَى . . لِمُغْتَرٍ فَهُرْ وَمُحْتَاجٍ هَا**

**وَمَنْ يُعْجِلُ الْخَيْلَ يَوْمَ الْوَغْيِ . . بِالْجَامِهَا قَبْلَ اسْرَاجِهَا**

**أَشَارَتْ نِسَاءُ بَنِيْ غَالِبٍ . . إِلَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَزْوَاجِهَا<sup>(٢)</sup>**

ويظهر أن المنصور لم ير في أبيات بن هرمة ما يناسبه من المدح ، وفضل عليها قوله في عبد الواحد بن سليمان ، ويُفهم من ذلك أن له ذوقه الخاص الذي يجعله يقبل معاني ويرفض آخر ، وقد كانت هذه عند معظم خلفاءبني العباس إن لم يكونوا جميعاً مشتركين فيها .

فقد " ذكر عن عماره بن عقيل"<sup>(٣)</sup> ، أنه قال : قال لي ( عبد الله بن أبي السّمط ) :

(١) \* كعب بن معدان الأشقرى ، أبو مالك . فارس ، شاعر ، خطيب من شعراء خراسان ، كان معدوداً في جلة أصحاب المهلب بن أبي صفرة ، المذكورين في حروب الأزراقة . وهو من (الأشقر) من قبائل الأرزد ، له خبر مع (الحجاج) أورده القالى فى (الآمالى) وقد سأله الحجاج : أشعار أنت أم خطيب؟ فقال كلاهما وله قصيدة طويلة يذكر بها يوم (رامهرمز) وغيره ثوفى ٨٠ هـ ، رواها الطبرى . ينظر : خير الدين الزركلى ، الإعلام ، ط ١٠ ، بيروت ، دار العلم للملاتين ، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٩٢ . ٢٢٩/٥ .

(٢) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهانى ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهرس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٢١٩١/٥ .

(٣) \* عماره بن عقيل ، ١٨٢ - ٢٣٩ هـ / ٨٥٣ - ٧٩٨ م . بن بلال بن جرير بن عطية بن الخطفي الكلبي اليربوعي التميمي . شاعر مقدم فصيح من أهل اليمامة ، كان يسكن بادية البصرة ويزور الخلفاء

علمت أن المؤمن لا يبصر الشعر ، قال : قلت : ومن ذا يكون أعلم منه !  
 فوالله إنك لترانا ننشدك أول البيت فيسبقنا إلى آخره ، قال : أنشدته بيتاً أجدت فيه  
 فلم أره تحرك له ، قال : قلت : وما الذي أنشدته ؟ قال أنشدته :  
**اضحى إمام الهدى المؤمن مُشتغلاً بـ: بالدين والناس بالدنيا مشاغل**  
 قال : قلت له : إنك والله ما صنعت شيئاً ، هل زدت على أن جعلته عجوزاً في  
 محاربها ، في يدها سبحتها ! فمن القائم بأمر الدنيا إذا تشغل عنها ، وهو المطوق  
 بها ! هلا قلت فيه كما قال عمك جرير في عبد العزيز بن الوليد :  
**فلا هو في الدنيا مضيق نصيحة بـ: ولا عرض الدنيا عن الدين شاغل**  
 فقال : الآن علمت أنني قد أخطأت " (١) .

فذوق المؤمن لفظ هذا المدح ، لأنه ذوق من لا يصدق لكل شاعر ، أو لأي  
 المعاني ، ولكنه يمتلك ذوقاً يجب أن يتوافق معه القول ، وإلا لم يجد القبول ، ولم  
 يلق الاستحسان ، وعلى كل شاعر أن يبحث عن ذوق ممدوحه قبل أن يدخل عليه  
 بشعراً لا يرضاه ، بل قد يعاقبه عليه أشد العقاب .

ولم يكن الخلفاء يقبلون أن يمدح الوزراء والقواد مدحاً جيداً يفوق ما يمدحونه به  
 أو يعادله ، فقد " خرج المهدي يوماً ، فلقيه الحسين بن مطير " (٢) ، فأنشدته قوله :  
**أضحت يمينك من جود مصورة بـ: لا بل يمينك منها صور الجود**  
 فقال : كذبت يا فاسق ، وهل تركت من شعرك موضعًا لأحد ، بعد قولك  
 في معن :

منبني العباس فيجزلون صلته وبقى إلى أيام الواثق ، وعمى قبل موته ، وهو من أحفاد جرير الشاعر ، =  
 = وكان النحويون في البصرة يأخذون اللغة عنه ، توفي ٢٣٩ هـ . ينظر : خير الدين الزركلي ، الإعلام ،  
 ط ١٠ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، مؤسسة تقافية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٩٢ . ٣٧/٥ .

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، ط دار المعارف ، سنة  
 ١٩٦٦ م ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٨ / ٦٦٣ .

(٢) الحسين بن مطير الأستاذ ، ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م . الحسين بن مطير بن مكمل الأستاذ شاعر متقدم في  
 القيد والرجز ، من مخضري الدولتين الأموية والعباسية له أمدح في رجالهما وكان زيه وكلامه كزى أهل  
 الباذنة وكلامهم ت ١٦٩ هـ . ينظر : خير الدين الزركلي ، الإعلام ، ط ١٠ ، بيروت ، دار العلم للملايين  
 ، مؤسسة تقافية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٩٢ . ٢٦٠/٢ .

**أَلِمَّا بَمَعْنِ ثُمَّ قَوْلًا لِقَبْرِهِ .: سَقَتَ الْغَوَادِي مَرْبَعًا ثُمَّ مَرْبَعًا  
أَخْرَجَهُ عَنِي ، فَأَخْرَجَهُ " (١) .**

فال الخليفة ينتقد فيه هذه الإشادة بمعن بن زائدة ، ولا يقبل أن يمدح قائد بأقوى مما يمدح به الخليفة ، وقد ذكر الأصمسي قال : " بعث إلى الرشيد في وقت لم يكن من عادته أن يستد عيني في وقت مثله ، فلما ذهبت قال لي :  
ألا ترى الداعي بن الداعي ، اليهودي بن اليهودي ، عبد بنى حنيفة ، مروان بن أبي حفصة يقول لمعن بن زائدة ، وإنما هو عبد من عبيدهنا :  
**أَقْمَنَ سَا بِالْمَدِيْنَةِ إِذْ يَسْنَنَا .: مُقَامًا لَا نُرِيدُ بِهِ زَوْلًا  
وَقُنْنَا أَيْنَ نَذَهَبُ بَعْدَ مَعْنِ .: وَقَدْ ذَهَبَ النَّوَالُ فَلَا نَوَالًا  
وَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ لِمَعْنِ .: إِلَى أَنْ زَارَ حُفْرَتَهُ عِيَالًا**  
قال : إن النوال قد ذهب مع بقائنا ، فكيف يصنع بنا ، ولم يرض حتى جعلني وخاصة عيالاً لمعن ، والله لأفعلن ولأصنعن ، فقلت : يا أمير المؤمنين عبد من عبيدهك ، وأنت أولى بأدبه والعفو عنه ، فقال : على بمروان بن أبي حفصة ! فأدخل عليه ، فقال للسياط : فأخذ الخدم يضربونه " (٢) .

ولم تكن هذه الغيرة خاصة بالمهدي والرشيد ، وإنما عممت كل الخلفاء تقريباً ، يقفون وقفه شرسة في وجه كل شاعر يمدح قائد مدحاً يفوق مدح الخليفة ، أو يحتوي على تعليم يلزم ب بصورة ما :

" ولما بلغ المأمون قول على بن جبلة لأبي دلف :  
**كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ .: بَيْنَ بَادِيْهِ إِلَى حُضَرَه  
مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرُمَةً .: يَكْتَسِيْهَا يَسْوَمَ مُفْتَحَرَه**  
غضب من ذلك ، وقال : اطلبوه حيث كان ، فلما صار إليه ، قال له : يابن اللحاء ! أنت القائل في القاسم بن عيسى :

(١) أبو الفرج بن علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإيباري ، ١٦ / ٥٧٨٥ .

(٢) ابن وادوران ، تاريخ العباسين ، ط ١ ، بيروت ، طبعة دار الغرب الإسلامي ، سنة ١٩٨٨ م ، ١٤٠٨ هـ ، تحقيق المنجي الكعبي ، ص ١٣٦ .

كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ .: بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرَه  
 مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرُمَةً .: يَكْتُسِ يَهَا يَوْمَ مُفْتَحَرَه  
 جعلتنا من يستعيir المكارم منه ! قال له : يأمير المؤمنين ، أنت أهل بيت  
 لا يقاس بكم أحد ، لأن الله فضلكم على خلقه ، فغضب وقال : سلوا لسانه من  
 قفاه<sup>(١)</sup>.

وعلى هذه الصورة ، لم يكن هذا النقد متعلقاً بالجودة الفنية ، بقدر ما كانت  
 صلته بالمعاني التي يتناولها الشعراء في أشعارهم ، فقد كانت تستقر معانيها أذواق  
 الخلفاء أحياناً ، وتصطدم بها ، فيعاقب الشاعر على الفور ، وكان لهذا دوره ولا  
 شك في سهر الشعراء لمعرفة أذواق الحاكم وخاصة الخلفاء كما سنوضح ذلك فيما  
 بعد .

### ٣ - النقد الديني :

وفي بعض الأحيان كان رفض الخلفاء للشعر مصدره المساس بالدين ، فإذا  
 شعر الخليفة أن الشاعر خرج عن السلوك الديني المناسب ، كان له بالمرصاد ،  
 نادياً بصيراً ، لا يرضي أن يسمع منه ، أو يصغى إليه ، بل يهينه أمام الحاضرين  
 ، ويوبخه أشد توبیخ ، ويحرمه الصلة ويطرده من مجلسه .

"كان هارون الرشيد أمير المؤمنين يحتمل أن يمدح بما تمدح به الأنبياء فلا ينكر  
 ذلك ولا يرده ، حتى دخل عليه نفر من الشعراء فيهم رجل من ولد (زُهْير بن  
 أبي سُلْمَى ) ، فأفقرط في مدحه حتى قال فيه :

**فَكَانَهُ بَعْدَ الرَّسُولِ رَسُولٌ**

بغضب هارون ولم ينفع به أحد يومئذ وحرم ذلك الشاعر فلم يعطه شيئاً ، وأنشد  
 مَنْصُورُ النَّمَرِيُّ قصيدة مدحه بها ، وهجا آل على ، وتلهم ، فضجر هارون وقال  
 له : يا ابن اللخاء ، أتظن أنك تتقارب إلى بهجاء قوم أبوهم أبي ونسبهم نسيبي ،  
 وأصلهم وفرعهم أصلي وفرعي ؟ ! فقال : وما شهدنا إلا بما علمنا . فازداد

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ ، طبعة كاملة  
 معها فهارس بإشراف وتحقيق / تحقيق إبراهيم الإيباري ٧٦٧٤ / ٢٢ بتصريف يسير .

غضباً وأمر مسروراً الخادم ، فوجأ في عنقه ، وأخرج ، ثم وصل إليه يوماً آخر  
بعد ذلك فأنسده :

بَنِي حَسَنٍ وَرَهْطُ بْنِي حُسَيْنٍ .: عَلَيْكُمْ بِالسَّدَادِ مِنَ الْأَمْوَارِ  
فَقَدْ ذُقْتُمْ قِرَاعَ بْنِي أَبِيكُمْ .: غَدَاءَ الرَّوْعِ الْبَيْضِ الْذُكُورِ  
أَحِينَ شَفَوْكُمْ مِنْ كُلِّ وَتْرٍ .: وَضَمَوْكُمْ إِلَى كَنَفِ وَثِيرِ  
وَجَادُوكُمْ عَلَى ظَمَاءِ شَدِيدٍ .: سُقِيْتُمْ مِنْ نَوَالِهِمِ الْغَزِيرِ  
قال له : صدقت ، وإلا فعلى وعلى " (١) .

فلم يرض الرشيد أن يمدحه الشاعر بتشبيهه برسول - صلى الله عليه وسلم -  
وغصب غضاً شديداً من ذلك ، ولم يكن دافع ذلك إلا الغيرة على الدين ، وعدم  
الموافقة على تجاوزات الشعراء في هذا الجانب ، بل رفض المساس بآل بيته  
رسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، حرضاً منه على حرمة الدين ، وعدم السماح  
بالخوض فيه ، وأوضح من ذلك ما رواه الإمام الطبراني عن المؤمنون " ذكر أبو  
حشيشة محمد بن علي بن أمية بن عمرو قال كنا قدّام أمير المؤمنين المؤمنون  
بدمشق ، فغنى علويه :

بَرَئْتُ مِنِ الإِسْلَامِ إِنْ كَانَ ذَا الَّذِيْ .: أَتَاكِ بِهِ الْوَاشْوُنَ عَنِيْ كَمَا قَالُواْ  
قال : يا علويه ، لمن هذا الشعر ؟ فقال : للقاضي ، قال : أي قاض ويحك ؟  
قال : قاضي دمشق ، فقال : يا أبا إسحق ، أعزله ، قال : قد عزلته ، قال :  
فِي حُضَرِ السَّاعَةِ ، قال فَأَحْضَرَ شِيخَ مُخْضُوبَ قَصِيرَ ، فقال له المؤمنون : من  
تكون ، قال : فلان الفلانى قال : تقول الشعر ؟ قال : قد كنت أقوله ، فقال : يا  
علويه ، أنسدته الشعر فأنسده فقال : هذا الشعر لك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ،  
ونساوه طوالق ، وكل ما يملك في سبيل الله ، إن كان قد قال الشعر منذ ثلاثة  
سنة ، إلا في زهد أو معانبة صديق ، فقال : يا أبا إسحق ، أعزله ، مما كنت أولى  
رقب المسلمين من يبدأ في هزله بالبراءة من الإسلام ، ثم قال : يا علويه لا تقل  
برئت من الإسلام ولكن قل :

(١) نفسه : ٤٦٥٦ / ١٣ .

**حُرِّمْتُ مُنَايَةَ مِنْكِ إِنْ كَانَ الَّذِي .: أَتَاكِ بِهِ الْوَاسْوُنْ عَنِي كَمَا قَالُوا<sup>(١)</sup>**

فقد اصطدم على الفور كلام الشاعر بالبراءة من الإسلام من نفسية الخليقة المتدينة، التي نعلم أنها الشخصية الأولى في هذا الكون التي يجب عليها أن تذهب عن الدين ، وتقف بالمرصاد لمن يحاول المساس به ، فأمر بعزل صاحب الشعر من القضاء ، واستخدم حاسته الفنية في إصلاح الشعر وتقويمه ليتماشى مع روحه المتدينة ، الحريصة على قيم الإسلام وتعاليمه .

وطبيعي أن تترك هذه الآراء النقدية أثرها في نفوس الشعراء ، فيبتعدوا عن المساس بالدين في شعرهم ، وبالفعل لم يخض كثير من الشعراء في الدين إرضاء للخلفاء لعلمهم أن ذلك لا يرضي خلفهم وذوقهم .

#### ٤ - النقد اللغوي :

لم يكتف الخلفاء بنقد فني للشعر ولسبكه وديbagته ، ثم المعاني التي لا تناسب هويتهم ، ولا النقد الذي لاحظوه في قصائد قيلت في القادة والوزراء ولا ما له مساس بالدين ، بل كان لهم نقد لغوي أيضاً ، يلحظ فيه الحاكم ما يقع فيه الشاعر من أخطاء نحوية أو لغوية ، وإن كان ذلك قليلاً أن يخطئ شاعر خطأ نحوياً ، إلا أنه حدث ولم يتركه الحكام ، بل نقدوه وقوموه .

"كان الرشيد مما يعجبه غناء الملحنين في الزلالات (المراكب) إذا ركبها ، وكان يتأنى بفساد لحنهم وكلامهم ، فقال : قولًا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعراً يغدون فيه<sup>(٢)</sup> .

فالأخطاء نحوية من الملحنين تؤذي الرشيد ، فيطلب من يعمل لهم شعراً سليماً لا لحن فيه ، حتى يوافق ذوقه الفني اللغوي السليم الذي لا يقبل الأخطاء ، والرشيد أيضاً ، "لما أنسده العماني" :

**كَانَ أَذْنِيَّهُ إِذَا تَشَوَّفَ .: قَادِمَةٌ أَوْ قَلَمُّا مُحَرَّفَا**

(١) أبو حفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، ط دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ م ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٦٥٦/٨ .

(٢) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهانى ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م طبعة كاملة معها فهرس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٤ / ١٣١٨ .

ولحن ، فهم ذلك أكثر من حضر ، فقال الرشيد : اجعل مكان (كَانَ) (تَخَالُ )<sup>(١)</sup> .

### انعكاسات هذا النقد :

وفي الحقيقة لم تكن كل هذه الآراء النقدية التي وجهها الحكم للشعراء قليلة الأثر على الأدب ، ولكنها تركت بصمات واضحة عليه في عدة جوانب ، وكان لها انعكاساتها التي خدمت الحركة الأدبية ، ووجهتها ، وأثرت فيها ، وأرى أن من هذه الانعكاسات التي تركتها هذه الآثار النقدية .

#### ١ - الاهتمام بالجودة الفنية :

لما نيقن شعراء العصر العباسي (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) من ثقافة خلفائهم وزرائهم العالية ، علموا أن بضاعتهم لن تجد شيئاً من القبول عند الحكم ، ما لم تكن خالية من الهنات ، محبوبة بأسلوب فني عالي ، مملوءة روعة وإتقاناً ، لهذا عمل هؤلاء الشعراء جدهم في تجويد بضاعتهم ، وإعادة النظر فيها عدة مرات ، حتى يصلوا بها إلى مستوى يرضي أذواقهم الفنية الشاعرة رضى تماماً ، لضمان القبول عند مددحיהם ، فكانوا يتخيرون الأوقات التي تمكنهم من الإبداع ، ولا يلوون عنق القريبة فتخرج فناً رديئاً قد يقابل من هذه النقافات بالرفض واللوم . " كان أبي نواس يقول : لا أكاد أقول شرعاً جيداً ، حتى تكون نفسي طيبة ، وأكون في بستان مونق على حال أرتضيها ، من صلة أوصل بها أو وعد بصلة ، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعاراً لا أرضها"<sup>(٢)</sup> .

وإذا نظرنا إلى ذكر أبي نواس للصلة أو الوعد بها ، أدركنا على الفور ما كان لذلك من أثر في تجويد الفن ، والإبداع فيه ، ولن تكون هذه الصلة أو الوعد بها إلا من حاكم من الحكم ، أو قائد من القواد ، أو أمير من الأمراء .

(١) أبو سحق الحصري القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب ، المطبعة الرحمنية بمصر ، تحقيق زكي مبارك ، ٢ / ٢٣ .

(٢) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهارس بإشراف تحقيق / إبراهيم الإبياري ، ٢٩ / ٩٨٦٥ .

وكان الشعراً يكتبون الشعر ثم يعيدون النظر فيه عدة مرات ، خوفاً من فقد المدحدين ، أو رغبة في تقديرهم للجودة الفنية والصياغة الأسلوبية العالية .

" كان أبو نواس يعمل القصيدة ثم يتركها أياماً ، ثم يعرضها على نفسه ، فيسقط كثيراً منها ويترك صافيتها ، ولا يسره كل ما يقذف به خاطره "(١) .

فكان على الشاعر أن يجتهد قدر ما يستطيع ، ويستخدم صافي قريحته ، وخلاصة موهبته في الوصول إلى أعلى مرتبة من الجودة ، وقد كان ذلك مهماً في تجويد فن العصر بصفة عامة ، وارتفاع مستوى الجودة الفنية فيه عن غيره من العصور وأمتلائه الشديد بالجيد من القول ، وقد أوصلت هذه المنافسة الفنية الشديدة الشعراً إلى إعداد الشعر قبل مناسباته وبعض الشعراً يجهز أشعاراً في الرثاء لأناس لم يموتوا بعد ، حتى إذا ماتوا أسرعوا بفهم الجيد ساعة الحادثة .

" قال أبو المستهل : دخلت يوماً على سلم الخاير ، وإذا بين يديه قرطيس ، فيها أشعار يرثي ببعضها أم جعفر ، وببعضها جارية غير مسماة ، وببعضها أقواماً لم يموتوا ، وأم جعفر يومئذ باقية - لم تتم - فقلت له : ويحك ما هذا ؟ فقال : تحدث الحوادث فيطالبوننا بأن نقول فيها ويستعجلوننا ، ولا يجمل بنا أن نقول غير الجيد فنعد له هذا قبل كونه فمتى حدث حادث أظهرنا ما فلناه فيه قدماً على أنه قيل في الوقت "(٢) . وما أوصلهم إلى كل هذه العناية بالجيد إلا أنفس الحكم وأذواقهم الناقدة ، فإن الشاعر يخشى التقصير في فنه أمام الحكم ، فمنهم من يجهز القصيدة في سنة كاملة ، ومنهم من يجهز للحوادث شعرها قبل أن تحدث ومنها من يذهب إلى قصر الحكم ثم يتרדّد في الدخول فيرجع لأن البضاعة التي يطلبها الخليفة ليست عنده .

" اجتمع الشعراً على باب المعتصم ، فبعث إليهم محمد بن عبد الملك الزيات ، أن أمير المؤمنين يقول لكم : من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول النَّمَري في الرشيد :

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهرس بإشراف تحقيق / إبراهيم الإبياري ٢٩ / ٩٨٦٥ .

(٢) نفسه : ٧٥٧٨ / ٢٢ .

**خَلِيفَةُ اللهِ إِنَّ الْجُودَ أُوْدِيَةٌ** .: أَحَكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ  
**مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمْيَنِ اللَّهِ مُعْتَصِمًا** .: فَلَيْسَ بِالصَّلَواتِ الْخَمْسِ يَتَفَرَّغُ  
**إِنْ أَخْلَفَ الْقَطْرُ لَمْ تُخْلِفْ مَخَائِلُهُ** .: أَوْ ضَاقَ أَمْرُ ذَكْرِنَا هُوَ فَيَسِعُ  
 فَلِيُدْخِلْ وَإِلَّا فَلِيُنْصَرِفْ " (١) .

ولم يقم من الشعراء إلا ( محمد بن وهب ) أما الباقيون فتراجعوا ، وما ذلك إلا لخوفهم من التقصير في الإجابة ، فالشاعر عليه أن يقلب قصيدته أمامه شهوراً حتى يرضى عنها هو أولاً ، فترضى ذوق مدوحه .

" قال أبو العناية للرشيد : يا أمير المؤمنين ، هذا ابن منادر شاعر البصرة يقول قصيده في سنة ، وأنا أقول في سنة مائتي قصيدة ، فقال الرشيد : أدخله إلى ، فأدخله إليه ، وقرر أن يضعه عنده ، فدخل وسلم ودعا ، فقال له : ما هذا الذي يحكى عنك أبو العناية ؟ فقال ابن منادر : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ فأخبره بالخبر ، فقال يا أمير المؤمنين : لو كنت أقول :  
**أَلَا يَا عَنْبَةَ السَّاعَةِ** .: **أَمُوتُ السَّاعَةَ السَّاعَةَ**  
 لقلت منه كثيراً ، ولكنني الذي أقول :

**إِنَّ عَبْدَ الْمَجِيدِ يَوْمَ تَوَلَِّي** .: **هَذَرُكْنَا مَا كَانَ بِالْمَهْدُودِ**  
**مَا دَرَى نَعْشُهُ وَلَا حَامِلُهُ** .: ما على النعش من عفاف وجود  
 فقال الرشيد : هاتها فأنشدinya ، فأنشدde فقال الرشيد : ما كان ينبغي أن تكون هذه  
 القصيدة إلا في خليفة أو ولـي عهد " (٢) .

فقد أمن الرشيد - ضمناً - على كلام ابن منادر ، فلما أعجبه شعره تمنى أن تكون  
 القصيدة في رثاء رجل ذي شأن ك الخليفة أو ولـي عهد يتاسب قدره مع قوتها  
 وإنـ حـكمـها .

(١) نفسه : ٢١ / ٧٣١٨ .

(٢) نفسه : ٢٠ / ٧٠١٠ .

بهذا نتأكد أن نقد الحاكم الفني للشعر كان له دوره المباشر الواضح في جودة الشعر وإحكامه وقوته ، ولو لم تكن لهم هذه الأنفس الذوقة لربما كان للأدب في عصرهم مسار آخر ، كان من الممكن أن يصيّبـه غير قليل من الضعف .

## ٢ - الرجوع إلى العلماء المتخصصين :

ومن أجل الوصول إلى المستوى الفني العالي ، لم يكن الشاعر يكتفي بذوقه هو وحده للحكم على ما ينتج من شعره ، بل كان يعرضه على أهل اللغة ، والمتخصصين فيها ، حتى يستطيع أن يصل إلى معرفة مواضع الضعف في فنه فيصلحها ، أو جوانب الكمال الفني فيعرضه على المدح .  
وكان الشعراء يحترمون آراء العلماء المتخصصين في اللغة والأدب ، ويصغون إلى ملاحظاتهم الفنية باهتمام واحترام .

" قال خالد الأرقط : جاءنا مروان بن أبي حفصة إلى حلقة يونس ، فأخذ بيده خلف الأحمر فأقامه ، وأخذ خلف بيدي فقمنا إلى دار أبي عمير ، فجلسنا في الدهليز ، فقال مروان لخلف : ناشتك الله يا أبي محرز إلا نصحتي في شعري ، فإن الناس يخدعون في شعرهم وأنشده قوله :

**طريق زائره فحي خيلها .: بيضاء تخلط بالجمال دلالها**  
قال له : أنت أشعر من الأعشى في قوله : ( رحلت سمية غدوة أجملها ) ، فقال له مروان : أتبليـغـ بيـ الأعشـىـ هـكـذاـ ،ـ وـلاـ كـلـ ذـاـ ،ـ قـالـ :ـ وـيـحـكـ !ـ الأـعـشـىـ قـالـ فـيـ قـصـيدـتـهـ هـذـهـ :ـ فـأـصـابـ حـبـةـ قـلـبـهاـ وـطـحالـهاـ ،ـ وـالـطـحالـ ماـ دـخـلـ قـطـ فـيـ شـيءـ إـلاـ أـفـسـدـهـ ،ـ وـأـمـاـ قـصـيدـتـكـ فـسـلـيمـةـ كـلـهـاـ ،ـ فـقـالـ لـهـ مـرـوـانـ :ـ إـنـيـ إـذـ أـرـدـتـ أـنـ أـقـولـ القـصـيدةـ رـفـعـتـهـاـ فـيـ حـوـلـ ،ـ أـقـولـهـاـ فـيـ أـرـبـعـةـ أـشـهـرـ وـأـنـتـلـهـاـ فـيـ أـرـبـعـةـ أـشـهـرـ ،ـ وـأـعـرـضـهـاـ فـيـ أـرـبـعـةـ أـشـهـرـ " (١) .

والمتخصصون لم يتركوا جانبًا من جوانب الإجادـةـ الفـنيـةـ إـلاـ كانـ مـهـمـاـ فيـ جـوـانـبـ مـلـاحـظـاتـهـ ،ـ وـكـانـواـ يـعـرـفـونـ قـدـرـ آـرـائـهـمـ الـفـنيـةـ ،ـ وـأـهـمـيـةـ تـوجـيهـاتـهـمـ الـبـلـاغـيـةـ

---

(١) نفسه : ٣٥٤٦ / ١٠ .

والمعنوية ، وفي بعض الأحيان كانوا يتحدون الشعراء أن يصلوا إلى الجودة بدونهم ، فقد "دار بين الخليل بن أحمد وبن منادر كلام ، فقال له الخليل : إنما أنتم الشعراء تابع لي ، وأنا سكان السفينة ، إن قرطكم ورضيت قولكم نفقت ، وإلا كسد تم ؛ فقال ابن منادر : والله لأقول في الخليفة قصيدة أمتدحه بها ولا أحتاج فيها إليك عنده ، ولا إلى غيرك ، فقال في الرشيد قصيده التي أولها :

**مَا هَيَّجَ الشَّوْقَ مِنْ مُطْوَقَةٍ . أَوْفَتْ عَلَى بَانَةٍ تُغَيِّنَـا**

وكان فيها بيت يفتخر فيه وهو :

**قَوْمٍ تَمِيمٍ عَنْدَ السِّمَاكِ لَهُمْ . مَجْدٌ وَعِزٌّ فَمَا يُنَالُونَـا**

فلما أنسد هذا البيت تعصب عليه قوم من الجلساء ، فقال له بعضهم : يا جاهل ! أتفخر في قصيدة مدحت بها أمير المؤمنين ؟ وقال آخر : هذا حماقة بصرية <sup>(١)</sup> . وإذا كان ما أخذه عليه الحاضرون ليس له كبير صلة بالجودة الفنية ، فإنه من - أحد الوجوه - يدل دلاله قاطعة على الأهمية الكبيرة ، والفائدة التي لا يمكن إنكارها ، لعرض الشعر على العلماء المتخصصين في اللغة ، يصلحون عيباً فنياً، أو لغوياً ، أو بلاغياً .

ولو لم يكن للحكام ذائقه العلماء العارفة بمواضع جيد القول من ضعيفه ، لما كان علماء اللغة أنفسهم كبير أهمية في تحسين صورة الأدب الذي يخاطب به الحاكم ، والوصول به إلى مراتبه العالية في هذا العصر ، مما داع الرجوع إلى علماء اللغة ، وعرض الأشعار عليهم قبل إنشادها إلا بسبب رؤية الحكام النقدية ، وآرائهم الفنية ، وذوقهم المرهف ، وذاك يخدم في نهاية الأمر الأدب بعمته ، ويحسن صورته شعراً ونثراً ، فإن كان الشاعر يسهر على قصيده شهوراً ، يحسن معانيها ، ويتوافق بين ألفاظها ، ويقدم فيها ويؤخر ، حتى يرضى هو عن قصيده، ثم بعد ذلك يعرضها على علماء اللغة ونقاد الأدب ، فيلفتوا نظره إلى مواضع الضعف في شعره فيصلحه ، أو أماكن الجودة الفنية فينشرح لها ، حتى إذا تمت القصيدة دورتها هذه ، وأحسن الشاعر بجودتها ، ذهب بها إلى مدوحه ، الذي

---

(١) نفسه : ٦٩٧٧ / ٢٠ .

يكون محاطاً - غالباً - بجماعة من علماء اللغة أيضاً ، فيلقى قصidته وهو مطمئن إلى روعتها في أغلب الأحيان ، فيطرب لها الحاكم الذواقة ويجزل للشاعر العطاء ليدفعه إلى مزيد من التأنق ، ومزيد من الجودة . وبطبيعة الحال لم يكن كل الحاكم كما قلنا - أصحاب حس نقدي مرهف ، وإنما كان الغالب عليهم الفهم والعلم ، وقليل منهم الذي غاب عنه هذا الحس ، وإذا كان بعضهم قد افتقد شيئاً من العلم والتدوّق ، فلا ينقض هذا القاعدة الأساسية من الأثر الكبير لهم في تجويد الفن وتحسين صورته في العصر كله .

### ٣- الشعر الشخصي والرسمي :

ومن الملاحظات التي تجر الإشارة إليها ، وهو من الانعكاسات الواضحة للنقد الفني الوعي عند الحكام ، أن فرقاً بيناً قد ظهر بين الشعر الرسمي الذي يتوجه به الشاعر إلى أحد أفراد البيت الحاكم - والشعر الشخصي ، الذي يقوله الشاعر لغير الغاية ، فقد بدا الشعر الرسمي متقوفاً على غيره كما وكيفاً في العصر العباسي (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) ، ولم يكن ذلك موجوداً بهذه الصورة في عصر بنى أمية ، فقد كان التنافس بين الشعراً تنافساً بين الأحزاب ، بحيث لم يخل حزب من الأحزاب من فعل من الشعراً " في الحزب الشيعي نعرف الكُميّت بن زَبْد ، وكثيّر عَزَّة ، والسيّد الحميريّ ، وفي الحزب الأموي يتربع الأخطل ، وجريير ، والفرزدق على قمة الفحولة ، لا في شعر العصر الأموي وحده ، بل في الشعر العربي في العصور الإسلامية القديمة بعامتها ، وفي الخوارج تلمع أسماء قطريّ بن الفجاءة ، والطِّرماح بن حكيم ، وعمران بن حطّان ، وفي الحزب الزبيري يعترف الشعر العربي بالعقبالية والنبوغ لابن قيس الرُّقيّات "(١) .

وإذا كان هؤلاء الشعراً قد شاركوا في مجال السياسة بشكل ما ، ومدحوا من يدافعون عنهم ؛ فقد كان انتماً لهم حقيقياً ، وكان مدحهم نابعاً من صدق ولائهم للمذهب أو الحزب ، إذ كانوا ينتمون إلى الحزب الذي يدافعون عنه فلم يكن

(١) صلاح الدين الهادي ، اتجاهات الشعر في العصر الأموي ، القاهرة ، دار الثقافة العربية ، ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م ، ص ٢٢٨ .

الشاعر منسلاً - في عقيدته ومذهبه - عن ممدوحه ، بل لم يكن يمدح أشخاصاً بقدر دفاعه عن عقيدة الحزب الذي ينتمي إليه ، وبهذا يختلط عندهم الرسمي من الشعر بالشخصي . قد نستثنى من هذا التعميم شعراء الأمويين بعض الشيء ، أما في العصر العباسي ( ١٣٢ - ٢٣٢ هـ ) ، فقد حدث " انقسام النتاج الشعري في ذلك العصر إلى قسمين : قسم كان يتجه به الشاعر إلى خاصة المتأدبين ، وقسم يتجه فيه إلى عامة الشعب " <sup>(١)</sup> .

فأما القسم الذي أتعب فيه الشاعر قريحته ، وسهر أياماً وليلياً يحسن صورته ، ويوفق بين ألفاظه ومعانيه ، ويعرضه على أهل الاختصاص حتى يصل إلى قمة الجودة ، فقد كنا الشعر الرسمي في أغلب الأحوال ، إذ كان الاهتمام به أكبر والتحفظ فيه أشد ، حتى وجدنا بعض الشعراء لم يتعد الشعر الرسمي إلا في القليل النادر ، كما يقول مصطفى الشكعة في شعر مروان بن أبي حفصة " مروان لم يقل شعراً إلا في المديح والرثاء والتهنئة ولم يتعد هذه الفنون إلا في القليل النادر ، وهو يجيد في هذه ولا يجيد في تلك " <sup>(٢)</sup> .

وقد مر بنا أن مروان كان يستغرق عاماً كاملاً يجهز فيه قصيده قبل أن يذهب بها إلى ممدوحه ، والمطالع لمصادر الأدب قد لا يعثر على شاعر عرض قصيده من النوع الشخصي على العلماء بغرض تجويتها ، بل قد لا يصادف خبراً عن شاعر أتفق عاماً كاملاً يتألق في قصيدة غزل أو حكمة ، أو غيرها من الأغراض في العصر العباسي ( ١٣٢ - ٢٣٢ هـ ) " وكان أبو نواس يحتفظ بكل ما يمكن من جزالة في الشعر الرسمي ، وفي بعض شعره الشخصي ، وكثيراً ما يعمد في النوح الأخير إلى السهولة المفرطة " <sup>(٣)</sup> .

(١) عزال الدين إسماعيل ، في الشعر العباسي ، الرؤية والفن ، المكتبة الأكاديمية ، ص ٣١٣ .

(٢) الشعر والشعراء في العصر العباسي ، بيروت ن دار العلم للملايين ، ص ٣٥ .

(٣) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ ، ص ١٤٧ .

وهو الذي يقول : "إني لا أحسن الشعر حتى تكون نفسي طيبة ، وأكون في بستان مونق ، وعلى حال أرتضيها ، من صلة أو صل بها ، أو وعد بصلة"(١) .

ولقد كان منطق أبي نواس هذا منطق كثير من الشعراء في هذا العصر ، ولعل في هذا دلالة كافية ومقنعة على الدور المهم للحكام - وأموالهم - في تجويد الأدب وتحسين صورته ، وفي انقسام الشعر إلى رسمي - وشخصي ، ويقول محمد عبد العزيز الموافي " وهذه الظاهرة واضحة في شعر كثير من شعراء العباسيين - كأبي نواس وأبي العتاهية ويعترف بشار بشيء قريب من هذه الازدواجية "(٢) . فبينما تجد قمة الجودة في شعر البلاط تجد ضعفاً بينما في كثير من نماذج الشعر الشخصي ، وقد صرخ غير شاعر بذلك وبسببه ، بل قد مر بنا قبل قليل قول ابن مُناذر شاعر الرشيد في شعر أبي العتاهية - وهو من أعظم شعراء العصر : " يا أمير المؤمنين ، لو كنت أقول :

**أَلَا يَا عَتْبَةَ السَّاعَةِ . . . أَمْوَاتُ السَّاعَةِ السَّاعَةِ**

لقللت منه كثيراً ، ولكنني الذي أقول :

**إِنَّ عَبْدَ الْمَجِيدِ يَوْمَ تَوَلَِّي . . . هَذَرُكْنَا مَا كَانَ بِالْمَهْدُودِ**  
**مَا دَرَى نَعْشُهُ وَلَا حَامِلُوهُ . . . مَا عَلَى النَّعْشِ مِنْ عَفَافٍ وَجُودٍ** (٣)

وهذا فرق واضح بين النموذجين ، فهذا شعر مدح تؤنيق فيه ، وهذا شعر يتغزل فيه أبو العتاهية في محبوته عتبة ، فليس ضروريًا أن يتأنق فيه ، فهو شعر شعبي كما يسميه عز الدين إسماعيل ، وحينما عتب النقاد على بشار حين قال : "ربابة رببة البيت" فقال : كل شيء في موضعه (٤) .

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإباري ، ٩٨٦٥ / ٢٩ .

(٢) حركة التجديد في الشعر العباسي ، مكتبة الشباب ، سنة ١٩٩١ ، ص ٦١ .

(٣) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، مطبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهارس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإباري ، ٧٠١٠ / ٢٠ .

(٤) المرزبانى (محمد بن عمران بن موسى بن سعيد) ، المoshح في مأخذ العلماء على الشعراء ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، سنة ١٩٦٥ ، تحقيق علي الباشا ، ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

ومهما يكن من أمر فقد تركت نظرات الحكم النقدية ، وآراؤهم الفنية أثراً في تجويد الشعر الرسمي ، والوصول به إلى مستوى فني عالٍ ، ولهذا دوره الهام في تحسين صورة الأدب بشكل عام .

ولم تترك هذه الثقافات العالية للحكم أثراً على الشعر من ناحية الكيف فقط ، بل تركت آثاراً من ناحية الكم أيضاً ، فقد فاق الشعرُ الرسمي الشخصي كمّاً، وذلك أن غرضاً كال مدح وهو شعر رسمي ، قد فاق غيره من الأغراض بشكل واضح ، فقد استولى هذا الغرض على نصيب كبير من نتاج عظماء الشعر في هذا العصر ، ك بشار ، ومسلم بن الوليد ، وأبي تمام ، بل إن شعراء آخرين قد أوقفوا معظم شعرهم على الشعر الرسمي ، منهم من اختص بالدفاع عن الدعوة العباسية ك أبي دلامة ، ومروان بن أبي حفصة ، وسلم الخاسر ، ومنهم من أوقف شعره على البرامكة ، كأبان بن عبد الحميد اللاحقي ، وأشجع السلمي ، ومنهم شعراء للوزراء والولاة والقواد ، ك أبي الشيص ، وعبد الله بن أيوب التيمي ، وعلي بن جبلة والخريمي ، بل قد لا يخلو ديوان شاعر من شعراء العصر من قصيدة عظيمة من قصائد المدح ، وهناك كثير من الشعراء مدحوا ولم تتمكنهم الظروف من الوصول إلى الحكم ، وكثير من الشعراء لم يرفع من شأنهم ويشهر أسماءهم إلا الشعر الرسمي ، خاصة المدح .

وإذا جاز لنا في مجال الأدب أن نقوم بعمل إحصاء رقمي لكلا النوعين ، فستجد الشعر الرسمي يتتفوق على الشخصي من ناحية الكم أيضاً ، ولا بد أن دوراً ما للحكم قد ساهم بشكل أو بآخر في وضوح هذه الظاهرة بين شعراء هذا العصر .

وإنه بوسع الباحث أن يصل إلى نهاية مؤداتها أن هذا العصر قد شهد نضجاً فنياً في القصيدة العربية إجمالاً ، وفي كل الأغراض ، فلا نستطيع أن ندعى إن الجودة الفنية اقتصرت على الشعر الرسمي وحده ، بل لم يخل الشعر الشخصي من نماذج فنية عالية الجودة ، ولكنني أرى أن الشعر الرسمي كان أكثر جودة من الشعر الشخصي .

وهذا مبني على ثقافة الحكم العالية ، ونظراتهم النقدية ، التي جعلت الشعراء يولون الشعر الرسمي كبير عناية ، من منطلق أنَّ لكل مقام مقالاً ، وهذا بالطبع أثر لأموالهم ، حب الشعراء للعطاء ، ذلك الذي ارتقى بالشعر الرسمي كما " فما دام هناك قادرٌ على المنح ومحاجٌ إلى العطاء فلا بد أن يوجد المدح "(١) .

### جـ- الاهتمام بتأليف الكتب الأدبية ودعمها :

لم يقتصر دور الحكم العلمي في العصر العباسي على ما تحدثنا فيه من عقد ندوات أدبية أخرجت لنا نتاجاً هائلاً من الفن الشعري الرافي ، أو على آرائهم النقدية المهمة التي تركت أثاراً وانعكاسات مهمة في الأدب شعره ونشره ، ومن تجويد للقصيدة العربية وتجدید لها ، ووصول بها إلى قمة التائق الفني ، أو غير ذلك من الانعكاسات التي تحدثنا عنها ، وإنما كان لهم - من وجهة نظري - دورٌ علمي قد يكون أكثر أهمية من كل هذا ، دورٌ كان بمثابة خطوة مهمة يستشعرها كل من كانت له أدنى صلة بالأدب ودرسه وتاريخه ، أو نقاده وتقويمه ، أو جمعه وتدوينه ، وأعني به دورهم في ظهور بعض المصادر المهمة للأدب ، أو المجموعات الشعرية الشهيرة ، التي قد لا يستغنى عنها باحث في الأدب القديم أياً كان توجهه العلمي ، أو منهجه البحثي ، بل أكاد أقول إن باحثاً في الأدب عامة ، قد لا يستغنى عن أحد هذه الكتب بشكل أو بآخر ، فإني قد لاحظت أن حكام هذا العصر كان لهم دورٌ مباشرٌ في ظهور بعض مصادر الأدب ، وكان لهم دورٌ آخر لم يكن مباشراً في إخراج مصادر أخرى مملوءة بالفائدة ، وأعني بالشكل المباشر أن يكون الحكم قد طلب وبشكل صريح عمل كتاب في كذا ، أو أحاط بالعالم وفرغه واهتم بمؤلفته بشكل صريح ، وقام بتنليل كل العقبات التي قد يتعرض لها حتى من مؤلفه ، أو عدل له فكرة من مخزون ثقافته - أي الحكم - أسهمت في إخراج المؤلف على الصورة التي وصلت إليها ، ف تكون بصمة الحكم فيه واضحة، ويكون دوره ملمساً ومن هذا النوع ( المُفَضْلَياتُ ) للمُفَضْلِ بن مُحَمَّدِ الضَّابِيِّ (كتاب الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني .

---

(١) محمد عبد العزيز المواقي ، حركة التجديد في الشعر العباسي ، مكتبة الشباب ، سنة ١٩٩١ ، ص ٦٣ .

أما الدور غير المباشر من أدوار الحكم فأعني به احتواء الحكم لأحد العلماء بشكل عام ، وحبه له ، وملازمته إياه ، فإذا به يؤلف شيئاً ذا بال ويهديه إليه ، كما حدث مع الجاحظ في كتابيه (الحيوان) و (البيان والتبين) أو يكون مصدر من المصادر مبنياً على فكرة أرساها أحد الحكم ، كما هو الحال في كتب الاختيارات بعد المفضل بن محمد الضبي ، وأتناول ذلك بشيء من التوضيح لأبين كيفية هذه الأدوار .

#### المختارات الشعرية :

المفضليات هي الأشعار التي اختارها أبو العباس المفضل بن محمد الضبي الرواية الكوفي ، من أشعار المقلين من شعراء العرب ، للأمير محمد المهدي بن الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي ، وهي أقدم مجموعة عرفها العلماء في اختيار الشعر العربي " ولا نعلم أحداً قبل المفضل الضبي أقدم على أن يصنع للناس اختياراً من الشعر ، إذ كان جلهم الرواة أن يقتنعوا بهذه الثروة الفنية التي وصلت إليهم ، وأن يتلقفها أحدهم عن الآخر ، حريراً عليها ، ضنيناً بها "(١) .

فيما يرى أن العرب لم يكن لهم قبل المفضل الضبي علم بالمختارات الشعرية على الصورة التي فعلها المفضل في المفضليات ، وإن كان شيء قريب من هذا قد حدث في المعلقات المشهورة ، إلا أن هذا العمل لم يكن مختارات بالمعنى الدقيق للكلمة ، وإنما هو مجموعة من القصائد اختلف في عددها ، لاقت تقديرًا واحترامًا من العرب عامة ، والعلماء بوجه خاص ، وذلك لعلو قيمتها في الناحية الفنية والبلاغية ، حتى قيل إنها كتبت بماء الذهب ، أو علقت على أستار الكعبة ، لذا طارت شهرتها عبر الزمان والمكان ، أما الاختيارات بالمعنى الدقيق فبدايتها المفضليات على أرجح الأقوال ، كما يرى ذلك كثيراً من مؤرخي الأدب ودارسيه. وأما أهميتها وقيمتها الفنية والتاريخية فنكتفي بما قاله فيها أحد شراحها وهو السيد حسن السندي صاحب جريدة الثمرات ، الذي يقول عنها : " فما هي إلا مرأة يشهد فيها المتأدب بها صوراً شتى مما امتاز به العرب من الأخلاق والعادات ،

---

(١) أحمد شاكر ، عبد السلام هارون ، مقدمة محقق المفضليات ، القاهرة ، طبعة دار المعرفة ، ص ١٠.

وما تصفوا به من محسن الشيم ومخاشر المروءات ، وما كان لهم في أيامهم من الحروب والوقائع ، وما أتوه في حلبات النضال وحومات المعاصي<sup>(١)</sup>.

أما عددها فمحل خلاف ، هل هي ثمانون قصيدة من اختيار الضبي والباقي لغيره ، أم كلها من اختيار المفضل ، هذا خلاف قد لا يفيد كثيراً في هذا المقام ، وإن كان السنديبي يقول : " والتي بين أيدينا الآن بها ثمان وعشرون ومائة قصيدة"<sup>(٢)</sup>.

ولعل الأجرأ أهمية من ذلك هو سبب اختيار المفضل لهذه المجموعة النادرة من الأشعار ، وقد وجدت أن مؤرخي الأدب كانوا يتقدون أن هذه المجموعة من الأشعار إنما كانت مختارة لتعليم أمير المؤمنين المهدي العبسي ، حينما كان ولد عهد في أيام أبي جعفر المنصور ، فابن النديم يقول في الفهرست حول ترجمة الضبي : " يقال أنه خرج مع إبراهيم بن عبد الله بن حسن ، فظفر به المنصور فعفى عنه وألزمته المهدي ، وللهذه المهمة عمل الأشعار المختارة ، المسماة المفضليات "<sup>(٣)</sup>.

وأبو علي القالي يروي في الأمالى ، عن أبي الحسن علي بن سليمان الأخفش ، عن أبي جعفر محمد بن الليث الأصفهاني قال : " أملی علينا أبو عكرمة الضبي "<sup>(٤)</sup> المفضليات من أولها إلى آخرها ، وذكر أن المفضل أخرج منها ثمانين قصيدة لل المهدي "<sup>(٥)</sup>.

وقول محقق المفضليات أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون في مقدمة طبعة دار المعارف " قرأ عليه - أبي المفضل - بعضها تلميذه أمير

---

(١) مقدمة شرح المفضليات ، المطبعة الرحمانية بمصر ، سنة ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م ، ص ٣ .

(٢) مقدمة شرح المفضليات ، المطبعة الرحمانية بمصر ، سنة ١٩٢٦ م ، ص ٣ .

(٣) ابن النديم ( أبو الفرج محمد بن إسحاق بن أبي يعقوب ) ، الفهرست ، نسخة طبعة مصر ، ص ١٠٦ .

(٤) هو أبو عكرمة عامر بن عمران بن زياد الضبي ، روى المفضليات عن ابن الأعرابي ، ورواه عنها أبو محمد القاسم الأنبار الكبير ، وكان أعلم الناس بأشعار العرب وأوراهم لها ، مات سنة ٢٥٠ هـ - معجم الأدباء ، ٤ / ٢٨٣ .

(٥) أبو علي القالي ، الأمالى ، طبعة دار الكتب المصرية ، تحقيق ، محمد عبد الجود الأصمسي ، ١٣٠ / ٣ د.ت.

المؤمنين المهدى<sup>(١)</sup> ، ويعرف حسن السندي بالفضليات في مقدمة تحقيقه لها فيقول : " هذا كتاب الفضليات ، وهي الأشعار التي اختارها أبو العباس المفضل بن محمد الضبي الرواية الكوفي الحجة الثقة ، من أشعار العرب، للأمير محمد المهدى بن الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي ، ليتأدب بها ، ويخرج بأدبها "<sup>(٢)</sup> . وهكذا تتصل الأقوال لتدل على أنها جمعت ليتأدب بها المهدى في عهد أبيه المنصور ، وتحت سمعه وبصره ، فقد كانت برعاية من أبي جعفر ، وبتوجيه منه بشكل مباشر .

فإذا سلمنا أنها جمعت في دار الخلافة ، وبرعاية البيت العباسي ؟ أدركنا الدور المهم للبيت نفسه في إخراجها ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن المتتبع لشخصية أبي جعفر نفسه ولذوقه ، وحبه للشعر القديم ، ليكاد يجزم أن أبي جعفر كانت له يد في هذه الاختيارات ، فمما يروي أبو الفرج في الأغاني أن أبي جعفر طلب حماداً الرواية طلباً شديداً فلما مثل بين يديه ، قال له : " أنسدني شعر هفان بن همام بن نصلة يرثي أباه ، فأنشدته :

خَلِيلِيْ عُوْجَاجَا إِنَّهَا حَاجَةُ لَنَا :: عَلَى قَبْرِ هَمَّامِ سَقْتُهُ الرَّوَاعِدُ  
عَلَى قَبْرِ مَنْ يُرْجَى نَدَاهُ وَيُبَتَّغِي :: جَدَاهُ إِذَا لَمْ يَحْمِدَ الْأَرْضَ رَائِدُ  
كَرِيمُ النَّثَاثِ حُلُوُ الشَّمَائِلِ بَيْتَهُ :: وَبَيْنَ الْمُزَاجِيِّ نَفَنَفُ مُتَبَاعِدُ<sup>(٣)</sup>  
إلى آخر القصيدة ، فيبيكي المنصور من شدة تأثره بالشعر ، ويبد وأنه كان أميل في ذوقه للشعر القديم ، بل كن يحفظ الكثير من جيده ، فها هو يصدع المنبر فألزم عليه طويلاً لا ينطق " قال رجل لشبيب بن شيبة : ما لأمير المؤمنين لا يتكلم ! فإن والله مما يهون عليه صعب القول ، فما باله ! قال : فاقترع الخطبة ثم قال :

(١) مقدمة محقق الفضليات ، القاهرة ، طبعة دار المعرف ، ص ١١ .

(٢) مقدمة شرح الفضليات ، المطبعة الرحمانية بمصر ، سنة ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م ، ص ٢ .

(٣) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهرس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإباري ، ٥ / ٢١٦١ .

مَالِي أَكْفَكُ عَنْ سَعْدٍ وَيَشْتُمُنِي .: وَلَوْ شَتَمْتُ بَنِي سَعْدٍ لَقَدْ سَكَنُوا  
جَهْلًا عَلَى وَجْبَنَا عَنْ عَذُولِهِ .: لَبَئِسَتِ الْخُلَّانُ الْجُهْلُ وَالْجُبْنُ<sup>(١)</sup>  
والأبيات من قصيدة لقعنب بن أم صاحب الشاعر الجاهلي ، فقد كان المنصور  
يعتني بحفظ الأشعار أيا عناء ، بل كان يرويها ، ويعد عدم حفظها مصيبة  
وكارثة ، ولقد سبق القول في الحديث عن ثقافة الحكام اللغوية والأدبية أن أبا  
جعفر طلب عند موت ابنه الأكبر ، من ينشده من أهله خاصة عينية أبي ذؤيب  
التي مطلعها :

أَمِنَ الْمَنْوْنُ وَرَبِّهَا تَتَوَجَّعُ

فخرج الربع إلى بني هاشم وهم بأجمعهم حضور ، فسألهم عنها فلم يكن  
فيه أحد يحفظها فرجع فأخبره ، فقال : والله لمصيبي بأهل بيتي ألا يكون فيهم  
أحد يحفظ هذه لقلة رغبتهم في الأدب أعظم وأشد من مصيبي بابني<sup>(٢)</sup> .

وكان أبي جعفر المنصور في توجيهه للمفضل تعليم ابنه المهدي هذا  
الشعر ، يجنبه مصيبة هي أعظم عنده ألمًا من الموت ، فإذا كان نظرة المنصور  
للجهل على هذه الشاكلة ، وإحساسه بقيمه الأدب والشعر هذا الإحساس ، فإن  
الباحث ليرى في ذلك دليلاً ناصعاً على دوره في المفضليات ، فإذا أضفنا إلى ذلك  
ما قاله الأنباري : أول شراح المفضليات وأشهرهم ، حيث يقول : " حدثت أن أبا  
جعفر المنصور نقدم إلى المفضل في اختيار قصائد المهدي ، فاختار له هذه  
القصائد فلذلك نسبت إلى المفضل"<sup>(٣)</sup> .

ثم ما رواه القالي في الأمالى عن أبي عكرمة قال : " مر أبو جعفر  
المنصور بالمهدي وهو ينشد المفضل قصيدة المسيب التي أولها " أرَحَلتَ " وذكر

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، ط ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ م ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٨ / ٩٢ .

(٢) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١١٩٧ م ، ١٤٧/١ .

(٣) المفضل الضبي ، المفضليات ، نسخة طبعة المطبعة الرحمنية بمصر ، سنة ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م ، شرح حسن السندي ، ص ٢١ .

القصيدة ثم قال فلم يزل واقفاً من حيث لا يشعر به ، حتى استوفى سمعها ، ثم صار إلى مجلس له ، وأمر بإحضارهما ، فحدث المفضل بوقوفه واستماعه لقصيدة المسيب ، واستحسانه لها ، وقال له : لو عمدت إلى أشعار المقلين ، واخترت لفتاك لكل شاعر أجود ما قال ؛ لكن ذلك صواباً ، فعل المفضل<sup>(١)</sup> .

ويقول الباحث ؛ بالإضافة هذين الخبرين يظهر واضحاً أن القصر الحاكم كان له دورٌ رئيسيٌّ ومباشرٌ في أول مجموعة مختارة من أشعار العرب ، فأبو جعفر قد وجه المفضل توجيهأ صريحاً إلى ما يختاره من شعر ليعلم به ولـي العهد ، وهو الجيد من أشعار المقلين ، وقد كان ، واستقراء هذه الأخبار الكثيرة عن حب أبي جعفر المنصور للشعر ، وعن إحساسه بقيمة الأدب ، ثم ما ورد بصورة صريحة عن دوره في تعليم ابنه ، وعن اختيار المفضل خاصة ، يجعل الباحث يرى أن هذه الاختيارات كانت - أو معظمها - تحت إشراف أبي جعفر المنصور نفسه ، بل يرى أيضاً أن لأبي جعفر دوراً ، أو بالتحديد اختياراً لبعض هذه القصائد ، فكثير منها - أي المفضليات - يتسم مع ذوقه الشعري .

إذاً فإن للبيت الحاكم في العصر العباسي دوراً مهماً وملموساً في هذه الاختيارات بشكل مباشر ، ولما بعدها كالأصمبيات ، والحماسيات ، وغيرها من كتب الاختيار بشكل غير مباشر ، اعتماداً على أن بداية الاختيارات بفضل توجيههم .

### الأغاني :

من الكتب العالمية القيمة ، العظمية الفائدة ، التي اتفق العلماء والمهتمون بالأدب في كل العصور على جلال قدرها ، وعظيم قيمتها ، كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، المؤلف والعالم الأموي النسب ، الشهير في مجال الأدب ، فهو كاتب من النوع الموسوعي الذي يخدم كتابه الباحثين في مجالات الحياة المختلفة ، لأنه يحتوي على كثير من الأخبار منذ عصر مؤلفه فهو يحتوي على مادة متنوعة ، منها الغناء ولحنه وأضربه ، ومنها الشعر وفائه وترجمته وأخباره

(١) أبو علي القالي ، الأمالى ، طبعة دار الكتب المصرية ، تحقيق حمد عبد الجواد الأصمسي ، ٣ / ١٣٠ -

وما يتعلّق به ، ومنها قد يكون بين المعنيين من اشتراك بالغناء " ثم امتد به القول إلى السبب الذي من أجله قيل الشعر ، أو صنع اللحن ، وما يشากل الموضوع أو يوضحه ، من أخبار سير ، وأشعار ورسائل ، وخطب ، وقصص ، وملح ونكت ونوادر . فاشتمل الكتاب على أكثر أيام العرب وواقعهم وغزوائهم ، وأخبار قبائلهم وأنسابهم ومياهم ، كما وصف الباية وما عليها من حيوان وشجر ، والبدو وما يحكمهم من عادات وخلائق ، واندس إلى القصور الضخمة في المدن الكبيرة ، فوصف ما بداخلها من الأشياء النفسية ، ما فيها من رياش ، وأساس ، وما يتزمه أهلها في طعامهم وشرابهم ، وأفراحهم وأحزانهم ، من مراسم وتقاليد وما عليه العامة من لغاتهم ومعتقداتهم وتديلياتهم ، وسيطرتها على الخاصة " <sup>(١)</sup> . فالكتاب موسوعي في مادته بكل ما تعنيه الموسوعية من معنى ، في الفترة الزمنية التي تتناولها ولها قبل عصره وفي أثنائه ؛ لذا فقد أشبعه علماء الأدب واللغة إطراً وثناءً ، القدماء منهم والمحديثون ، فيقول عنه ياقوت الحموري في معجم الأدباء "عمرى إن هذا الكتاب لجليل القدر ، شائع الذكر ، جم الفوائد ، عظيم العلم ، جامع بين الجد البحث ، والهزل البحث ، وقد تأملت الكتاب وعنيت به ، وطالعته مراراً" <sup>(٢)</sup> .

إلى غير ذلك من أقوال المؤرخين القدماء في الثناء على الكتاب . ومن المحدثين يقول عنه الطاهر أحمد مكي : " وأجمع المؤرخون وأهل الأدب على أن الأغاني نسيج وحده ، وأن كل كتاب في الأدب جاء بعده كلُّ عليه ، ولو لواه لصاع الكثير من أخبار الجاهلية ، وصدر الإسلام ، وبني أمية" <sup>(٣)</sup> .  
وإذا ذهبنا نعدد ما كتبه المحدثون والقدماء أيضاً في إطراء الكتاب ، وإبراز جوانب تميزه ، لا يسعنا المقام ، فإن همنا هو الكشف عن صلة حكام العصر العباسي ( ١٣٢ - ٢٣٢ هـ ) بالكتاب ، ودورهم بشكل أو بأخر في ظهوره ، أو في تأليفه ، أو في محتواه ، إن كان ثمة دورٌ .

(١) الطاهر أحمد مكي ، دراسة في مصادر الأدب ، القاهرة ، دار المعرفة ، ص ١٧٣ .

(٢) ياقوت الحموري ، معجم الأدباء ، ط ٣ ، القاهرة ، نسخة طبعة دار الفكر العربي ، ١٣ / ٩٨ .

(٣) دراسة في مصادر الأدب ، القاهرة ، دار المعرفة ، ص ١٧٢ .

فإن الإنسان قد يصاب بشيء من الدهشة حينما يقرأ أو يسمع عن شيء من الدور لحكام العصر العباسي - (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) خاصة - في تأليف أبي الفرج الأصفهاني لكتاب الأغاني ، حيث أن مؤلفه قد ولد ٢٨٤ هـ ، على حين انتهى العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) حسب تقسيم الكثير من المؤرخين لعصور العباسيين على هذا النسق - وهو ما كان مسلمة بالنسبة لنا في هذا البحث وسنة ٢٣٢ هـ ، وهو ما يجعل فترة زمنية طويلة تفصل بين العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) وبين تأليف الكتاب ، ثم إن البحث الذي نحن بصدده تتنمي مادته التي اعتمدت عليها سنة ٢٣٢ هـ فكيف اتصل أبو الفرج بحكام هذا العصر ، وكيف خرج كتابه بشيء من فضلهم ، وفترة تزيد على الخمسين عاماً تفصل بينه وبينهم ، اعْتَلَ كرسي الخلافة خلالها عدد كبير من الخلفاء ، امتلأت عهودهم بالأحداث السياسية والعلمية ! لكن هذه الدهشة قد تزول إلى حد ما ، وهذه الأسئلة الكثيرة قد تجد لها إجابات ويطمئن المرء إلى وجود دور بالغ الأهمية لأحد حكام العصر العباسي (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) في تأليف كتاب الأغاني ، بل ربما كان لهم دور في مادته نفسها ، وهذا من خلال الكتاب ومؤلفه .

أما عن سبب تأليف الكتاب فقد كان لل الخليفة هارون الرشيد فيه دور مهم ومباشر ، فقد حدث أبو الفرج نفسه قائلاً : " عن أبي أحمد يحيى بن علي بن يحيى المنجم قال : حدثني أبي قال : حدثي إسحاق بن إبراهيم الموصلي أن أباه أخبره أن الرشيد - رحمه الله عليه - أمر المغنيين ، وهم يومئذ متواوفرون ، أن يختاروا له ثلاثة أصوات من جميع الغناء ، فأجمعوا على ثلاثة أصوات أنا أذكرها بعد هذا إن شاء الله .

قال إسحاق : فجرى هذا الحديث يوماً عند أمير المؤمنين الواثق بالله ، فأمرني باختيار أصوات من الغناء القديم ، فاختارت له من غناء كل عصر ما اجتمع على براعته ، وإحكام صنعته " (١) .

---

(١) أبو الفرج على بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م . طبعه كاملة معها فهرس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإيباري ، ٧/١ .

ويقول أيضاً " وأخبرني أحمد بن جعفر جحظة قال : حدثي هارون بن الحسن بن سهل ، وأبو العنبس بن حمدون ، وابن دقاق ، وهو محمد بن أبي يحيى المعروف بابن دقاق بهذا الخبر فزعم : أن الرشيد أمر هؤلاء المغنيين أن يختاروا له مائة صوت ، فاختاروها ، ثم أمرها باختيار عشرة منها فاختاروها ، ثم أمرهم أن يختاروا منها ثلاثة ففعلوا " <sup>(١)</sup> .

ومن خلال البحث وجدنا أن الخليفة العباسي هارون الرشيد قد أمر إبراهيم الموصلي وإسماعيل بن جامع وفليح بن العوراء ، أن يختاروا له مائة صورت من الغناء كله ، هي أجملها شرعاً ، وأخذقها غناً وأعظمها فناً ، فاختاروها له ، ثم رفعت إلى الواثق بالله ، فأمر إسحق بن إبراهيم بأن يختار له منها ما رأى أنه أفضل مما كان قد اختير متقدماً ، ويضيف إليها ويحذف منها ، فاختار إسحق ما أمر به الواثق ، ولم يكن المقصود من هذه الاختيارات حذق الغناء فقط ، وإنما يأتي معه جودة الشعر وقوته .

ومن ذلك يمكن أن نقول : إن المائة صوت قد جمعت للخليفة الرشيد ، أشعار أو غناء ، ثم ترك الخليفة الواثق عليها بصمة أخرى ، بينما أمر إسحق الموصلي فيها بأمره .

وبناء على ذلك يمكن أن نقول إن هذه الأصوات كانت جاهزة لأبي الفرج ، وعلى أساس وجودها ببني مادته ، ونسق كتابه ، وأضاف إليه كثيراً من الأخبار التي يعترف الدارسون له وحده بالفضل فيها .

ثم إذا عرضنا أن أبي الفرج قد بدأ بالثلاثة أصوات المتفق عليها من المغنيين للخليفة الرشيد ، أدركنا دور الحكم في الكتاب ، ورعايتهم لمن جمعوا أصواته ابتداء ، فمن داخل قصورهم بدأ في عهد الرشيد ، ثم ظل محفوظاً إلى عهد الواثق - ومن وجهة نظر الباحث - حتى عهد أبي الفرج ، يقول أبو الفرج : " ولما جعلنا ابتداءه الثلاثة الأصوات المختارة ، كان شعراً لها من المتاخرين ، وأولهم قطيفة ، وليس من الشعراً المعذوبين ولا الفحول ، ثم عمر بن أبي

---

(١) نفسه : ١ / ٧ .

رببيعة، ثم نصيب ، فلما جرى أول الكتاب هذا المجرى ولم يمكن ترتيب الشعراء فيه ، الحق آخره بأوله ، وجعل على حسب ما حضر ذكره . وكذلك سائر المائة صوت المختارة ، فإنها جارية على غير ترتيب الشعراء والمغنيين<sup>(١)</sup>.

فإن ترتيب الشعراء في كتاب الأغاني ، بل و اختيار المائة الأولى منهم ، لم يكن للأصفهاني فيه يد - تقريراً - ولكنه منقول له نقاً عن قصر الرشيد ، وبأمر منه بشكل مباشر للمغنيين المحظيين به ، بل وبمتابعته حينما طلب بعد المائة أجود عشرة ثم أفضل ثلاثة ، وقد التزم أبو الفرج في كتابه هذا الترتيب ، لكنه وسع مادة الكتاب بعد هذه البداية ، واستطرد فيها استطرادات ذكية ، أفادت الدارسين بعده إفادات كبيرة من هذا نعلم أن للبيت الحاكم العباسي دوراً مهماً في بناء كتاب الأغاني ، و اختيار مجموعة كبيرة من ترجماته ، هي المائة الأولى على أقل تقدير.

فإذا أنعمنا النظر في اسم الكتاب لمسنا أيضاً نوعاً من المشاركة في وضعه منذ عهد هارون الرشيد ، على أساس أنه اختار له المغنيون أصواتاً من الغناء ، ثم إذا بأبي الفرج يسمى كتابه ( الأغاني ) .

ويرى بعض الدارسين - والحق معهم - أن مادة الكتاب المثبتة في داخله أكثر بكثير من اسمه ، كما أن الترجم في كتاب الأغاني تقارب خمسمائة ترجمة للشعراء والشاعرات ، فإذا كان ما اختيار للرشيد منها مائة ، ثم ما اختيار زائداً عليها للواشق غير معروف ، فإن للحكام دوراً في تشكيل جانب كبير من مادة الكتاب نفسها ، علاوة على دورهم في البعث على تأليفه ، أو هيكلته - إذا صح التعبير - بشكل محمل قبل تصنيفه بفترة طويلة - من الزمن .

وخلالمة هذا كله فإن أبي الفرج الأصفهاني بني كتابه على المائة صوت التي كان الرشيد قد طلب من المغنيين صراحة ، اختيارها ، ويرى الباحث أن الفكرة في الأساس كانت فكرة الرشيد أخذت تسير عبر السنوات حتى وصلت إلى أبي الفرج الأصفهاني ، فبني عليها مادة كتاب ضخم هو هذا الكتاب ، فليس غريباً على الإطلاق أن نعترف بدور أساسي للحكام في العصر العباسي في كتاب

(١) أبو الفرج على بن حسن الأصفهاني ، الأغاني طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م ، طبعة كاملة معها فهرس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإبياري ، الأغاني ، مقدمة المؤلف ، ص ٣ / ج ١ .

الأغاني ، في تسميته ، وفي ترتيب الترجم الأولى منه ، وفي اختيار عددٍ كبير من ترجم الشعراء داخله ، بل ربما في فكرته ذاتها .

### الحيوان والبيان والتبيين للجاحظ :

الجاحظ هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، ولد عام ١٥٩ هـ وتوفي عام ٢٥٥ هـ ، وقد كان موسوعة علمية وثقافية ، شهد له بذلك كثيرون من أبناء عصره ، فقد كان " أستاذ الثقافة الإسلامية في النصف الأول من القرن الثالث ، وكان مجده الأدبي الذاهب يعصف بمجد كل أديب ويدوي في كل أفق ، ويرن صدأه سمع كل كاتب وشاعر وخطيب .

وعاش الناس في عصره وبعد عصره عيالاً عليه ، في البلاغة والفصاحة واللسان والعارضة " <sup>(١)</sup> .

فقد أخذ اللغة والأدب عن أبي عبيدة والأصممي وأبي زيد الانصاري .  
وأخذ النحو عن الأخفش .  
وأخذ الكلام عن النظام .

" وكان يذهب إلى مربد البصرة ليأخذ عن العرب شفاهًا " <sup>(٢)</sup> .  
وأدت له الثقافة اليونانية عن طريق علماء الكلام ومشافهته لحنين بن إسحق وسلمويه وأمثالهما ، وحقق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع ، وأخذه عن أبي عبيدة ، وتوسيع في الثقافات كلها بما كان يقرأ من الكتب كلها " <sup>(٣)</sup> .

فلم يكن يقع في يده كتاب إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، وكان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر ، وعلم الجاحظ وثقافته من الأمور التي لا تخفي على أحد ، وقد وصلنا جانبُ كبير من علمه من خلال كتبه التي بين أيدينا ، وإنها

---

(١) محمد عبد المنعم خفاجي ، الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ط ١ ، القاهرة ، سنة ١٩٥٤ م ، نشر رابطة الحديث ، ص ٣٠٥ .

(٢) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة ١٩٩٨ م ، طبعة سنة ٢٠٠٢ م ، ١ / ٤٠٣ .

(٣) نفسه : ١ / ٤٠٣ .

لتسهل بشكل واضح بموسوعية علمه ، وشمولية ثقافته ، التي مكنته من الحديث في كل شيء تقريباً ، " فثقافة الجاحظ ثقافة واسعة منوعة ، تحيط بسائر ألوان الثقافات المختلفة التي ما زلت الثقافة الإسلامية في عصرها ، فهو عالم من علماء الدين ، ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين ، وعالم يحيط باللغة وبيانها وأدابها إحاطة لا تقف عند غاية ؛ وقد خاض الجاحظ في جداول الثقافات الأخرى " <sup>(١)</sup> .

ولا نريد إسهاباً في الحديث عن علم الجاحظ ، " وحسبك أن المؤمن كان يقرأ تأليف الجاحظ ويثني عليها ويستجدها " <sup>(٢)</sup> .

أما كتابه - الحيوان والبيان والتبيين - فهما من أمهات كتب الأدب ، ولن نتحدث عن محتوى الكتابين ، لأنهما من الكتب الشهيرة ، ومحتواهما ذائع مشهور بين العلماء والمفكرين ، مما يجعل الحديث عن ذلك في هذا المقام يعد من وجهة نظر الباحث من فضول القول ، ويخرج بنا عن منهجية بحثنا هذا ؛ لأن بغيتي أن أثبت شيئاً من الدور إن لم يكن الفضل في إخراج هذين الكتابين إلى الناس إن ثمة دورُ أو فضلُ .

وأول ما يريد الباحث إقراره هنا والتأكيد عليه ، أن الكتابين قد ألفا في نهاية العصر العباسي ( ١٣٢ - ٢٣٢ هـ ) ، أما عن كتاب الحيوان فإن الجاحظ أهداه إلى صديقه الوزير محمد بن عبد الملك الزيارات ، وفي ذلك يقول الجاحظ نفسه : " أهديت كتاب الحيوان لمحمد عبد الملك الزيارات فأعطاني خمسة آلاف دينار " <sup>(٣)</sup> . فإذا عرفنا أن ابن الزيارات قد وزر للمعتصم ثم الواقف ، ثم فترة قصيرة للمتوكل أدركنا أنه كتب الكتاب بينما كان ابن الزيارات متمناً من الوزارة ، خاصة وأن ابن الزيارات قد نكتب سنة ٢٣٢ هـ ، وكان قد أهدى الكتاب إليه ، فإن هذا

(١) محمد عبد المنعم خفاجي ، الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ط ١ ، القاهرة ، نشر رابطة الأدب الحديث ، ص ٣٠٧ .

(٢) أبو عثمان عمرو الجاحظ ، البيان والتبيين ، بيروت ، طبعه درا الكتب العلمية ، ط سنة ١٩٢٧ ، نشر السنديوي ، ٢١١/٣ .

(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، القاهرة ، دار المؤمن ، ١٦ / ١٠٦ .

الإهداء كان بمثابة الاعتراف بفضل ما للمُهدى إليه إلى حد ما ، وكان من الضروري التدقيق في شخصية ابن الزيات نفسها لنرى اهتمامه بالعلم من عدمه ، فإذا بالعلماء يثنون عليه ثناءً حسناً ، في رعايته للعلماء ، يقول عنه جورجي زيدان مبيناً دوره في حركه النقل والترجمة " وَمِنْ بَذَلُوا الْمَالَ فِي نَقْلِ الْعِلْمِ غَيْرِ الْخَلْفَاءِ ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَالِ الْزَّيَّاتُ ، كَانَ يَقْارِبُ عَطَاوَهُ لِلنَّفْلَةِ وَالنَّسَاخِ أَلْفَى دِينَارٍ فِي الشَّهْرِ ، وَنَقْلَتْ بِاسْمِهِ كُتُبٌ عَدِيدَةٌ " <sup>(١)</sup> .

فقد كان اهتمامه بالعلم والعلماء كبيراً ، وبالجاحظ على وجه الخصوص فقد صحب الجاحظ هذا الوزير ، ولازمه طوال وزاراته الثلاثة ، لاهتمامه البالغ به ، ورعايته له ، بل لاهتمامه بالعلم بصفة عامة ، فإذا عرفنا أن هذا الوزير المحب للعلم ، المؤثر لمراقبة العلماء ، قد أعطى الجاحظ من الأموال ما يكفيه لسد حاجته المادية بشكل مباشر ، أدركنا دروه على الجاحظ خاصة ، جاء في طبقات المعترلة: أن الجاحظ " اتصل بابن الزيات فأقطعه أربعينائة جريب في الأعلى ، وهي التي تعرف بالجاحظية " <sup>(٢)</sup> .

فإذا تأكينا من هذا الاهتمام البالغ بالجاحظ من قبل الوزير ، ثم تأكينا أن الجاحظ لازمه كما يقول أحمد فريد الرفاعي عن هذه الملازمة " ثم انقطع - أي الجاحظ - إلى إلى محمد بن عبد الملك الزيات طوال وزاراته الثلاث " <sup>(٣)</sup> ، أقول إذا تأكينا من هذه الرعاية وهذه الملازمة ، ثم بعد ذلك هذا الإهداء أمكننا التوصل إلى شيء قريب من اليقين بفضل ما للوزير على الجاحظ عامة ، وعلى كتابة الحيوان خاصة .

أما كتابه البيان والتبيين ، فقد أهداه الجاحظ إلى ألدّ أعداء محمد بن عبد الملك الزيات ، وأعني به القاضي أحمد بن أبي دؤاد ، وهذا أمر يبعث على الدهشة التي لا تزول إلا إذا عرفنا أن الجاحظ " سبق إلى (أحمد بن أبي دؤاد)

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ، القاهرة ، دار الهلال ، طبعة راجعها وعلق عليها / حسن مؤنس ، ٣ / ١٧٠ .

(٢) ابن المرتضى ، طبقات المعترلة ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، سنة ١٩٦١ م ، ص ٦٩ .

(٣) عصر المؤمن ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ م ، ١ ، ٣٣٢ .

مغلولاً ، لأنه كان من أصحاب محمد بن عبد الملك ، ثم فك قيوده ، وطلب حديثه وبيانه ، وثوقا منه بظرفه وأدبه لا بإخلاصه وولاته " <sup>(١)</sup> .

ويرى الباحث أن إهداء الجاحظ كتاب البيان والتبيين إلى القاضي ، إنما هو نوع من التودد إليه خوفاً من بطشه ليس إلا ، لأنني لم أجد بينه وبين القاضي صدقة ذات بال كما كان الحال مع الوزير ، خاصة أن للجاحظ رسالة يستعطف فيها قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد خوفاً من تكيله به ، لكن القاضي على أية حالة يرضي عنه ، ويسمح له بمجالسته ، ومسامرته ، ثم إذا بالرجل يضاعف جهده ويخرج هذا الكتاب العالى القيمة ، ويستعطفه به بشكل عملى هو إهداوه إليه ، فيعطيه القاضي خمسة آلاف دينار ، كما جاء في معجم ياقوت الحموي .

إذاً فإن لرجال الحكم دوراً ما في إخراج هذين الكتابين المهمين اللذين أثثى عليهما مؤرخو الآداب في كل العصور ، وإن كان الجاحظ هو صاحب الفضل الأكبر لا شك في ذلك ، بشخصية المحبة للعلم والثقافة ، المثابرة في التحصيل والتأليف ، العظيمة ، التي تركت أثراً كبيراً في مسيرة الأدب إيداعاً وتأريخاً ، وإن كان هذا لا يمنع أن يكون للحكم العباسي ممثلاً في أحد وزرائه وهو محمد بن عبد الملك الزيات ، وقاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد دور ما ، بشكل أو بآخر في إنتاج الجاحظ كتابيه ، اللذين أفاد منها الأدب إفادات عظيمة .

---

(١) محمد عبد المنعم خفاجي ، الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ط ١ ، القاهرة ، نشر رابطة الأدب الحديث ، ص ٣٠٦ .

## المبحث الثالث - الدور السياسي

مفهوم السياسة من وجهة النظر الإسلامية يعني : تدبير شؤون الأمة حسب التعاليم الإسلامية ، التي تتناول الجوانب الدينية والدنيوية معاً ، " ذلك أن الإسلام كما فهمه المسلمون الأولون - دين وسياسة ، عقيدة ونظام ، فالدين والسياسة متلازمان في الشريعة الإسلامية " <sup>(١)</sup> .

وقد قام الحكام العباسيون بهذا الدور إلى حد كبير ، فلم يفصلوا الدين عن الدولة ، بل ظلوا ذا بين عن الدين ، كما حافظوا على كرسي الخلافة في عهود قوتهم ، فالمهدي يتبع الزنادقة ويستأصل شأفتهم ، والرشيد يحج عاماً ويغزو عاماً ، والمعتصم يجيش الجيوش لنجدة امرأة مسلمة في أيدي العدو ، وغير هذه المواقف التي يتضح من خلالها حفاظ الحكام على تعاليم الدين ، ومحاربة أعدائها ، والقيام بتعاليمه ، والانتهاء عند نواهيه إلى حد كبير ، وإن كان لهم تجاوزاتهم الدينية ، ومخالفاتهم البسيطة ، مما هي إلا شهوات ، لا تمس عقيدة الإيمان الحقيقة في شيء حسب تصوري ، وكما حافظوا على تعاليم الدين ، فإنهم أهرقوا أنهاراً من الدماء من أجل كرسي الخلافة ، ولا يمكن للتاريخ أن ينسى آلاف الأرواح التي أزهقتها السفاح ، ثم المنصور ، ثم الأمين والمأمون ، من أجل هذا المنصب المهم منصف الخليفة .

أما ما يود الباحث الحديث عنه في هذا الموضوع من البحث ، فهو ما قامت به السياسة من دور في خدمة الأدب ، وما قام به حكام العباسيين أنفسهم من تحريك لقرائح الشعراء والأدباء للمشاركة في القضايا السياسية بفنهم وأدبهم ، ومن إثارة موضوعات يتغنى بها الشعر في قصائدهم ومقطوعاتهم ، بشكل مباشر مقصود ، يتمثل في قصائد المدح التي خبرها الشعراء بتشجيع من الحكام أنفسهم ، مغنيين فيها بانتصارات هؤلاء الحكام في حروبهم السياسية داخلياً وخارجياً ، من

---

(١) صلاح الدين الهادي ، اتجاهات الشعر في العصر الأموي ، القاهرة ، دار الثقافة العربية ، سنة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م ، ص ٨٠ .

أمثال قصائد مروان بن أبي حفصة في المهدى والرشيد ، وفي معن بن زائدة الشيباني وجعفر بن يحيى البرمكي وغيرهم ، وأمثال علي بن جبلة العكوك في قصائده في أبي دلف العجلاني ، وفي حميد الطوسي ، وأبو تمام وشعره العظيم الذي ساير الأحداث السياسية والانتصارات العباسية ، وأشهر قصائده حين فتح الله المسلمين عمورية علي يد أبي إسحق المعتصم ، وغير هؤلاء من الشعراء ممن يطول المقام بحصرهم جميعاً ، أو الذود عن أحقيبة العباسيين بالخلافة ، وما يتطلبه ذلك من حجج منطقية ، وبراهين عقلية ، كما يقول مروان بن أبي حفصة في قصيدة يمدح بها المهدى :<sup>(١)</sup>

يَابْنَ الَّذِي وَرَثَ النَّبِيَّ مُحَمَّداً .: دُونَ الْأَقْرَبِ مِنْ نَوْيِ الْأَرْحَامِ  
الْوَحْيُ بَيْنَ بْنِي الْبَنَاتِ وَبَيْنَكُمْ .: قَطْعَ الْخِصَامَ فَلَاتَ حِينَ خِصَامٍ  
مَا لِلنِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ فَرِيْضَةٌ .: نَزَّلَتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الْأَنْعَامِ  
أَنَّ يَكُونُ وَكِيسٌ ذَاكَ بَكَائِنٌ .: لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرَاثَةُ الْأَعْمَامِ

وقد أجاد مروان بن أبي حفصة في هذا الموضوع ، بينما استخدم البراهين والأدلة من القرآن الكريم للتدليل على أحقيبة العباسيين في الخلافة .

وقد كان الصراع على الخلافة ميداناً فسيحاً تسابق فيه الشعراة ، يمدحون هذا ، ويذمرون ذاك ، ويبرهنون على أحقيته هذا ويبعدون الأحقية عن ذاك ، مما جعل ذلك باباً طويلاً من الأبواب التي أخرجت لنا كماً وافراً من الشعر الذي يدور في فلك السياسة بشكل أو بآخر .

فهذا سلم الخاسر يمدح الرشيد حين عقد البيعة للأمين بولاية العهد :

قَدْ وَفَقَ اللَّهُ الْخَلِيفَةُ إِذْ بَنَى .: بَيْتَ الْخَلِيفَةِ لِلْهَجَانِ الْأَرْهَرِ  
فَهُوَ الْخَلِيفَةُ عَنْ أَبِيهِ وَجَدِهِ .: شَهِدَ عَلَيْهِ بِمَنْظَرٍ وَبِمَخْبَرٍ  
قَدْ بَأَيَّ الثَّقَلَانِ فِيْ مَهْدِ الْهُدَىِ .: لِمُحَمَّدِ بْنِ زُبِيْدَةِ ابْنَةِ جَعْفَرِ<sup>(٢)</sup>

(١) مروان بن أبي حفصة ، ديوان ، ط ٣ ، دار المعرف ، جمع وتحقيق وتقديم حسين عطوان ، ص ١٠٤.

(٢) أبو جعفر محمد جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، دار المعرف ، سنة ١٩٦٦ م تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٨ / ٢٤٠ .

ويقول منصور النمري أيضاً :

أَمْسَتْ بِمَرْوِ عَلَى التَّوْفِيقِ قَدْ صَفَقَتْ . . عَلَى يَدِ الْفَضْلِ أَيْدِيْ الْعُجْمِ وَالْعَرَبِ  
بِبِيَّنَةٍ لِوَلِيِّ الْعَهْدِ أَحْكَمَهَا . . بِالنُّصْحِ مِنْهُ وَبِالإِشْفَاقِ وَالْحَدَبِ  
قَدْ وَكَدَ الْفَضْلُ عَقْدًا لَا اِنْتِقَاضَ لَهُ . . لِمُصْنُطَفِي مِنْ بَنِيِّ الْعَبَّاسِ مُنْتَخَبٌ<sup>(١)</sup>

ثم يكتب الرشيد عهداً بعد ذلك لأبناءه الثلاثة ، الأمين ، ثم المأمون ، ثم القاسم ، فينبني الشعرا على الفور يحمدون هذا المبايعة ، فيقول سلم الخاير :

بَايَعَ هَارُونَ إِمَامُ الْهُدَى . . لِذِي الْحِجَّى وَالْخُلُقِ الْفَاضِلِ  
الْمُخْلِفِ الْمُتَّلِفِ أَمْوَالَهُ . . وَالضَّامِنِ الْأَتْقَالَ لِلْحَامِلِ  
وَالْعَالَمِ النَّافِذِ فِي عِلْمِهِ . . وَالْحَاكِمِ الْفَاضِلِ وَالْعَادِلِ  
فَتَمَّ بِالْمَأْمُونِ نُورُ الْهُدَى . . وَانْكَشَفَ الْجَهْلُ عَنِ الْجَاهِلِ<sup>(٢)</sup>

وقال عبد الملك بن صالح :

حُبُّ الْخَلِيفَةِ حُبُّ لَا يُدِينُ بِهِ . . مَنْ كَانَ اللَّهَ عَاصِي يَعْمَلُ الْفِتَنَ  
اللَّهُ قَدَّ هَارُونَا سِيَّاسَتَنَا . . لَمَّا اصْطَفَاهُ فَأَحْيَا الدِّينَ وَالسُّنَّةَ  
وَقَدَّ الْأَرْضَ هَارُونَ لِرَأْفَتِهِ . . بِنَا أَمِينًا وَمَأْمُونًا وَمُؤْتَمِنًا<sup>(٣)</sup>

ولما بايع الأمين لابنه موسى قال شاعر من أهل بغداد :

أَضَاعَ الْخِلَافَةَ غِشَّ الْوَزِيرِ . . وَفَسَقَ الْإِمَامَ وَجَهَلَ الْمُشَيرِ  
فَفَضَّلَ وَزِيرٌ وَبَكْرٌ مُشَيرٌ . . يُرِيدَانَ مَا فِيهِ حَتْفُ الْأَمِيرِ  
لُوَاطُ الْخَلِيفَةِ أَعْجُوبَةٌ . . وَأَعْجَبُ مِنْهُ خَلَاقُ الْوَزِيرِ  
فَهَذَا يَدُوسُ وَهَذَا يُدَاسُ . . كَذَكَ لِعَمْرِيْ اخْتِلَافُ الْأُمُورِ<sup>(٤)</sup>

. (١) نفسه : ٨ / ٢٤٠

. (٢) نفسه : ٨ / ٢٧٦

. (٣) نفسه : ٨ / ٢٧٦

. (٤) نفسه : ٨ / ٣٩٦

بل إن شاعراً آخر يهجو الأمين نفسه هجاءً مُرّاً ، ويرى عدم أحقيته في الخلافة نفسها فيقول :

لِمَ نَبْكِيْكَ لِمَاذَا ؟ لِلْطَّرَبِ .: يَا أَبَا مُوسَى وَتَرْوِيْحَ الْعَبْ  
وَلَتَرْكِ الْخَمْسَ فِي أَوْقَاتِهَا .: حَرَصًا مِنْكَ عَلَى مَاءِ الْغَبْ  
لَمْ تَكُنْ تَصْلُحُ لِلْمُلْكِ وَلَمْ .: تُعْطِكَ الطَّاعَةَ بِالْمُلْكِ الْعَرَبِ  
أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْنَا قَاتِلَهُ .: فَإِذَا مَا أَوْجَبَ الْأَمْرَ وَجَبَ  
كَانَ وَاللَّهُ عَلَيْنَا فِتْنَةٌ .: غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَكَتَبَ<sup>(١)</sup>

وعلى هذا الحال ، لا يزال الصراع على كرسي الخلافة مصدر قول للشعراء ، ما بين مؤيد ل الخليفة ما وعارض له ، ولا ننسى أن هذا الصراع على الكرسي بين الخلفاء وولاة العهود ، قد تسبب في نكبة بعض الشعراء ، فها هو أو ن الخليفة الشاعر يغرى المنصور بخلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ، وبعقده لابنه المهدي فيكون ثمن هذا الأغراء حياته<sup>(٢)</sup> .

إذاً فإن هذه الأحوال السياسية ، قد تركت لنا كما غير قليل من الشعر ، نتحدث عنها بتدقيق أكثر عن الحديث عن دور الحكام في أغراض الشعر العباسي.

ولم يكن دور الحكم السياسي مقتصرًا على الصراع على كرسي الخلافة فقط ، وإنما اتسع هذا الدور ليشمل غير ذلك من الصراعات داخل البيت العباسي نفسه ، كالصراعات المذهبية ، والدينية ، فهذا شيعي ، وهذا سني ، وذاك ماجن مستهر ، وهذا تقيٌ ورع ، وغيره مغني ... إلى غير ذلك ، وقد خاض الشعراء في كل هذه الاضطرابات السياسية ، وأبدعوا فيها القول ، لكن بباباً سياسياً أوسع من ذلك كان مفتوحاً أمام الشعراء ، قالوا فيه فأبدعوا ، وجاءت قرائتهم على أعلى ما تكون الإجاده ، وهو فن تاريخ الانتصارات السياسية الكبيرة - إذا صح القول - فلقد

(١) نفسه : ٨ / ٥٠٠ .

(٢) أبو الفرج على بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ ، طبعة كاملة محررة معها فهرس بإشراف وتحقيق / إبراهيم الإيباري ، ٢٣ / ٨١٠٧ .

مدحوا القواد والخلفاء والوزراء بقصائد مملوءة صدقًا شعوريًا ، لم يلو الشاعر بها عنق قريحته ، لأن الانتصارات السياسية يكون الشاعر فيها جزءاً من المنتصرين كمدوحه تماماً ، فيمدحه مدحًا صادقاً ، فلم تقت الشعراء معركة حربية انتصر فيها العباسيون إلا وجدنا الشعراء يرصدون لنا تفاصيلها فهذا علي بن جبلة يصف جيشاً للمسلمين على قيادته حميد الطوسي ، يقول :

غَدَا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَيَمْنَهِ .: أَبُو غَاتِمٍ غَدُوا النَّدِي وَالسَّحَابِ  
وَضَاقَتْ فِجَاحُ الْأَرْضِ عَنْ كُلِّ مَوْكِبٍ .: أَحَاطَ بِهِ مُسْتَعْلِياً لِلْمَوَاكِبِ  
كَانَ سُمُّوَ النَّقْعَ وَالْبَيْضَ تَحْتَهُ .: سَمَاوَاتُ لَيْلٍ أَسْفَرَتْ عَنْ كَوَافِبِ<sup>(١)</sup>

ومروان بن أبي حفصة يمدح الفضل بن يحيى البرمكي حين قبضي على عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فيقول :

ظَفَرْتَ فَلَاشْتَأْتَ يَدْ بَرْمَكِيَّةِ .: رَتَقْتَ بِهَا الْفَتَقَ الَّذِي بَيْنَ هَاشِمٍ  
عَلَى حِينَ أَعْيَا الرَّاتِقِينَ التِّئَامِةِ .: فَكَفُّوا وَقَالُوا لَيْسَ بِالْمُتَلِاثِمِ  
فَأَصْبَحْتَ قَدْ فَازَتْ يَدَكَ بَخْطَةِ .: مِنَ الْمَجْدِ بَاقِ ذِكْرُهَا فِي الْمَوَاسِمِ  
وَمَازَالَ قَدْحُ الْمُلْكِ يَخْرُجُ فَائِزاً .: لَكُمْ كُلُّمَا ضُمِّتْ قَدَاحُ الْمُسَاهِمِ<sup>(٢)</sup>

ولما ظفر الأشين قائد المعتصم ببابك الخرمي ، أدخل المعتصم عليه الشعرا  
يمدحونه ، وأمر لهم بصلات ، فقال فيه أبو تمام :

بَذَ الْجَلَادُ الْبَذَ فَهُوَ دَفِينُ .: مَا إِنْ بِهِ إِلَّا الْوُحُوشُ قَطِينُ  
لَمْ يَقْرِرْ هَذَا السَّيفُ هَذَا الصَّبْرُ فِي .: هَيْجَاءَ إِلَّا عَزَّ هَذَا الدِّينُ  
قَدْ كَانَ عُذْرَةَ سُودَدِ فَاقْتَضَهَا .: بِالسَّيْفِ فَحْلُ الْمَشْرُقِ الْأَفْشِينُ<sup>(٣)</sup>

ثم تشتهر زندقة الأشين ، فيفتاك به المعتصم ، وفيها يقول أبو تمام :

**الْحَقُّ أَبْلَحُ وَالسُّيُوفُ عَوَارٌ .: فَحَذَارٌ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارٌ**

(١) علي بن جليلة ، ديوانه ، ط ٣ ، دار المعرف ، جمع وتحقيق وتقديم ، حسين عطوان ، ص ٣ .

(٢) مروان بن أبي حفصة ، ديوان ، ط ٣ ، دار المعرف ، جمع وتحقيق وتقديم حسين عطوان ، ص ١٠٣ .

(٣) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل ، والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، ط دار المعرف ، سنة

١٩٦٦ م ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٩ / ٥٥ .

والتي يقول فيها :

جَالَتْ بِخَيْرٍ جَوَاهِةُ الْمَقْدَارِ .: فَأَحَلَّهُ الطُّغْيَانُ دَارَ بَوَارِ  
كَمْ نِعْمَةٌ لِلَّهِ كَانَتْ عِنْدَهُ .: فَكَانَهُ أَفِي غُرْبَةٍ وَإِسَارَ  
كُسْبَيْتُ سَبَابِيْنُ لُؤْمِهِ فَتَضَاعَتْ .: كَتَضَاعُلُ الْحَسْنَاءِ فِي الْأَطْمَارِ  
مَا زَالَ سِرُّ الْكُفْرِ بَيْنَ ضُلُوعِهِ .: حَتَّى اصْطُلَى سِرُّ الزَّنَادِ الْوَارِي<sup>(١)</sup>  
وَعَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ ، تَابَعَ الشُّعَرَاءُ الانتِصَارَاتِ السِّيَاسِيَّةِ ، وَأَرْخَوْا لَهَا تَارِيْخًا  
أَدِيبًا ، يحيطُ بِكُلِّ انتِصارٍ سِيَاسِيًّا ، سَوَاءً أَكَانَ عَسْكُريًّا أَمْ مَذْهِبِيًّا .

وَلَمْ يَقْتَصِرْ الْأَمْرُ عَلَى هَذِهِ الْمَدْحِ السِّيَاسِيِّ الَّذِي تَتَبَعُ فِيهِ الشُّعَرَاءُ  
الانتِصَارَاتِ الْحَكَامِ ، فَكَانَ مِيدَانًا فَسِيحًا مِنْ مِيَادِينِ القَوْلِ ، وَلَكِنَّ الْمَشَارِكَةَ تَحْتَ  
نَحْوًا آخَرَ ، تَجَاهَ رَثَاءَ الْقَادِهِ الْعَظَامِ الَّذِينَ سَقَطُوا شَهِداءَ فِي الْمَعَارِكِ الَّتِي خَاضَتْهَا  
الْدُّولَةُ ضَدَّ أَعْدَائِهَا ، فَمَا مِنْ قَائِدٍ مَرْمُوقٍ يَسُقطُ أَوْ خَلِيفَةٍ يَمُوتُ ؛ إِلَّا وَيَنْبَرِي  
الشُّعَرَاءُ فِي رَثَائِهِ بِعَوْاطِفٍ مُلْتَهِبَةٍ حِينًا ، وَبَارِدَةٍ حِينًا آخَرَ ، فَهَذَا عَلَيْهِ بْنُ جَبَلَةَ  
يَرْثَى حَمِيدًا الطَّوْسِيَّ فَيَقُولُ :

اللَّدَّهُرُ تَبْكِيْ أَمْ عَلَى الدَّهْرِ تَجْزَعُ .: وَمَا صَاحِبُ الْأَيَّامِ إِلَّا مُفْجَعٌ  
وَلَوْ سَهَلَتْ عَنْكَ الْأَسَى كَانَ فِي الْأَسَى .: عَزَاءُ مُعَزٍّ لِلْبَيْبَ وَمَقْتَعُ  
تَعَزَّ بِمَا عَزَّيْتَ غَيْرَكَ إِنَّهَا .: سِهَامُ الْمَنَايَا رَأِحَاتٌ وَوَقْعٌ<sup>(٢)</sup>  
وَلَقَدْ مَدَحَ الشُّعَرَاءُ حَمِيدًا فَأَكْثَرُهُوا ، ثُمَّ سَقَطَ شَهِيدًا بِصُورَةٍ مُفَاجَئَةٍ ، جَعَلَتْ  
الشُّعَرَاءَ يَبْكُونَهُ بِكَاءً مُرْمًا ، لَمْ يَحْظُ كَثِيرُونَ بِمَثَلِ رَثَائِهِ .

وَهَذَا مَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ يَرْثَى مَعْنَى بْنَ زَيْدَ الشَّبِيَّانِيَّ فَيَقُولُ :

مَضَى لِسَبِيلِهِ مَعْنٌ وَأَبْقَى .: مَكَارِمُ لَنْ تَبِعْدَ وَلَنْ تُنَالَ  
كَانَ الشَّمْسَ يَوْمَ أَصَبَّ مَعْنٌ .: مِنَ الْإِظْلَامِ مُلْبَسَةُ جَلاَّ  
هُوَ الْجَبَلُ الَّذِيْ كَانَتْ نَزَارٌ .: تَهُدُّ مِنَ الْعَدُوِّ بِهِ الْجِبَالَ  
وَكَانَ النَّاسُ كُنْهُمُ لِمَعْنٍ .: إِلَى أَنْ دَارَ حُفْرَتَهُ عِيَالًا<sup>(١)</sup>

(١) أبو تمام ، ديوان ، ط ٤ ، القاهرة ، دار المعرف ، تحقيق / محمد عبده عزام ، ج ٣٠١/١ .

(٢) علي بن جبلة ، ديوان ، ط ٣ ، دار المعرف ، جمع وتحقيق وتقديم حسين عطوان ، ص ٨١ .

وهكذا انبري الشعراً يبكون الأبطال والقادات السياسيين ، وإن كان مطمح الشاعر من رثائه نوالاً أو غيره ، فإن ذلك أمر آخر ، فهو رثاء سياسي على أية حال ، شارك فيه الحاكم - وإن كان ميتاً - الشاعر في الدور الذي من أجله ولد الفن ، بشجاعته ، أو بكرمه الزائد قبل موته أو بشهرة شخصيته .

ومن الحكام العباسيين الذين رثاهم الشعراً رثاء حاراً قد لا ينساه الزمن ، وزراء الرشيد البرامكة ، فقد كانوا أيادي سخية ، أفاد منها الناس بكافة مستوياتهم ، حتى إذا نكبووا تركوا في الناس حسرة كبيرة ، وألماً واسعاً ، فجّرَ ينابيع الشعر عند الشعراً ، فغدوا يصرخون عليهم أشد الصراخ من شعراً ليسوا من الشهرة بمكان ، فهذا شاعر ذكره الطبرى في تاريخه لم يذكر اسمه يقول :

*هَوَتْ أَنْجُمُ الْجَدْوَىْ وَشُلْتْ يَدُ النَّدَىْ .: وَغَاصَتْ بُحُورُ الْجُودِ بَعْدَ الْبَرَامِكِ  
هَوَتْ أَنْجُمُ كَانَتْ لِأَبْنَاءِ بَرْمَكِ .: بِهَا يَعْرِفُ الْحَادِيُّ طَرِيقَ الْمَسَالِكِ*<sup>(٢)</sup>

وقد عقد الطبرى باباً في تاريخه لما قيل في البرامكة بعد زوال ملوكهم من الشعر . ولم يقتصر هذا الباب من الرثاء على رثاء الأفراد ، خلفاء أو وزراء أو قواد ، بل وجدنا باباً جديداً من الرثاء يُستحدثُ في الشعر العربي ، وهو بكاء المدن الزاهرة، يقول الطاهر أحمد مكي : "بكاء المدن الزاهرة شعراً حين تأتي عليها الفتنة المدمرة ، والممالك حين تذهب بها الثورات العاتية ، له أصولٌ مشرقية ، أول ما نلقي بها في تلك الدموع الغزيرة التي ذرفها الشعراً على بغداد أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون عام ١٩٧ هـ ، حين حاصرها طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون ، ولاقت خلاله بلاء شديداً ، يعجز عنه الوصف<sup>(٣)</sup>. وقد صور الشعراً هذه النكبة بدقة ، وجسدوها صوراً حية ، فوقعه يوم الأحد ، يقول الشاعر عنها :

*وَقَعَةٌ يَوْمَ الْأَحَدِ .: صَارَتْ حَدِيثَ الْأَبَدِ  
كَمْ جَسَدٍ أَبْصَرْتُهُ .: مُلْقَىً وَكَمْ مِنْ جَسَدٍ  
وَنَاظِرٌ كَانَتْ لَهُ .: مَيَّةٌ*

(١) مروان بن أبي حفصة ، ديوان ، ط ٣ ، دار المعارف ، جمع وتحقيق وتقديم حسن عطوان ، ص ٧٩.

(٢) ٣٠١/٨ .

(٣) دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، ط ٣ ، القاهرة ، دار المعارف ، ص ٢٠١ .

أَتَاهُ سَهْمٌ غَائِرٌ .: فَشَقَ جَوْفَ الْكَبَدِ  
وَصَائِحَ يَا وَالِدِي .: وَصَائِحَ يَا وَالِدِي<sup>(١)</sup>  
ويقول آخر في وقعة يوم السبت :  
وقعة السَّبْتِ يَوْمَ دَرْبِ الْجَارَةِ .: قَطَعَتْ قَطْعَةً مِنَ النَّظَارَةِ  
ذَاكَ مِنْ بَعْدِ مَا تَفَانَوا وَلَكَنْ .: أَهْلَكَتْهُمْ غَوْغَائِنَا بِالْجَارَةِ<sup>(٢)</sup>  
وبعد كثير من الوقعات يتم تدمير المدينة الزاهرة تدميراً شديداً ، ويبيكيها الشعرا  
في أشعارهم ، وفيها يقول العترى :

مَنْ ذَا أَصَابَكِ يَا بَغْدَادُ بِالْعَيْنِ !  
أَلْمَ تَكُونِي زَمَانًا قُرَّةَ الْعَيْنِ ! .: أَلْمَ يَكُنْ فِيْكِ قَوْمٌ كَانَ مَسْكُنُهُمْ !  
وَكَانَ قُرْبُهُمْ زَيْنًا مِنَ الْزَّيْنِ ! .: مَاذَا لَقِيتَ بِهِمْ مِنْ لَوْعَةِ الْبَيْنِ !  
صَاحَ الْغُرَابُ بِهِمْ الْبَيْنِ فَافْتَرَقُوا .: إِلَّا تَحَدَّرَ مَاءُ الْعَيْنِ مِنْ عَيْنِي  
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ قَوْمًا مَا ذَكَرْتُهُمْ .: كَانُوا فَرَقْهُمْ دَهْرٌ وَصَادَعُهُمْ .: وَالَّدَّهُرُ يَصْدَعُ مَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ<sup>(٣)</sup>

وببيكيها الخريمي \*<sup>(٤)</sup> في قصيدة طويلة يقول فيها :

فَإِنَّهَا أَصْبَحَتْ خَلِيَا مِنَ الْمِ .: إِنْسَانٌ قَدْ أَدْمَيَتْ مَحَاجِرُهَا  
قَفْرًا خَلَاءَ تَعْوِيْ الْكِلَابُ بِهَا .: يُنْكِرُ مَنْهَا الرُّسُومُ زَائِرُهَا  
وَأَصْبَحَ الْبُؤْسُ مَا يُفَارِقُهَا .: إِلَّا لَهَا وَالسُّرُورُ هَاجِرُهَا<sup>(٥)</sup>

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ٨ / ٤٦١ .

(٢) نفسه : ٤٦٣/٨ .

(٣) نفسه : ٨ / ٤٤٧ .

(٤) \* هو إسحاق بن حسان بن قوهي الصفدي أبو يعقوب الخريمي ويعقوب الصفدي أصلاً التركي جنساً الخريمي ولاء والصفدكورة قصبتها سمرقند وقيل هما صفدان صفد سمرقند وصفد بخاري . شاعر مطبوع وصفه أبو حاتم السجستاني بأشعار المولدين وخراساني الأصل من أبناء الصفد ولد في الجزية الفراتية وسكن بغداد واتصل بخريم الناعم فنسب إليه أو كان اتصاله بابنه عثمان بن خريم ، ت ٢١٢ هـ . ينظر : خير الدين الزركلى ، الإعلام ، ط ١٠ ، بيروت ، دار العلم للملائين ، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٩٢ . ٢٢٤/١ .

(٥) الطبرى تاريخ الرسل والملوك ، ٨ / ٤٤٩ .

وهكذا غدت السياسة ميداناً فسيحاً من ميادين القول ، قال فيها الشعرا  
 فأجادوا وأثروا ، وقد كان للبيت الحاكم - بصفته مركزاً سياسياً - دورٌ في تحريك  
 هذه الموهاب الشعرية للجري والخوض في الشؤون السياسية ، وبشكل مباشر ،  
 ممثل في المدح وبعض الرثاء ، وغير مباشر في بعض الرثاء ، وفي تصوير  
 المعارك الحربية .

إذاً يمكننا أن نعترف بدور سياسي للحكام العباسيين ، أثرى الحركة الأدبية  
 لما دار في كنفه من أدب رفيع وشعر كثير ، امتلأت به أمهات الكتب ، وبطون  
 الدواوين الشعرية .

# **الفصل الثالث**

**التجدد في الشعر العباسي**

## المبحث الأول

### الاهتمام بالآداب

التطور سنة من سنن الحياة المسلم بها ، فالنظريات العلمية الكبرى لم تكتشف طفرة واحدة ، فما دام عقل الإنسان قادرًا على التفكير ، فلن ينتهي التطور ، ولن يتوقف التجديد ، وليس هذا في نظريات العلم التجريبي فقط ؛ بل في مجال الفكر والفن أيضًا ، فإن التطور في مجالها لن يتوقف ، والتجدد لن يصل إلى نهاية ، ما دام الإنسان يبدع ويتقن في مجالات الفكر والفن المختلفة . والأدب من هذه الأشياء التي تتسع وهذه النظريات بلا شـأك ، فتطوره مستمر عبر العصور ، والتجدد فيه لا يتوقف ، وفي الفترات التي كانت تحدث له انتكasaة عبر تاريخه الطويل ، فإنه ما يفتـأ يستيقـق ، ويـكمل مـسيرة تـطـورـه ، وقد حدـثـتـ هذهـ الـانـتكـاسـةـ لـلـأـدـبـ الـعـرـبـيـ فـيـ بـعـضـ الـعـصـورـ ،ـ ثـمـ إـذـاـ بـهـ يـنـطـلـقـ فـيـ مـسـيـرـةـ الـتـطـورـ وـالـتـجـدـيدـ عـبـرـ الـأـيـامـ وـالـسـنـوـاتـ .

ومن الطبيعي أن يتأثر الأدب - إيجاباً أو سلباً - بالدول والحكومات التي يعيش في ظلها ، فما كان جائزًا في عصر ما ؛ يصبح غير جائز ولا مقبول في عصر آخر " فالفضائل التي كان يمدح بها الجاهلي ، دخلها شيء من التعديل من وجهة النظر الإسلامية ، فوصف الممدوح بالفتوة ، وشرب الراح والمقامرة ، والإقبال على الشهوات ، أصبح من المساوى والرذائل التي ينبغي للمسلم أن يتبعها ويتخاشاها لينجو بدينه " <sup>(١)</sup> .

فـلـمـاـ اـسـتـظـلـ النـاسـ بـظـلـ الـإـسـلـامـ -ـ وـأـصـبـحـ لـهـ حـكـومـةـ -ـ إـنـ صـحـ التـعبـيرـ -ـ أـوـ أـصـبـحـ لـهـ نـظـامـ ،ـ تـحـولـ مـاـ كـانـ مـدـحـاـ إـلـىـ ذـمـ ،ـ وـهـكـذاـ ..ـ ،ـ يـتـأـثرـ الـأـدـبـ فـيـ مـوـضـوـعـاتـ بـالـحـكـومـاتـ التـيـ خـضـعـ لـهـ قـائـلـوـهـ ،ـ وـيـسـرـىـ هـذـاـ الـأـمـرـ فـيـ تـطـورـ الـأـدـبـ أـيـضاـ ،ـ فـقـدـ يـزـدـهـرـ وـيـنـشـطـ فـيـ ظـلـ دـوـلـةـ مـاـ ،ـ أـوـ يـنـكـمـشـ وـيـنـحـسـرـ فـيـ ظـلـ دـوـلـةـ أـخـرىـ ،ـ بـلـ إـنـيـ أـرـىـ أـنـ حـاـكـمـاـ وـاحـدـاـ قـدـ تـنـتـضـحـ آـثـارـهـ فـيـ الـأـدـبـ إـذـاـ قـوـرـنـ بـحاـكـمـ آـخـرـ فـيـ نـفـسـ الدـوـلـةـ ،ـ وـقـدـ يـزـدـهـرـ غـرـضـ مـنـ أـغـرـاضـ الـشـعـرـ فـيـ ظـلـ حـاـكـمـ مـاـ ،ـ

(١) محمد مصطفى هدارة ، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ط ١ ، بيروت ، مطبعة دار العلوم العربية ، سنة ١٤٠٨ م - ١٩٨٨ م ، ص ٣٩٥ .

على حين ينحصر في ظل حاكم آخر ، وقد كان هذا واضحاً في الدولة العباسية في عصرها (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) .

وقد رأينا أن العصر العباسي قد شهد نهضة ثقافية كبيرة ، يتأثر من افتتاحه على ثقافات مختلفة ، كالثقافة الهندية ، والفارسية ، واليونانية ، بجانب نهضة الثقافة العربية والإسلامية نفسها ، ثم انصهار ذلك كلّه في بوقة واحدة ، جعلت النهضة الثقافية بارزة في هذا العصر عن غيره من العصور قبله ، وترك آثارها في كثير من مناحي الحياة المختلفة بما في ذلك الأدب بشكل خاص .

أما حكام هذا العصر (١٣٢ - ٢٣٣ هـ) ، فقد تحدثنا عن محددات ثقافتهم تفصيلاً ، وأوضحنا شمولية هذه الثقافة عند غالبيتهم ، بسبب اغترافهم الكم الوافر للثقافات المختلفة ، وتشجيعهم للعلماء والأدباء ، ووقفهم كسد للمفكرين والشعراء ، وتوجيهه العلماء والمؤلفين لينضجوا العلوم ، وقد ثبت أن للحكام درواً كبيراً في حركة العلم والأدب ، وما تزال آثارهم تنفع الناس كما نفعتهم في القديم ، ويكتفي أن يعترف كثير من العلماء والمفكرين بالخلفاء العلماء في العصر العباسي (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) .

وقد انفق كثيرٌ من المؤرخين على أن الشعر في العصر العباسي قد تطور تطوراً كبيراً ، يقول محمد عبد العزيز الموافي عند حديثه عن النهضة الثقافية في العصر العباسي " وقد تأثر الشعر بهذه النهضة ، فتطور تطوراً ملحوظاً ، شمل الكثير من جوانبه "(١) .

ويصفه هداره بالتطور الهائل (٢) ، بل إن طه حسين يرى أن " الشعر في أيام بنى العباس قد سلك طريقاً تكاد تخالف كل المخالف طريقة أيام بنى أمية ، فنشأت معان جديدة وذهب الشعراء مذاهب مختلفة في وصف هذه المعاني والتعبير عنها ، ونشأ عن هذه المذاهب المختلفة دروب من التصرف في فنون القول ، والاختيار بين ألوان الكلام "(٣) .

(١) حركة التجديد في الشعر العباسي ، مكتبة الشباب ، سنة ١٩٩١ م ، ص ٥٨ .

(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص ٣٩٤ .

(٣) حديث الأربعاء ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعرف ، ٢٠ / ٢ .

فقد كان تطور الشعر في العصر العباسي (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) من الأمور البارزة ، وشمل هذا التطور الشكل والمضمون . ولقد طالعت دواوين شعراء هذا العصر ، وأخبارهم المنتشرة في أمهات كتب الأدب والتاريخ ، وصلتهم بحكام عصرهم ؛ لمعرفة ما إذا كان للحكام دور أو أثر في أغراض الشعر العباسي أو في توجيهها وجهة ما ، وأرى أن للحكام أثر بارز دور مهم .

في تجديد أغراض الشعر في العصر العباسي (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) فلم تكن معظم الأغراض بمنأى عن بلاط الخليفة أو القائد أو الوزير ، وقد بدأ أثرُ الحكام في هذه الأغراض بدرجة كبيرة .

وإذا ذهبنا نستقصي أهم أغراض الشعر العباسي فإننا سنجد للحكام أثراً في توجيهها وجهة ما ، من ذلك أثرهم في المدح ، وفي الغزل ، والزهد ، والهجاء ، وهي أغراض ، قديمة عرفت قبل العباسيين ، أو الشعر التعليمي ، وشعر الفكاهة والتدر ، والخمريات ، وهي أغراض جديدة ولنذهب مع كل غرض من هذه الأغراض ، نحاول نلمس أثر الحكام في توجيهه وجهة ما أو صبغة بصبغة ما .

### الاهتمام بالمدح :

ظل المدح على رأس أغراض الشعر التي أبدع فيها الشعراء في العصر العباسي (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) ، وقد تحدثنا آنفًا أنه على رأس أغراض الشعر الرسمي ، الذي استثار بالفن كمًا وكيفًا ، وليس هذا بغرير على هذا الغرض بصفة خاصة ، فهو أكثر الأغراض جلباً للأموال ، وأكثرها قرباً من أصحاب السلطان ، وما دام هناك قادر على المنح ومحاج إلى العطاء فلا بد أن يزدهر المدح ، كما يقول الموافي<sup>(١)</sup> ، ولقد أبدع شعراء هذا العصر مطولات في مدح الخلفاء والوزراء ، والقواد ، وولاة العهود ، وأبناء الحكام ، والكتاب ، وغيرهم من الشخصيات التي أحاطت بحكام بنو العباس ، بل مدحوا في بعض الأحيان

---

(١) حركة التجديد في الشعر العباسي ، ص ٦٣ .

بعض الأغنياء ، أو الأصحاب إلى غير ذلك ، وقد مدحوا أيضاً المواقع ،  
والمدن ، والبلدان .

وقد كان لحكام العصر أثر في شعر المديح على وجه الخصوص ، ويمكن تحديد  
دور الحكم فيه في النقاط الآتية :

### الاهتمام بالمدح السياسي :

يصعب فصل الأدب - بمفهومه العام - عن السياسة ، إذ لم يخلُ عصرٌ  
من العصور ، ولم تخل فترة من الفترات من تزاوج بين الأدب والسياسة ،  
فيشارك الساسة والحكام في الأدب أحياناً ، ويشارك الأدباء في السياسة في كثير  
من الأحيان ، وينتج عن هذا التزاوج وهذا التلازم كمٌ وافرٌ من الفن الأدبي ، الذي  
يمكن جعله شبه تأريخ للأحداث السياسية في كثير من العصور ، أما في هذا  
العصر فقد اهتم حكامه بالأدب عامة - كما قلنا آنفاً - واستخدموه سلاحاً داعماً  
لهم في حكمهم بصفة خاصة ، وقد كان المدح من أهم الأغراض التي شجعوا  
الحكام ، وجعلوها تتلون بلون يطربون له ، ويثيبون عليه ، ويطلبون منه المزيد ،  
وقد اتضحت بصمة الخلفاء في شعر المديح ، ممثلة في جعل الخليفة رمزاً دينياً ،  
يضافون عليه غير قليلٍ من القداسة ، يجب على الكل احترامه على أقل تقدير ؛ بل  
تقديسه في بعض الأحيان ، أما طاعته فهي من طاعة الله ، مهما اقترف من  
الذنوب ، أو جنى من الآثام ، من وجهاً نظر كثير من الشعراء .

والدواوين الشعرية وأمهات كتب الأدب مملوءة بالشواهد على ذلك ، فها  
هو محمد بن عبد الملك الزيات يقول للشعراء وقد اجتمعوا على باب المعتصم :

من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول النمري للرشيد :

خَلِيقَةُ اللَّهِ إِنَّ الْجُودَ أُوْدِيَةٌ .. أَحَلَّكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمَعُ  
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمْيَنْ اللَّهِ مُعْتَصِمًا .. فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَنْتَفِعُ<sup>(١)</sup>

(١) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ٢١ / ٧٣١٨ .

فمن لم يكن بالحاكم أو الخليفة معتصماً ، فصلاته باطلة من وجهة نظر الشاعر ، وكلنا يعلم خطورة فساد الصلاة وما تؤدي إليه .

وها هو الحسين بن مطير ينشد المهدى قوله :

لَوْ يَعْبُدُ النَّاسُ يَامَهْدِي أَفْضَلَهُمْ .. مَا كَانَ فِي النَّاسِ إِلَّا أَنْتَ مَعْبُودٌ  
أَضْحَتْ يَمِينُكَ مِنْ جُودٍ مُصَوَّرَةً .. لَابْلُ يَمِينُكَ مِنْهَا صُورَ الْجُودِ<sup>(١)</sup>

فالحسين بن مطير يصل بالمهدى إلى مكانة دينية لا ينبغي أن تتسب إلى بشر ، مهما كانت مكانته الدينية في نفوس الناس ، إلا أن الخلفاء كانوا يرغبون في إضفاء صفة القدسية هذه على منصب الخليفة ، فبالغ الشعراء في ذلك مبالغات كبيرة ، رفضها بعض الخلفاء أحياناً ، وأثاب بعضهم عليها في كثير من الأحيان ، فأبو الفرج الأصفهاني يروي لنا أن الرشيد " كان يحتمل أن يمدح بما تمدح به الأنبياء فلا ينكر ذلك ولا يرده " <sup>(٢)</sup> . وقد " بُرِزَ الإِلَاحَ عَلَى الْمَعْنَى الْإِسْلَامِيَّةِ فِي مَدْحِ الْخُلُفَاءِ وَالْوُزُرَاءِ عَلَى نَحْوِ لَمْ يَعْهُدْ مِنْ قَبْلِهِ ، حِيثُ كَانَ الْمَفْرُوضُ - وَفَقَاءِ الْنَّظَرِيَّةِ الْعَبَاسِيَّةِ فِي الْحُكْمِ - أَنَّ الْخَلِيفَةَ الَّذِي يَرْعِي شَؤُونَ الْحَيَاةِ ، هُوَ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهِ إِمَامُ الْمُسْلِمِينَ وَحَامِيُّ حَمْيِ إِلَيْهِ " <sup>(٣)</sup> .

وقد بالغ الشعراء مبالغات فاقت المعقول أحياناً ، حتى وصل القول بأبي

نواس أن قال في مدح الأمين :

تَنَازَعَ الْأَحْمَدَانَ الشَّبَهَ فَاشْتَبَهَا .. خَلَقَ وَخَلَقَ كَمَا كَفَدَ الشَّرَاكَانَ  
اثْنَانَ لَا فَصْلَ بِالْمُعْقُولِ بَيْنَهُمَا .. مَعْنَا هُمَا وَاحِدَةٌ وَالْعِدَّةُ اثْنَانٌ  
وهو يقصد بالأحمدان هنا المحمدان : النبي محمد - ﷺ - ومحمدًا  
الأمين <sup>(٤)</sup> .

فهو يقرن خيرية الأمين - بالرغم مما عرف عنه من مخالفات - بقدر النبي محمد - ﷺ - ، وخلقه بخلقه ، على ما بينها من بون شاسع ، ولكن

(١) نفسه ، ١٦ / ٥٧٨٤ .

(٢) نفسه ، ١٣ / ٤٦٥٦ .

(٣) عز الدين إسماعيل ، في الشعر العباسي ، الرؤية والفن ، المكتبة الأكاديمية ، ص ٣٣٩ .

(٤) نفسه ، ص ٣٤٢ .

الشاعر يعلم أن الأمين يتمتع بإضفاء هذه القدسية الدينية عليه ، فلا يتزدد في ذلك بل يجاوز الحد المعقول .

وها هو المؤمن - بالرغم من علمه وعفوه وعقليته - فإنه يرغب أيضاً في جعله خليفة المسلمين وأكثرها أحقيـة بهذا المنصب ، يقول محمد بن عبـاد ، وهو أحد معاصرـيه : " قال لي المؤمن وقد قدمـت عليه من البصرة : كيف ظريف شـعراـئكم وأشعر مـصرـاـئكم ؟ قـلت : ما أـعـرفـه ؟ قال : ذاك الحـسـيـنـ بـنـ الضـحـاـكـ أـشـعـرـ شـعـراـئـكمـ أـطـرـفـ ظـرـفـاـئـكمـ . أـلـيـسـ هوـ الـذـيـ يـقـولـ : رـأـىـ اللـهـ عـبـدـ اللـهـ خـيـرـ عـبـادـ .. فـمـلـكـهـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ بـالـعـبـادـ . قال : ثم قال لي المؤمن : ما قال في أحد من شـعـراءـ زـمانـناـ بيـتاـ أـبـلـغـ من بيـتـهـ هـذـاـ " (١) .

وبسبب هذه الطاعة وهذا الاستجابة من الشـعـراءـ لمـطـالـبـ الـحـاـكـمـ ، حتى لو كانت خارجة عن حدود المعقول ، كان الحـاـكـمـ يـدـافـعـونـ عنـ الشـعـراءـ الـذـينـ يـمـدـحـونـهـ بـهـذـاـ الشـكـلـ " دـخـلـ سـلـيـمـانـ بـنـ الـمـنـصـورـ عـلـىـ مـوـلـىـ الـأـمـيـنـ ، فـرـفـعـ إـلـيـهـ أـنـ أـبـاـ نـوـاـسـ هـجـاهـ ، وـأـنـهـ زـنـدـيقـ حـلـالـ الدـمـ ، وـأـنـشـدـهـ مـنـ أـشـعـارـهـ الـمـنـكـرـةـ أـبـيـاتـاـ ، فـقـالـ لـهـ : يـاـ عـمـ ، أـفـتـلـهـ بـعـدـ قـوـلـهـ :

أـهـدـىـ التـنـاءـ إـلـىـ الـأـمـيـنـ مـوـلـىـ . . . مـاـ بـعـدـهـ بـتـجـارـةـ مـتـرـبـصـ  
صـدـقـ التـنـاءـ عـلـىـ الـأـمـيـنـ مـوـلـىـ . . . وـمـنـ التـنـاءـ تـكـذـبـ وـتـخـرـصـ  
قـدـ يـنـقـصـ الـقـمـرـ الـمـنـبـيرـ إـذـ اـسـتـوـىـ . . . هـذـاـ وـنـورـ مـوـلـىـ لـاـ يـنـقـصـ  
وـإـذـ بـنـوـ الـمـنـصـورـ عـدـ حـصـاؤـهـ . . . فـمـوـلـىـ يـاقـوـتـهـ الـمـتـخـلـصـ (٢)

فغضب سـلـيـمـانـ ، وـقـالـ : لـوـ شـكـوتـ مـنـ عـبـدـ اللـهـ مـاـ شـكـوتـ مـنـ هـذـاـ الـكـافـرـ لـوـ جـبـ  
أـنـ تـعـاقـبـهـ ، فـكـيفـ مـنـهـ : فـقـالـ : يـاـ عـمـ كـيـفـ أـعـمـلـ بـقـوـلـهـ :

قـدـ أـصـبـحـ الـمـلـكـ بـالـمـلـىـ ظـفـرـاـ . . . كـائـنـاـ كـانـ عـاشـقـ قـدـراـ  
حـسـبـكـ وـجـهـ الـأـمـيـنـ مـنـ قـمـرـ . . . إـذـ طـوـىـ الـلـيـلـ دـوـنـكـ الـقـمـراـ

(١) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ٧ / ٢٥٩١ .

(٢) أبو نواس ، ديوان ، ط ١ ، بيروت ، طبعة دار الكتب العلمية ، تحقيق علي فاعور ، سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م ، ص ٣٣٣ .

خَلِيلَةٌ يَعْتَنِي بِأَمْتَهِ : . وَإِنْ أَتَّهُ ذُنُوبَهَا غَفَرًا  
حَتَّى لَوْ اسْطَاعَ مِنْ تَحْنِهِ : . دَافَعَ عَنْهَا الْقَضَاءُ وَالْقَدْرَا<sup>(١)</sup>

وهكذا ، مازال الشاعر العباسي يخلع على مدوحه من الخلفاء صفة الرمز الدينى ، المكلف من الله برعاية الأمة ، ووجوب طاعته والسير في ركباه لكونه خير الناس ، وأفضلهم عند الله ، لذا اختاره لخلافتهم ، وما زال الشعراء يسلكون هذا السبيل ، حتى أصبح سمة تميز المدح في العصر العباسي ، وما كانت هذه السمة لتبرز بهذا الشكل إلا بسبب طرب الحكام لها ، وتشجيعهم للشعراء ليقنزوا فيما ، حتى اصطبغ شعر المديح بها ، وأصبحت من ظواهره الواضحة .

ومن السمات التي ظهرت وأذكاها الخلفاء ، حتى أصبحت من أهم ملامح المديح العباسي استخدام الحجج المنطقية المستقة من علم الميراث في محاولة إثبات أحقيـة العباسـيين في الخـلافـة ، ويـستلزمـ هـذاـ الإـثـبـاتـ المـنـطـقـيـ نـفـيـ الإـمامـةـ عنـ غـيرـ العـبـاسـيـينـ خـاصـةـ الـعـلوـيـينـ ، بـحـجـةـ أـنـ العـبـاسـيـينـ أـقـرـبـ إـلـىـ النـبـيـ - ﷺ - مـنـ أـبـنـاءـ عـلـيـ ، لأنـ قـرـابـةـ العـبـاسـيـينـ قـرـابـةـ عـصـبـ ، أـمـاـ قـرـابـةـ الـعـلوـيـينـ فـمـنـ جـهـةـ فـاطـمـةـ ، لـذـاـ يـرـوـنـ أـنـهـمـ أـحـقـ بـالـخـلـافـةـ مـنـهـمـ ، يـقـولـ مـرـوـانـ بـنـ أـبـيـ حـفـصـةـ ، مـادـحـاـ

المهـديـ :

يـاـ بـنـ الـذـيـ وـرـثـ النـبـيـ مـحـمـداـ . دـوـنـ الـأـقـارـبـ مـنـ ذـوـيـ الـأـرـحـامـ  
الـوـحـيـ بـيـنـ بـنـيـ الـبـنـاتـ وـبـيـنـكـمـ . قـطـعـ الـخـصـامـ فـلـاتـ حـيـنـ خـصـامـ  
مـاـ لـلـنـسـاءـ مـعـ الرـجـالـ فـرـيـضـةـ . نـزـأـتـ بـذـلـكـ سـوـرـةـ الـأـعـامـ  
أـنـّـىـ يـكـونـ وـلـيـسـ ذـاكـ بـكـائـنـ . لـبـنـيـ الـبـنـاتـ وـرـاثـةـ الـأـعـامـ<sup>(٢)</sup>

(١) ابن الجوزي ، المنظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي ، ٦ / ٢٦ ، ديوان أبي نواس ص ٢٥٤ .

(٢) مروان بن أبي حفصة ، ديوان ، ط ٣ ، جمع وتحقيق وتقديم ، حسين عطوان ، ص ٦٦ .

ثم هذا أبان بن عبد الحميد يعاتب البرامكة في إعطاء الرشيد الأموال للشعراء ، وفقره هو بالرغم من خدمته لهم ، موضعه منهم ، فإذا بالفضل بن يحيى يوضح له المنهج الذي به ينال العطاء دون مواربة ، " إن سلكت مذهب مروان ؛ أوصلت شعرك ، وبلغت إرادتك . قال : والله ما أستحل ذاك ! فقال له الفضل : كلنا يفعل ما لا يحل ، ولك بنا وبسائر الناس أسوة ، فقال أبان :

نَشَدْتُ بِحَقِّ اللَّهِ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا :: أَعْمُ بِمَا قَدْ قُلْتُهُ الْعُجْمَ وَالْعَرَبُ  
أَعْمُ نَبِيًّا اللَّهُ أَقْرَبُ زُلْفَةً :: إِلَيْهِ أَمْ ابْنُ الْعَمِّ فِي رُتْبَةِ النَّسَبِ؟  
وَأَيْهُمَا أَوْلَى بِهِ وَبِعَهْدِهِ :: وَمَنْ دَالَهُ حَقُّ التَّرَاثِ بِمَا وَجَبَ؟  
فَإِنْ كَانَ عَبَّاسٌ أَحَقُّ بِتَلْكُمْ :: وَكَانَ عَلَى بَعْدِ ذَاكِ عَلَى سَبَبِ  
فَأَبْنَاءُ عَبَّاسٍ هُمُ بِرِّتُونَهُ :: كَمَا الْعَمُ لَابْنِ الْعَمِّ فِي الْإِرَثِ قَدْ حَجَبَ  
وَفِي حَسَنٍ إِذْ قُلْتُمْ فِيهِ حُجَّةً :: فَقَدْ بَاعَهَا لَأَيْنَكُرُ النَّاسُ أَوْ وَهَبَ  
فَإِنْ كَانَ ذَا حَقًا فَعَمْدًا أَضَاعَهُ :: وَإِنْ كَانَ ذَا دَعْوَى فَكُفُوا عَنِ الشَّغَبِ

فلما أنسدتها الرشيد أمر لأبان بعشرين ألف درهم ، واتصل به بعد ذلك <sup>(١)</sup> . وقد اشتهر مروان بن أبي حفصة خاصة بإتباع هذه المسالك في مدح خلفاء العباسيين ، فهو الذي مدح المهدي بقوله :

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا :: بِأَكْفُكُمْ أَمْ تَسْتَرُونَ هَلَالَهَا  
أَمْ تَجْحَذُونَ مَقَالَةً مِنْ رَبِّكُمْ :: جِبْرِيلُ بَلَّغَهَا النَّبِيُّ فَقَالَهَا  
نَزَّلَتْ مِنَ الْأَنْفَالِ آخِرُ آيَةٍ :: بِتُرَاثِهِمْ فَأَرْدَتُمُوا إِبْطَالَهَا <sup>(٢)</sup>

فرزح المهدي من صدر مصلاه إعجاباً بالقصيدة ، وإعطاء عن كل بيت من أبياتها ألف درهم ، لذا نحا كثير من الشعراء نحوه في نفي الإمامة والخلافة عن أبناء على فطرب لهم الخلفاء ، وأجزلوا لهم العطاء ، فلقد روى أبو الفرج في

(١) أبوبكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي ، الأوراق ، ط ٢ ، بيروت ، طبعة دار المسيرة ، عنى بنشره ج . هيورت ، دن ، سنة ١٤٠١ هـ - ١٩٨٢ م . ص ١٤ .

(٢) مروان بن أبي حفصة ، ديوان ، ط ٣ ، جمع وتحقيق وتقديم ، حسين عطوان ، ص ٩٩ .

الأغاني أن " النمرى قد مدح بقصيدة وهو مقيم بالجزيرة ، فأوصلها العتaby إلية واسترده له ، وسأله استصحابه فأذن له في القدوم ، فحظي عنده ، وعرف مذهب الرشيد في الشعر ، وإرادته أن يصل مدحه إپاه بنفي الإمامة عن ولد على بن أبي طالب - رضى الله عنه - والطعن عليه ، وعلم مغزاه في ذلك ، مما كان يبلغه من تقديم مروان بن أبي حفصة ، وتفضيله إپاه على الشعراe في الجوائز ، فسلك مذهب مروان في ذلك ، ونحا نحوه<sup>(١)</sup> .

لذا أصبحت هذه سمة بارزة من سمات المدحة العباسية ، كان الباущ عليها ، والمتسبد في شيوخها الخلفاء العباسيون ، الذين تسربوا في صبغها باللون السياسي عامة ، وهذا المدح خاصة .

### التخصص في المدح :

من الظواهر الواضحة في شعر المديح في هذه الفترة أنه تفرغ إلى أنواع شتى ، فما يمدح به الخليفة يختلف عما يمدح به وزراؤه ، يختلف عما يمدح به القاضي ، أو القائد ، أو الكاتب إلى غير ذلك ، وقد فصل ابن رشيق القول في ذلك ، فالكاتب والوزير يمدحان بحسن الروية ، وسرعة الخاطر بالصواب ، وشدة الحزم ، وقلة الغفلة ، وبذل النصح لل الخليفة ، والنيابة عنه في المعضلات ، كما يمدحان بالبلاغة والخط والتفنن في العلم ، وأفضل ما يمدح به القائد الجود والشجاعة وما تفرع منها<sup>(٢)</sup> .

هَزَّتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّداً .. فَكَانَ رُدَّ يَنِيَا وَأَبْيَضَ مُنْصُلا  
فَمَا إِنْ تُبَالِي أَنْ تُجْهِزَ رَأِيَهُ .. إِلَى نَاكِثٍ أَلَا تُجْهِزَ جَهْلَاهُ  
تَرَى شَخْصَةُ وَسْطَ الْخِلَافَةِ هَضْبَةُ .. وَخُطْبَتَهُ دُونَ الْخِلَافَةِ فَيُصَلَّا  
لِتَقْضِيْ بِهِ حَقَّ الرَّعِيَّةِ آخِرًا .. وَتَقْضِيْ بِهِ حَقَّ الْخِلَافَةِ أَوَّلًا<sup>(٣)</sup>

. ٤٦٥٣ / ١٣ ) (١)

(٢) ابن رشيق (أبو الحسن بن علي) ، العمدة في صناعة الشعر ونقده ، ط ٤ ، بيروت ، دار الجيل ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، سنة ١٩٧٤ م ، ٢ / ١٢٨ وما بعدها .

(٣) أبو تمام ، ديوان ، ط ٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، تحقيق : محمد عبد عزام ، ٣ / ١٠١ .

ويمدح على بن جبلة العَكُوك القائد الشهير أبا دلف العجلي فيقول :  
رُبَّ ضَافِيْ الْأَمْنِ مِنْ وَزَرِ . . قَدْ أَبَتَ الْخَوْفَ فِيْ وَزَرَه

وابن خوف في حشا خمر . . نُشْتَهِ بِالْأَمْنِ مِنْ خَمْرٍ  
وَزُحْوَفٌ فِيْ صَوَاهِلِهِ . . كَصَيَاحِ الْحَشْرِ فِيْ أَمْرَهِ  
قُدْتَهُ وَالْمَوْتُ مُكْتَمِنٌ . . فِي مَزَاكِيِّهِ وَمُشْتَجِرَهُ  
زُرْتَهُ وَالْخَيْلُ عَابِسَةٌ . . تَحْمِلُ الْبُؤْسَى إِلَىْ عُقْرَهِ<sup>(١)</sup>  
ومن عجيب الأمر أنني وجدت خبراً في الأغاني يبدو المديح من خلاله موغلًا في  
التخصص ، إذ لكل قائدٍ سماتٍ تميزه عن غيره من القواد ، يعرفها الناس ،  
ويعرفها الشعراء والحكام ، فلقد روى أبو الفرج "أن سلماً الخاسر دخل على  
الرشيد وعنه العباس بن محمد ، وجعفر بن يحيى ، فأنشده قوله :

حَضَرَ الرَّحِيلُ وَشُدَّتِ الْأَحْدَاجُ

فلما انتهى إلى قوله :

إِنَّ الْمَنَايَا فِي السُّلَيْفِ كَوَا مِنْ . . حَتَّىٰ يُهِيجُهَا فَتَىٰ هَيَّاجُ  
قال الرشيد : كان ذلك عن بن زائدة ، فقال : صدق أمير المؤمنين ، ثم أنسد حتى  
انتهى إلى قوله :

وَمَدْجَاجٌ يَغْشَى الْمَضِيقَ بِسَيْفِهِ . . حَتَّىٰ يُكُونَ بِسَيْفِهِ الْإِفْرَاجُ  
قال الرشيد : ذلك يزيد بن مزيد ؛ فقال : صدق أمير المؤمنين<sup>(٢)</sup> .

وهكذا كان على الشعراء أن يلائموا بين المدح والمدحوم فإذا مدحوا  
الخلفاء نوهوا ببنقواهم وعدلهم في الرعية ، وإذا مدحوا القواد أطالوا في وصف  
شجاعتهم ، وإذا مدحوا الوزراء تحدثوا عن حسن سياستهم ، وكذلك صنعوا  
بالفقهاء والقضاة وغيرهم من الممدوحين .

(١) على بن جبلة ، ديوان ، ط ٣ ، دار المعارف ، جمع وتحقيق وتقديم ، حسين عطوان ، ص ٦٩ .

(٢) الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهرس بإشراف وتحقيق : إبراهيم الإيباري ،  
سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، ٧٥٩٢/٢٢ .

## ضرورات المدح :

المبالغة في الشعر من سماته ، ومظهر مهم من مظاهره ، لأن لها علاقة بالخيال الذي هو عصب الشعر وأهم ما يميزه ، والمبالغة ضرورة من ضرورات المدح على وجه الخصوص ، ولم تكن حديثة عهد على الشعر العباسي ، لكن الجديد فيها من وجهاً نظرياً محاولة إضفاء القداسة على الحاكم ، بما يجعل الشعراء يخوضون في الوحل خوضاً ، لمحاولة جعل الخليفة يستحق ما يشبه العبادة كما يقول الحسين بن مطير أو يجعله كالنبي محمد - ﷺ - في خلقه وخلقه كما يقول أبو نواس ، وقد كشفنا في أثناء حديثنا حول محاولة تقديس منصب الخليفة عن شيء من هذه المبالغات ، ولكن الذي يجب الانتباه إليه ، أن الحكماء ساعدوا في مرور الشعر بهذه المبالغات التي خرقت حدود الدين ، أما المبالغات عامة ، فمن أهم خصائص الشعر على مر العصور ، في العصر العباسي وقبله وبعده ، وفي شعر المدح وفي غيره من الأغراض .

ولم تكن هذه المبالغات إلا لأن الشعراء لا يمدحون الخليفة من حيث شخصه وتصرفاته ولكنهم يمدحونه كرمز كما يقول شوقي ضيف<sup>(١)</sup> .

وكان بعضهم لا يحب ابتعد الشاعر في مدحه له عن غرض المدح ، وكأنه يتبعي من الشاعر أن يجعل القصيدة كلها مدحًا خالصاً ، فلا يرضى أن يستولى على قصيدة المدح بالقليل من الأبيات ، ثم يشتبه في كثير منها ، ويختلط عنده ما هو شخصي من الشعر بالشعر الرسمي ، وقد لاحظ ذلك عمرو بن العلاء فإن أبو العتاهية قال مدحه :

إِنِّي أَمِنْتُ مِنَ الرَّمَانِ وَصَرْفِهِ .. لَمَّا عَلِقْتُ مِنَ الْأَمِيرِ حِلَالَ  
لَوْ يَسْتَطِعُ النَّاسُ مِنْ إِجْلَالِهِ .. تَخِذُوا لَهُ حُرَّ الْخُدُودُ نِعَالَا  
إِنَّ الْمَطَايِأَ تَشْتَكِيَ لِأَنَّهَا .. قَطَعَتْ إِلَيْكَ سَبَاسِبًا وَرَمَالًا  
فَإِذَا وَرَدْنَ بِنَا وَرَدْنَ خَفَافًِا .. وَإِذَا صَدَرْنَ بِنَا صَدَرْنَ ثَقَالَا<sup>(٢)</sup>

(١) العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ م ، ص ١٦١ .

(٢) أبو العتاهية ، ديوان ، بيروت ، دار صادر ، تحقيق وشرح كرم البستانى ، ص ٣٧٧ .

فأعطاه سبعين ألفاً ، وخلع عليه حتى لا يقدر أن يقوم فغار الشعراء من ذلك فجمعهم ثم قال : يا عشر الشعراء عجباً لكم ! ما أشد حسكم بعضكم بعضاً ، إن أحدهم يأتيانا لمدحنا بقصيدة يشتبب فيها بصدقته بخمسين بيتاً ، فما يبلغنا حتى تذهب لذادة مدحه ، ورونق شعره ، وقد أتانا أبو العتاھيہ تشتبب بأبيات يسيرة ، ثم قال ، وأنشد الأبيات المذكورة فما لكم منه تغارون<sup>(١)</sup> .

وكانَ عمرو بن العلاء لا يبغي من الشعر إلا مدحًا خالياً من المقدمات الشخصية الطويلة أو من الإضافات غير المتصلة بالمدح .

---

(١) ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ، وفيات الأعيان وأبناء الزمان ، ط ١ ، مكتبة النهضة المصرية ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، سنة ١٩٤٨ م ، ١ / ١٩٩ .

## المبحث الثاني

### الاهتمام بالغزل

هو من الفنون القديمة التي لم تكن بعيدة عن التطور والتجدد في العصر الأموي ، ثم العصر العباسي ، ومن المعروف والمشهور على مر العصور أن الغزل فن شخصي ، يتعلق بكل شاعر غزل على حدة ، يكون تعبيراً عما بين الشاعر وبين محبوبته ، أو مثاله الذي يتغزل فيه ، بمعنى أن الغزل استمر بعيداً عن الأوامر والنواهي المتعلقة بالحاكم أو الأمير حتى العصور الذي ندرسه ، فأول ما نفاجأ به أن الغزل أصبح مطلباً يلح الحكم في طلبه من الشعراء ، بجانب الشعر الرسمي الذي سبق الحديث بشأنه " كان أبو العتاهية يتغزل في شبابه ، فرضى عنه هارون ندماً وله ، ولم يكن يفارقه في سفر ولا حضر إلا في طريق الحج " <sup>(١)</sup> .

وإن لنا لا ننكر أن حب الغزل مطلب غريزي على مر العصور ، قبل حكم العباسيين وبعده ، ولكننا نجد في حكومة العباسيين ما لا نجد في بعض حكام بني أمية ، من قول للحكام أنفسهم في شعر غزل ، أو الإلحاح في طلبه مرة تلو أخرى، بل تشجيع عليه في بعض الأحيان ، هذا عن الفن الغزلي عامه . وإذا استثنينا أبا جعفر المنصور من خلفاء العباسيين ، وجدنا أغلبهم قال غزاً ، أو دعا إليه ، أو أثاب عليه .

" دخل بشار على المهدى ، وقد عرضت عليه جارية مغنية ، فسمع غناءها؛ فأطربه وقال لبشار : قل في صفتها شرعاً ؛ فقال :

وَرَائِحَةٌ لِلْعَيْنِ فِيهَا مَخْيَلَةٌ .. إِذَا بَرَقْتُ لَمْ تَسْقُ بَطْنَ صَعِيدٍ  
مِنَ الْمُسْتَهْلَاتِ السُّرُورُ عَلَى الْفَتَى .. خَفَّا بَرْقُهَا فِيْ عَبَرٍ وَعُقُودٍ  
كَانَ لِسَانًا سَاحِرًا فِيْ كَلَمِهَا .. أَعْيْنَ بِصَوْتٍ لِلْقُلُوبِ حُيُودٍ

(١) كارل بروكمان ، تاريخ الأدب العربي ، القاهرة ، دار المعارف ، نقله إلى العربية : عبد الحكيم النجار ، سنة ١٩٦١ ، ٢ / ٣٤ .

**تُمِنْتُ بِهِ الْبَابَنَا وَقُلْوَنَا . . مِرَارًا وَتُحِينَ بَعْدَ هُمُودٍ<sup>(١)</sup>**  
 ثم هو نفسه يدخل يوماً بعض دوره ، فإذا جارية نصرانيه ، وإذا جيئها واسع ، وقد انكشف عما بين ثدييها ، وإذا صليب من ذهب معلق في ذلك الموضع ، فاستحسنـه ، فمد يده إليه فجذبه ، فأخذـه فولـلت على الصـليب فقال المـهـدي في ذلك :

**يَوْمَ نَازَ عَنْهَا الصَّلِيبَ فَقَالَتْ . . وَيَحْ نَفْسِيْ أَمَا تُحْلِ الصَّلِيبَا**  
 قال : أرسل إلى بعض الشـعـراء فأـجازـه ، وأـمرـ بهـ فـغـنـيـ فيهـ<sup>(٢)</sup> .  
 وبـسبـبـ حـبـ المـهـديـ الزـائـدـ لـلـغـزـلـ ، فـقـدـ كـانـ يـغـضـ الـطـرفـ أـحـيـاـنـاـ عـنـ بـعـضـ الغـزـلـ  
 الـذـيـ يـبـدوـ غـيرـ لـائقـ ، فـهـذـاـ أـشـجـعـ السـلـمـيـ قـالـ : " أـذـنـ لـنـاـ المـهـديـ وـلـلـشـعـراءـ فـيـ  
 الدـخـولـ عـلـيـهـ ، فـدـخـلـنـاـ ، فـأـمـرـنـاـ بـالـجـلوـسـ ، فـاتـقـقـ أـنـ جـلـسـ إـلـىـ جـنـبـيـ بـشـارـ ، فـسـمـعـ  
 حـسـاـ ، فـقـالـ : يـاـ أـشـجـعـ ، مـنـ هـذـاـ فـقـلـتـ : أـبـوـ العـتـاهـيـةـ ، فـقـالـ لـيـ : أـتـرـاهـ يـنـشـدـ فـيـ  
 هـذـاـ الـمـحـفـلـ ؟ـ فـقـلـتـ : أـحـسـبـهـ سـيـفـعـلـ ، فـأـمـرـهـ المـهـديـ أـنـ يـنـشـدـهـ :  
 أـلـاـ مـاـ لـسـيـدـتـيـ مـالـهـاـ\*ـ ، قـالـ : فـنـخـسـنـيـ بـمـرـفـقـهـ ، ثـمـ قـالـ لـيـ : وـيـحـكـ !ـ رـأـيـتـ أـجـسـرـ  
 مـنـ هـذـاـ يـنـشـدـ مـثـلـ هـذـاـ الشـعـرـ فـيـ مـثـلـ هـذـاـ الـمـوـضـوـعـ<sup>(٣)</sup> .

وقد كان استكارـ بـشـارـ هـذـهـ الجـسـارـةـ مـنـ أـبـيـ العـتـاهـيـةـ استـكـارـاـ فـيـ محلـهـ ،  
 وـلـكـنـ حـبـ المـهـديـ لـلـغـزـلـ كـانـ شـدـيـداـ فـتـغـاضـيـ عـنـ الـمعـانـيـ غـيرـ الـلـائـقـةـ أـمـامـ الـخـلـيفـةـ  
 فـيـ هـذـهـ الـمـوـضـوـعـ ، بـسـبـبـ جـوـدـةـ الـفـنـ ، وـحـبـ الـغـزـلـ .

(١) أبو الفرج على بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق : إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ - ١٩٦٩ م ، ٣ / ١٠٢٨ . القصيدة في ديوان أبي العتاهية، ص ٣٧٥ .

القصيدة في ديوان أبي في العتاهية ، ص ٣٧٥ .

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، طبعة دار المعارف ، تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، سنة ١٩٦٦ ، ٨ / ١٨٥ .

(٣) ابن الجوزي ، المنظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي ، ٦ / ٢٢١ .

\* والتي يقول فيها أنتَ الْخِلَافَةُ مَنْقَادَةُ  
 إِلَيْهِ تُجَرَّأُ أَدِيلَهَا  
 وَلَمْ تَكُنْ تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ  
 لَزَلَلَتِ الْأَرْضُ زَلَّهَا  
 وَلَوْ رَأَمَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ

وقد روت لنا مصادر الأدب كثيراً من الأخبار عن الغزل كان مثارها المهدى ، فها هو محمد بن صفوان الجمحي ، قال : " حملت دينا بعسكر المهدى ، فركب المهدى يوماً بين أبي عبيد الله وعمر بن بزيغ ، وأنا ورائي في موكبه على بردنون قطوف ، فقال : ما أنسى بيت قالته العرب ؟ قال أبو عبيدة : قول امرئ القيس إذ يقول :

وَمَا ذَرَفْتُ عَيْنَاكِ إِلَّا لِتَضْرِبِي .. بِسْهَمِيَّكِ فِي أَعْشَارِ قُلْبِ مُقْتَلِ  
قال : هذا أعرابيٌّ قُحٌّ ، فقال عمر بن بزيغ : قول كثير بن أبي جمعة :  
أَرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَانَمَا .. تَمَثَّلُ لِيْ لِيَّا بِكُلِّ سَبِيلِ  
قال : وما هذا بشيء ، وما له يريد أن ينسى ذكرها حتى تمثل له ، قلت : يا أمير المؤمنين ، عندي حاجتك ، جعلني الله فداك - فقال : الحق ، قلت : لا لحاق لي ،  
ليس ذاك من دابتي ، قال احملوه على دابة ، قلت هذا أول الفتح ، فحملت عليها  
فلحكته ، فقال : ما عندك ؟ قلت : قول الأحوص :

إِذَا قُلْتُ أَنِّي مُشْتَقٌ بِلِقَائِهَا .. فَحُمُّ التَّلَاقِيْ بَيْنَنَا زَادَنَا سُقْمًا  
قال : أحسن والله ، اقضوا عنه دينه ، فقضى عني ديني " (١) .

ثم هو يبعث إلى بشار ويطلب منه بشكل مباشر " قل في الحب شعراً ولا تطل ،  
واجعل الحب قاضياً بين المحبين ولا تسم أحداً ، فقال بشار :  
اجْعَلِ الْحُبَّ بَيْنَ حَبِّيْ وَبَيْنِيْ .. قاضياً إِنْزِي بِهِ الْيَوْمَ رَاضِي  
فَاجْتَمَعْنَا فَقُلْتُ يَا حِبَّ نَفْسِي .. إِنَّ عَيْنِي قَلِيلَةُ الْإِغْمَاضِ  
فبعث إليه المهدى : حكمت علينا ووافقنا ذلك ، فأمر له بـألف دينار" (٢).

ولم يكن المهدى منفرداً بحب الغزل عن باقى الحكام العباسيين ، بل إن الرشيد  
أحب وقال غزلاً بجانب حب سماعه من الشعرا ، فمن شعر الرشيد في ثلات  
جوار كان يهواهن ، وهن سحر ، وضياء ، وخنث :  
إِنَّ سِحْرًا وَضِيَاءَ وَخُنْثًا .. هُنَّ سِحْرٌ وَضِيَاءٌ وَخُنْثٌ

(١) نفسه : ٥ / ٢٦٦ .

(٢) أبو الفرج على بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق إبراهيم الإيباري ، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، ١٠٦٨/٣ .

أَخَذَتْ سِحْرٌ وَلَا دَنْبَ لَهَا .: ثُلُثَى قَلْبِي وَتِرْبَاهَا التُّلُثُ  
وَيَقُولُ أَيْضًا :

مَلَكَ الْثَّلَاثُ الْإِنْسَاتُ عَنَانِي .: وَحَلَّنَ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَان  
مَالِيْ تُطَاوِعْنِي الْبَرِيَّةُ كُلُّهَا .: وَأَطْبِعْهُنَّ وَهُنَّ فِي عِصْنِيَانِي  
مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ سُلْطَانَ الْهَوَى .: وَبِهِ قَوِينَ أَعَزُّ وَهُنَّ فِي سُلْطَانِي<sup>(١)</sup>

ولقد كانت مجالس الخلفاء ، مملوءة بشعر الغزل كفن أول للغناء ، يستمع إليه الخلفاء ويلذون له ، ويتأثرون به ، ولقد كان للغناء أثره الذي لا ينكر في شیوع الغزل عامة ، " حکى أن هارون الرشید كان يهوي جاریته ماردة هوی شدیداً فتغاضباً مرة ، ودام بينهما الغضب ، فأمر جعفر البرمکی العباس بن الأحنف أن يعمل في ذلك شيئاً ، فعمل :

رَاجِعْ أَحَبَّتَكَ الَّذِينَ هَجَرْتَهُمْ .: إِنَّ الْمُتَّمَيمَ قَلْمَانِيْ تَجَنَّبُ  
إِنَّ التَّجَنَّبَ إِنَّ تَطَاوِلَ مِنْكُمَا .: دَبَ السُّلُولَةُ فَعَزَ المَطَلَّبُ<sup>(٢)</sup>

وأمر إبراهيم الموصلی فغنى به الرشید ، فلما سمعه بادر إلى ماردة فترضاها فسألت عن السبب في ذلك ، فقيل لها ، فأمرت لكل واحد من العباس وإبراهيم عشرة آلاف درهم ، وسألت الرشید أن يكافئهما<sup>(٣)</sup>.

أما الأمین فغزلیاته من الشهرة بحيث لا تحتاج إلى ذكر شواهد ، والمأمون أحب الغزل أيضاً ، وقد روی له أبو الفرج أنه " كان يستمع للشاعر ما دام في تشبيب أو وصف ضرب من الضروب ، حتى إذا بلغ إلى مدحه لم يسمع منه إلا بيتين أو ثلاثة ، ثم يقول للمنشد ، حسبك ! ترفعاً "<sup>(٤)</sup>.

(١) نفسه : ٦١٨٢ / ١٧ .

(٢) \* العباس بن الأحنف ، دیوان ، بیروت ، دار صادر ، تحقيق : کرم البستاني ، ص ٤٤ .

(٣) ابن خلکان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بکر ) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ط١ ، مكتبة النهضة المصرية ، تحقيق ، محمد محیی الدين عبد الحميد ، سنة ١٩٤٨ م ١٩٤٨ .

\* العباس بن الأحنف ، دیوان ، بیروت ، دار صادر ، تحقيق : کرم البستاني ، ص ٤٤ .

(٤) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهانی ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق إبراهيم الإبیاري ، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، ٢٣ ، ٧٩٤٧ .

وكانَ المأمون لم يكن يقبل إلا العفيف من الغزل ، فلقد روى عنه صاحب العقد الفريد أنه لما أمره أبوه بالصلة على الكسائي وإبراهيم الموصلي والعباس بين الأحنف لما ماتوا في يوم واحد ، قدم ابن الأحنف عليهم جميعاً ، وقال : قدّموا الذي يقول :

يَا بَعِيدَ الدَّارَ عَنْ وَطِنِهِ .. هَائِمًا يَبْكِي عَلَى شَجَنَةِ  
كُلَّمَا جَاءَ الْبُكَاءُ بِهِ .. زَادَتِ الْأَسْقَامُ فِي بَدْنِهِ<sup>(١)</sup>

وهكذا أصبح الغزل من أنواع الشعر التي طلبها الحكام في مجالسهم ، واهتموا بشعراها ، التذوا بسماع شعرهم ، وطلبوا منه كما طلبوا من شعر المديح .

### الغز الفاحش :

تركَت النقلة الاجتماعية الكبيرة في العصر العباسي ، من شروع تردد زائد عن الحد ، أثراً كبيراً في فحش الغزل في العهد العباسي ، " حيث خطا الشعراء بالغزل خطوات فسيحة في مجال اللهو والفجور ، منساقين وراء الإباحية الزائدة ، والمجون العابث ، بعد انتشار مجالس اللهو والشراب التي امتلأت بالقيان والمعنيات ، الباقي خلعن ثياب العفة ، وغلب عليهن الفجور ، وأحاطت بكل شاعر طائفة منهم " <sup>(٢)</sup> .

وقد اشتهر كثيراً من شعراء العصر العباسي ( ١٣٢ - ٢٣٢ هـ ) بالمجون ، من أمثال مطیع بن إیاس ، ووالبة بن الحباب ، وحمّاد عَجْرَد ، ويحيى بن زياد ، بجانب عملاقى الشعر العباسي بشار بن برد ، وأبي نواس ، أما جانب الجدة في هذا الغزل فإنه قد بلغ " درجة التهتك والعهر مع الانتشار الواسع بسبب التأثيرات الاجتماعية القوية ، وشروع المجون والخلاعة بين الطبقات المختلفة " <sup>(٣)</sup> .

(١) ابن عبد ربه ( أبو عمر جمال الدين يوسف بن عمر ) العقد الفريد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، طبعه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م ، ٥ / ٣٧٨ . وديوان العباس الأحنف ، ص ٣١١ .

(٢) محمد عبد العزيز المواتي ، حركة التجديد في الشعر العباسي ، مكتبة الشباب ، سنة ١٩٩١ ، ص ٩٩ .

(٣) محمد مصطفى هدارة ، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ط ١ ، بيروت ، مطبعة دار العلوم العربية ، سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، ص ٥٤٢ .

وكان أبو نواس وبشار من أكثر الشعراء الذين دار حولهم الجدل ، وفي غزلهم الفاحش على وجه الخصوص " وكان سحر الغزل والتشبيب في شعر بشار قويًّا التأثير في قلب الحرة والحسان " <sup>(١)</sup> ، وقد كان لهما اتصال مباشر ببلاط العباسيين ، أما بشار فقد عرف بغزله الفاحش الذي أفسد شباب البصرة وفتياتها ، وقد روت لنا كتب السابقين أن المهدى نهاد عن التشبيب لغيره كانت فيه .

ويقول هدارة " ولعل زعيم التغزل الحسي الفاحش في القرن الثاني هو بشار ، ونستطيع أن نتمثل خطورة تغزله في منع المهدى له ، وتحريميه عليه " <sup>(٢)</sup>. وفي سبيلي للبحث عن صلة لهذا النهي من الخليفة بالواقع ، عثرت بنص لأبي الفرج الأصفهاني - يدفع إلى الترث - بعض الشيء يقول أبو الفرج :

" دخل المهدى إلى بعض حجر الحرم ، فنظر إلى جارية منهن تغسل ، فلما رأته حسرت ، ووضعت يدها على فرجها فأنسد يقول :

" نَظَرَتْ عَيْنِي لِحَيْنِي " ثم أرتج عليه فقال : من بالباب من الشعراء ؟ قالوا: بشار ، فإذا له فدخل ، فقال له أجز " نظرت عيني لحيني " فقال بشار :

نَظَرَتْ عَيْنِي لِحَيْنِي .: نَظَرَأَ وَافَقَ شَيْنِي  
سَتَرَتْ لَمَّا رَأَتِنِي .: دُونَه بِالرَّاهِنِينِ  
فَضَلَّتْ مِنْهُ فُضُولُ .: تَحْتَ طَيِّ الْعَكْنَنِينِ

قال المهدى : قبّاك الله ، ويحك ! أكنت ثالثنا ! ثم ماذا ؟ فقال :

فَتَمَنَّيْتُ وَقْلَبَنِي .: لِهَوَى فِي زَفَرَنِينِ  
أَنَّنِي كُنْتُ عَلَيْهِ .: سَاعَةً أَوْ سَاعَتَنِينِ

فضحك المهدى ، وأمر له بجائزة ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، أقنعت من هذه

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، القاهرة ، دار المعارف نقله إلى العربية ، عبد الحليم النجار ، سنة ١٩٦١ ، ١٥/٢ .

(٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ط ١ ، بيروت ، مطبعة دار العلوم العربية ، سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ ، ص ٥٤٣ .

الصفة بساعة أو ساعتين؟ فقال : أخرج عني قبحك الله ، فخرج بالجائزة<sup>(١)</sup> . ولعل هذا الخبر يبعث على العجب من نهي المهدى لبشار عن الغزل المكتشوف ، وذلك أنه حثه على الغزل الماجن في هذا الخبر ، ولم يزجره حينما سمعه يقول هذا الغزل الماجن ، ولما بحثت عن الأبيات التي من أجلها كان نهى المهدى ، فإذا هي قول بشار :

قَاسِ الْهُمُومَ تَلَّ بِهَا نُجْحًا .. وَاللَّيْلَ إِنَّ وَرَاءَهُ صُبْحًا  
لَا يُؤْيِسَنَّا مِنْ مُخَرَّةٍ .. قَوْلٌ تُغَلِّظُهُ وَإِنْ جَرَّهَا  
عُسْرُ النَّسَاءِ إِلَى مِيَاسَرَةٍ .. وَالصَّعْبُ يُمْكِنُ بَعْدَ مَا جَمَّا<sup>(٢)</sup>

وقد كانت هذه الأبيات نقطة التحول في فحش بشار ، والأثر المهم في شعره الغزل الخاص بأثر الحكم ، " فلما قدم عليه - أي علي المهدى - بشار استشهد بالشعر ، فأنسده إيه ، فغضب وقال : ما حرض على الفجور ، وحرك إلى الفسوق بأكثر من هذا القول ! أتسهل السبيل إلى الفجور ، وتقدف المحسنات المخبأة ! والله لأن قلت بيتأ واحداً في نسيب لآتين على روحك "<sup>(٣)</sup> .

ويمكن تفسير هذا التعارض الواضح بين قبول المهدى للغزل المكتشوف في خبر الأغاني ، وبين الأبيات الأخرى ، بأن المهدى قبل ذلك لنفسه ، فلما فشا هذا الأمر الفاحش من بشار ، غدا مصدر إزعاج لحاكم مجتمع إسلامي لا يليق فيه هذا الغزل الفاحش ، فعمل الضغط الاجتماعي فيه أثره ، ولا أظن لغيره المهدى الشديدة علاقة بهذا النهي ، وإلا لما أعطاه جائزة على وصفه المكتشوف لإحدى حرمه إذا صح خبر الأغاني .

وأمام هذا النهي تحول فنُ بشار إلى غزل لائق إلى حد ما ، وإن كان يظهر في شعره الضيق الشديد بهذا المنع في كثير من أشعاره ، يقول :

(١) الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق : إبراهيم الإيباري ، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، ٣٠ / ١٠٧٧ .

(٢) بشار بن برد ، ديوان ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، شرح السيد ، محمد الطاهر بن عاشور ، علق عليه ، محمد رفت فتح الله ، محمد شوقي أمين سنة ١٩٥٤ م ، ٢ / ٩٧ .

(٣) نفسه : ٢ / ٩٧ .

وَلَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ الصَّفَا :: مَا فِي الضَّمِيرِ وَقَدْ لَوَيْتُهُ  
 وَيَشُوْقُنِي ذِكْرُ الْحَبِيبِ :: إِذَا غَدَوْتُ وَأَيْنَ بَيْتُهُ  
 قَامَ الْخَلِيفَةُ دُونَهُ :: فَصَبَرْتُ عَنْهُ وَمَا فَقَيْتُهُ  
 وَنَهَانِ الْمَلَائِكَ الْهَمَامُ :: عَنِ النَّسِيبِ وَمَا عَصَيْتُهُ  
 لَابَلْ وَفَيْتُ وَلَمْ أَضِعْ :: عَهْدًا وَلَا وَأَيْتُهُ<sup>(١)</sup>

ويقول :

وَلَوْلَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ :: رَجَعْتُ بِآخْرَى مِنْ دَمِ النَّاسِ مِلْوَاحٍ  
 فَالْيَتُ لَا آلُو الْخَلِيفَةُ طَاعَةٌ :: وَلَا أَبْتَغِي إِذْنًا عَلَى ذَاتٍ أَوْ شَاحٍ<sup>(٢)</sup>

ويقول :

وَزَجَاءَ بِرْجَاءَ فِي جَوَهِرٍ :: تَرُوقُ بَهَا عَيْنُ مَنْ يَلْمَحُ  
 خَرُوجٌ عَلَى جَمْعِ أَتْرَابِهَا :: كَمَا يَخْرُجُ الْأَبْلَقُ الْأَقْرَحُ  
 نَهَانِيَءُ الْخَلِيفَةَ عَنْ ذِكْرِهَا :: وَكُنْتُ بِمَا سَرَرَهُ أَكْدَحُ  
 فَأَعْرَضْتُ عَنْ حَاجَتِي عِنْدَهَا :: وَلِمَوْتٌ مِنْ تَرْكِهَا أَرْوَحٌ<sup>(٣)</sup>

وهكذا ، كان للمهدي أثره في تحول غزل بشار ، وباعتراف بشار نفسه ، من غزل فاحش ماجن غير مقبول في مجتمع مسلم ، إلى غزل مقبول إلى حد كبير ، ويرى بعض الباحثين أن غزل بشار الماجن لم يتأثر بنهي الخليفة المهدي ، ولم يلاحظ في أي تغير ، يقول يوسف خليف : " ولكن بشاراً لم يستطع أن يكف عن هذا الغزل ، فمضى يحتال عليه ، فيتحدث عن نهي الخليفة له ، ويضمن هذا الحديث ما يريد من غزل "<sup>(٤)</sup> . ويرى الباحث مع تقديره الكبير لهذا الرأي - أن بشاراً قد خفت مجونة غزله - أياً كانت درجة هذا الانصياع لرأي الخليفة - بعد نهي المهدي له ، فإنه لم ينته عن الغزل على عمومه أما الغزل الفاحش فقد ضعف

(١) نفسه : ٦٢ / ٢.

(٢) نفسه : ١١٩ / ٢.

(٣) نفسه : ١١٠ / ٢.

(٤) تاريخ الشعر في العصر العباسي ، القاهرة ، دار الثقافة ، سنة ١٩٨١ م ، ص ٥٠ .

عنه ، والأدلة على ذلك في شعر بشار نفسه ، فبعد أن قال ( عسر النساء إلى ميسرة ) نراه يقول الأبيات الغزلية العادية السابقة ، ويقول أيضاً :  
**تركتْ لِمَهْدِيِّ الْأَيَامِ وَصَالَهَا . . . وَرَاعَيْتُ عَهْدًا بَيْنَنَا لَيْسَ بِالخَرْ**  
 أما أبو نواس فقد غلت شهرة حمراته شهرة غزله ، ولعل الذي يستحق الذكر في شعره الغزل هنا تغز له بالغلمان والغلاميات .

### **المبالغة في الغزل :**

ومن الظواهر البالغة الجدة في الشعر العربي عامه ظاهرة الغزل بالمذكر ، ولا تذكر هذه حتى يذكر معها ما حل بالمجتمع من فجور ظاهر ، وانتشار للتمتع بالمرد من الغلمان ، بل وارتكاب الفاحشة معهم ، وهذه من المصائب الكبيرة التي عمت المجتمع المسلم في هذه العصر .

ويكفي على شيوخ هذه الظاهرة دليلاً أن يتهم بها يحيى بن أكثم قاضي القضاة ، ولم يكن اتهامه بها من أحد الحاقدين عليه ، بل كان من الخليفة المأمون نفسه ، يقول أبو العيناء " نظر المأمون إلى يحيى بن أكثم يلحظ خادماً له ، فقال للخادم : تعرّضْ لِه إِذَا قَمْتُ ، فَإِنِّي سَأَقُومُ لِلوضُوءِ ، وَأَمْرِه أَلَا يَرْحِ ، وَعَدْ إِلَيَّ بِمَا يَقُولُ ، وَقَامَ الْمَأْمُونُ ، وَأَمْرَ يَحِيَّ بِالْجُلوْسِ ، فَلَمَّا قَامَ غَمْزَهُ الْخَادِمُ بِعِينِهِ فَقَالَ يَحِيَّ : ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَا مُؤْمِنِين﴾<sup>(١)</sup> ، فَمَضَى الْخَادِمُ إِلَيَّ الْمَأْمُونَ ، فَقَالَ لَهُ عَدُّ إِلَيْهِ فَقَلَ لَهُ : ﴿أَنْحَنُ صَدَنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِين﴾<sup>(٢)</sup> فَخَرَجَ الْخَادِمُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ مَا أَمْرَهُ بِهِ الْمَأْمُونُ ، فَأَطْرَقَ يَحِيَّ ، وَكَادَ يَمُوتُ جَزْعاً ، وَخَرَجَ الْمَأْمُونُ يَقُولُ :

**مَتَّ تَصْلُحُ الدُّنْيَا وَيَصْلُحُ أَهْلُهَا . . . وَقَاضِيُّ فُضَّاهِ الْمُسْلِمِينَ يُلْوِطُ قَمْ وَانْصَرْفُ وَانْقَالُ اللَّهُ ، وَأَصْلَحْ نِيَّاتِكَ**<sup>(٣)</sup> .

(١) سورة سباء الآية : ٣١ .

(٢) سورة سباء ، الآية ٣٢ .

(٣) أبو الفرج على بين الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة ، معها فهرس بإشراف وتحقيق إبراهيم الإيباري ، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ . ٢٣ / ١٩٤١ .

وقد كانت هذه الإباحية الزائدة هي السبب في شيوع ظاهرة التغزل بالغلمان ، حتى وصلت إلى الأسرة التي تحكم المسلمين " فقد كان طبيعياً أن يشيع الغزل الماجن في هذا العصر ، وبلغ من حدته أن شاعر الغزل الشاذ بالغلمان " (١) .

ومن أهم شعراء الغزل بالغلمان أبو نواس ، والحسين ، بن الضحاك ، أما أبو نواس فهو الشاعر الأسير عند الأمين ، يقول في إحدى قصائده الماجنة عن أحد الغلمان:

كَانَ ثِيَابِهِ أَطْلَانْ :: نَمِنْ أَزْرَارِهِ قَمَرَا  
يَزِيرُ دُكَ وَجْهُهُ حَسْنَا :: إِذَا مَا زَدْتَهُ نَظَرَا  
بِعَيْنِ خَالَطُ التَّفْتِيْرَ :: مِنْ أَجْفَانِهِ الْحَوْرَا  
وَخَدِ سَابِرِي لَقْوَ :: تَصَوَّبَ مَأْوَهُ قَطْرَا

ويقول أيضاً :

يَسْعَى بِهِ خَنْثٌ فِي خُلْقِهِ دَمْثٌ :: يَسْتَأْثِرُ الْعَيْنَ فِي مُسْتَدْرَجِ الرَّائِيْ  
مُقْرَطٌ وَافِرُ الْأَرْدَافِ ذُو عَنْجٌ :: كَانَ فِي رَاحِتِيْهِ وَسْمُ حِنَاءِ  
قَدْ كَسَرَ الشَّعْرَ وَأَوَاتِ وَنَضَدَهُ :: فَوْقَ الْجَبِينِ وَرَدَ الصَّدْعَ بِالْفَاءِ

" وتبلغ هذه الموجة غايتها في عهد الأمين ، إذ حول قصر الخليفة إلى ما يشبه مقصفاً للخمور والمجون ، واتخذ أبو نواس نديمه " (٢) .

وإذا سلمنا بأن هذه الظاهرة لم تكن وليدة عهد الأمين ، إلا أنها نرى أنه ساعد في استمراريتها في عهده ، بل احتوى شاعرها الأول أبو نواس ، أما المرات التي كان يحبس فيها أبو نواس فإني أراها من أنواع استهتاره ورعونته ، فلم يكن صادقاً في زجر أبي نواس ، كما كان المهدى حيال بشار ، فإن أبو الفرج يروي أن كوثرا خادم الأمين خرج ليرى الحرب في أيام الفتنة بين الأمين والمأمون ، فأصابته رجمة في وجهه " فجلس يبكي ، فوجد محمد لما جيء به وجعل يمسح الدم عن وجهه وقال :

ضَرَبُوا قَرَّةَ عَيْنِي :: وَمِنْ أَجْلِي ضَرَبُوهُ

(١) شوقي ضيف العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعرفة ، سنة ١٩٦٦ ، ص ١٧٧ .

(٢) نفسه ، ص ١٧٩ .

**أَخَذَ اللَّهُ لِقَلْبِي** .. مِنْ أَنَاسٍ رَجَمُوْهُ

وقال : وأراد زيادة في الأبيات ، فلم تواته ، فقال للفضل بن الريبع : منْ ها هنا من الشعرا ؟ فقال : الساعة رأيت عبد الله بن أيوب ، فقال : علىَّ به ، فلما دخلَ  
أنشده محمد هذين البيتين وقال أجزهما ، فقال :

**مَا لَمْ أَهْوَ شَبِيهً** .. فِي هِذِهِ الدُّنْيَا تَتَيَّهُ

**وَصَدَلُهُ حُلْوُ وِكْنٌ** .. هَجْرُهُ مُرُّ كَرِيْهُ<sup>(١)</sup>

وهكذا ، وجدا الأمين في هذا الموقف العصيب ، والجنود يضربون بغداد  
بالمنجنيق ، والأهوال تحيط به من كل جانب ، لا يرعوي عن استهتاره ، بل  
يتغزل في غلامه كوثر ، مما بالنا بما كان قبل ذلك من أوقات الرخاء قبل حصار  
بغداد .

أما الغلاميات فقد كان للأمين خاصة ، فإن زبيدة أمه لما رأت شذوذه ،  
وميله للغلمان ، كانت تُلْبِسُ الجواري أزياء الغلمان ، حتى تعدل قدر استطاعتها  
من انحرافه ، فإذا بالشعراء يتغزلون فيما سُمِّيَ بالغلاميات ، وهن الفتيات اللائي  
يلبسن ملابس الغلمان ، فنستطيع أن نعتبر هذه الظاهرة الشعرية عباسية المنشأ ،  
مرتبطة بشذوذ الأمين .

وبعد يجوز لنا أن نتعرف بدور القصر العباسي في حركة الغزل ، اهتم  
الحكام به فأصبح فناً رسمياً ، يطلبه الحكام ويثيرون عليه ، ثم رأينا أثرهم في  
تهذيب شعر الغزل الفاحش عند بشار من المهدى ، وأخيراً التغزل بالغلمان  
والغلاميات ودور الأمين فيها ونحن نرصد الظاهرة فقط ، ولا نذهب إلى شيء  
من تحليلها أو تفسيرها بأحد المناهج البحثية الحديثة .

---

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس  
بإشراف وتحقيق : إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، ٢٢ / ٧٦٨٣ .

### المبحث الثالث

#### الاهتمام بالهجاء

من الأغراض الشعرية القديمة التي وجدت في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي ، " وجوده أمرٌ طبيعي ، مع وجود المديح ، فحينما وجد أناسٌ يستحقون المديح ، وجد غيرهم يستحقون الهجاء " <sup>(١)</sup> . وقد مر هذا الفن بمراحل من التطور أثناء العهد الأموي ، ثم نما في عصر بنى العباس ، وقد أفاد كثير من الباحثين في الحديث عن أغراض الشعر في العصر العباسي ، وأدلى كل باحث بذاته في الحديث عن تطور الأغراض ومن بينها الهجاء ، ولا نريد تكرار ما توصل إليه غيرنا من نتائج ، ولا نريد الخوض في مناقشاتهم في تحليل التجديد الذي وصل إليه الهجاء في هذا العصر ، فما إلى هذا قصدنا في بحثنا ، ولكن نبتغي تلمس أثر الحكم في هذا الفن ومن ثم التجديد فيه .

من المعروف أن هذا العصر اتسم بالفحش في كل شيء ، في سلوكياته الاجتماعية ، وما نتج عن هذه السلوكيات من فن أدبي ، وتمثل هذا الفحش الفني بصفة خاصة في فني الغزل والهجاء ، وقد تحدثنا عن فحش القول في الغزل من قبل ، وأما الهجاء فلم يخل من فحش في العهود السابقة ، خاصة في نصائض الشعراء الأمويين ، ولكن الجديد في ذلك العصر هو ذلك الإفراط في هذا اللون من الهجاء لدى الشعراء ، وكثرة جريان الألفاظ البدئية على ألسنتهم ببساطة عجيبة حتى في مجالس الخلفاء والأمراء والوزراء دون أن يجدوا في ذلك ما يخدش الحياء <sup>(٢)</sup> .

وإذا نظرنا إلى الهجاء ، وجدنا الشاعر لا يهجو إلا من يغضب منه ، ولا يكون هذا الغضب إلا بسبب الاختلاف في الرأي ، أو في العقيدة أو في منهج الحياة ، وفي كثير من الأحيان يكون متعلقاً بالمال ، أي بالعطاء ، ويكون ذلك الخلاف غالباً بين أحد أفراد البيت الحاكم ، أو بين أحد الأغنياء وبين الشاعر

(١) محمد مصطفى هدارة ، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ط ١ ، بيروت ، مطبعة دار العلوم العربية ، سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ ، ص ٤٤٥ .

(٢) عز الدين إسماعيل ، في الشعر العباسي ، الرؤية والفن ، المكتبة الأكاديمية ، ص ٣٦٢ .

" وكان سبب هجاء أبي الأسد أحمد بن أبي دؤاد أنه مدحه فلم يتبه ، ووعده بالثواب ومطله <sup>(١)</sup> . وكذلك ربيعة الرقي لما امتحن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس :

**لَوْ قِيلَ لِلْعَبَّاسِ يَابْنَ مُحَمَّدٍ** :: **قُلْ لَا وَأَنْتَ مُخَلَّدٌ مَا قَالَهَا**  
**مَا إِنْ أَعْدُ مِنْ الْمَكَارِمِ خِصْلَةً** :: **إِلَّا وَجَدْتُكَ عَمَّهَا أَوْخَالَهَا**  
**وَإِذَا الْمُلُوكُ تَسَاءِرُوا فِي بَلْدَةٍ** :: **كَانُوا كَوَافِئَهَا وَكُنْتَ هِلَالَهَا**

فأثناءها عليها بدينارين فكتب إليه يقول :

**مَدْحُوكَ مَدْحَةَ السَّيْفِ الْمُحَلَّى** :: **لِتَجْرِي فِي الْكِرَامِ كَمَا جَرِيتُ**  
**فَهَبْهَا مَدْحَةَ ذَهَبَتْ ضَيَاعًا** :: **كَذَبْتُ عَلَيْكَ فِيهَا وَافْتَرَيْتُ**  
**فَأَنْتَ الْمَرْءُ لَيْسَ لَهُ وَفَاءٌ** :: **كَائِنٌ إِذْ مَدْحُوكَ قَذْرَتْ**<sup>(٢)</sup>

فقد اغتراظ الشاعر من عدم تقدير الفن ، فقلت مدحه هجاء ، لذلك تصايق الرشيد لما علم بالعطية ، ووبخ العباس وجفاه ، وأمر لربيعة بمبلغ كبير وخلعه .

وقد كان لهذه الأموال دور كبير في كم وافر من الهجاء كنا سنسمع به لو لم تسكت الشعرا ، فما دام الشاعر يأخذ الأموال التي يرغب فيها ، فل حاجة إذن إلى هجاء الحاكم ، فإذا قل التقدير راش الشاعر الحاكم بسهامه المصمية .

- فقد كانت الضرورة المادية أحد أهم الضرورات التي دفعت بشاراً إلى الهجاء .  
" ثم إن هو احترف المديح ، فلن يجي - ورائه - كبير الفائدة ، لذلك استخف الشاعر بالناس - كل الناس - حكامًا ومرعوسين ، ولم يعرهم أدنى اهتمام "<sup>(٣)</sup> .

- لذلك وجدنا أبا دلامة لما دخل على المهدى " وعنه إسماعيل بن محمد ، وعيسى بن موسى ، والعباس بن محمد ، ومحمد بن إبراهيم الإمام ، وجماعة من بني هاشم فقال له : أنا أعطي الله عهداً لئن لم تهج واحداً من في البيت لأقطعن

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهرس بإشراف وتحقيق : إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، ٥٠٠٨ / ١٤ .  
(٢) نفسه : ٦٠٦٧ / ١٧ .

(٣) توفيق الفيل ، القيم الفنية المستخدمة في الشعر العباسي ، الكويت ، مطبوعات جامعة الكويت ، مكتبة ذات السلسل ، د.ت ، ص ١٦٣ .

لسانك أو لأضرbin عنقك ، فنظر إليه القوم ، فكلما نظر إلى واحد منهم غمزه بأن عليه رضاه ، فإذا به بعد هذه الترضية لا يجد أفضل من أن يهجو نفسه :

أَلَا أَبْلِغُ إِلَيْكَ أَبَا دَلَامَةَ .. فَلَيْسَ مِنَ الْكَرَامِ وَلَا كَرَامَةٌ  
إِذَا لَبَسَ الْعَمَامَةَ كَانَ قِرْدًا .. وَخَنْزِيرًا إِذَا نَزَعَ الْعَمَامَةَ  
جَمَعْتَ دَمَامَةً وَجَمَعْتَ لَوْمًا .. كَذَاكَ اللُّؤْمُ تَتَبَعُهُ الدَّمَامَةُ  
فَإِنْ تَكُ قدْ أَصَبْتَ نَعِيمَ دُنْيَا .. فَلَا تَفْرَحُ فَقَدْ دَنَتِ الْقِيَامَةِ<sup>(١)</sup>

وقد فقد الشاعر شعوره حينما هجا نفسه ، ثم حين أحس بالخير الكثير الذي سيحصل عليه من الجالسين ، " فإن تلك قد أصبت نعيم دنيا " .

فقد كانت أموال الحكم سدا وإن لم يكن منيعاً أمامكم من الهجاء لم يحدث ، ولا أستطيع أن أحدد إن كان هذا خسارة للفن أم مكسباً له .

وأما الإفحاش الحاد في الهجاء فأرى أن تسامح بعض الخلفاء الزائد كان له دور في استمرار هذه الموجة القبيحة ، وإن كان بشار قد دفع حياته لهذه البذاءة في الهجاء ، فإن هذا لا يمنع أن المهدي تساهل معه قبل هذا إلى حد ما ، ولم يثر المهدي إلا البذاءة الزائدة كثيراً عن المعقول في حق الخليفة وأهله ، يقول بشار في هجاء المهدي :

خَلِيفَةً يَزْنِي بِعَمَاتِهِ .. يَلْعَبُ بِالدَّبُوقِ وَالصَّوْلَجَانِ  
أَبْدَلَنَا اللَّهُ بِهِ غَيْرَهُ .. وَدَسَ مُوسَى فِي حِرَ الخَيْزُرَانِ<sup>(٢)</sup>

وإن كان الذي قتل بشاراً في خبر الطبرى ليس المهدي ، بل هو يعقوب بن داود ، بل ابن المعتر يروى أن المهدي لما قتل بشاراً ندم على ذلك<sup>(٣)</sup> .

(١) أبو الفرج علي الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة منها فهارس بإشراف وتحقيق إبراهيم الإيباري سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ . ٣٧٢٢ / ١٠ . وأبي دلامة ، ديوان ، ط ١ ، بيروت ، دار الجيل ، شرح وتحقيق ، إميل بديع يعقوب ، سنة ١٩٩٤ م ، ١٤١٤ هـ ، ص ١٠٩ .

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منتحة ، طبعة دار المعارف ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، لسنة ١٩٦٦ ، ١٨١/٨ . وأبو الفرج على الحسين الأصفهاني ، الأغاني : طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة منها فهارس بإشراف إبراهيم الإيباري ، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م . ١٠٩٠ .

(٣) ابن المعتر ، طبقات الشعراء ، مصر ، دار المعارف ، تحقيق : عبد السنار أحمد فراج ، ص ٢٢ .

فهذا يجعلنا نرى أن المهدى أمتلك شيئاً من التسامح مع بذاءة بشار الزائدة ، خاصة إذا كانت البذاءة بعيدة عن حرم الخليفة .

وإذا استثنينا المنصور خليفة المسلمين ، فإن الخلفاء والوزراء قد امتلكوا شيئاً غير قليل من التسامح ، جعل الهجاء الفاحش يزدهر ، فإذا كان المأمون قد سامح دعبلاً الخزاعي بشكل مباشر ، فقد يجعل ذلك الشعراً يتجرأون على أي أحد ، أو على أقبح المعاني " قيل للمأمون : إن دعبدل بن علي قد هجاك ؛ فقال : وأي عجب في ذلك ، هو يهجو أبا عباد ولا يهجوني أنا ، ومن أقدم على جنون أبي عباد أقدم على حلمي "(١)" .

وقد هجا الشعراء اعتماداً على هذا العفو - كثيراً من حكام بني العباس ، وكان الأمين بسبب فساده وغيه هدفاً لهجاء الشعراء ، وقد أورد الطبرى بعض الهجاء فيه دون ذكر اسم صاحبه ، من ذلك قول الشاعر :

أضَاعَ الْخِلَافَةَ غِشُّ الْوَزِيرِ .. وَفَسَقُ الْإِمَامِ وَجَهَلُ الْمُشَيرِ  
فَفَضْلُ وَزِيرٍ وَبَكْرٌ مُشَيرٍ .. يُرِيدَانِ مَا فِيهِ حَتْفُ الْأَمِيرِ  
لُوَاطُ الْخَلِيفَةِ أَعْجُوبَةٌ .. وَأَعْجَبُ مِنْهُ خَلَقُ الْوَزِيرِ  
فَهَذَا يَدُوسُ وَهَذَا يُدَاسُ .. كَذَاكَ لَعْنَرِيْ اخْتِلَافُ الْأَمُورِ<sup>(٢)</sup>

ويكفي الأمين دوراً أنه رفيق أبي نواس ، شعره الداعر في كل الأغراض معروف وهو الذي يقول في هجاء دام فاحش :

يَانَافِعَ بْنَ الْفَاجِرَةِ .. يَاسَىدِيْدُ الْمُؤَاجِرَةِ  
يَاهْلَفُ كُلَّ دَاعِرٍ .. وَرَوْجُ كُلَّ عَاهِرَةِ  
مَاهْلَكَةَ تَمَكُّهَا .. أَوْ حُكْمَةَ بَطَاهِرَةِ  
تَجَارَةَ أَحْدَاثَهَا .. فِي الْكَشْحَ غَيْرُ بَائِرَةِ

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق : إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، ٧٨٠٠ / ٢٢ .

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، طبعة دار المعارف ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، سنة ١٩٦٦ ، ٨ / ٣٩٦١ .

## لَوْ دَخَلَتْ عَقِيقَةً :: بَيْتٌ صَارَتْ فَاجِرَةً<sup>(١)</sup>

وإذا جاز لنا أن نعرف بأن السبب الأكبر وال مباشر لهذه الموجة الماجنة ليس الحكم وحدهم ، بل هناك أيضاً الترف الزائد ، والنقلة الحضارية الكبيرة ، المنقولة من الحضارة الفارسية ، والأثر الفارسي واضح في هذه الموجة الماجنة لا شك في ذلك إلا أننا لا نستطيع أن نعفي الحكم من المسؤولية عن شيء من الدعاية وهذا الفحش في القول ، وهذه الإباحية الزائدة ، وقد يكون انشغال الحكم بأمور السياسة قد جعلهم يتهاونون مع الشعراة في بعض الأحيان ، فدعبد يقول أنه يحمل خشبة على رأسه منذ خمسين عاماً ، لا يجد من يصلبه عليها ، وهو من أكبر الهجائن في هذا العصر .

فإذا كان الحكم يشغل أو يتسامح في هجاء قيل فيه ، فإن ذلك يفتح الباب على مصراعيه أمام الشاعر يهجو بشعره الناس العاديين ولا حرج عليه في ذلك .

ويرى الباحث أن الحكم لو أصدر أحكامه بمنع الفحش في القول عامة - والهجاء منها بالطبع - ، وكان من القوة بمكان ، لكسر حدة هذه الموجة العابثة ، خاصة أن كثيراً من الشعراة يخشون الحكم إذا وجدوا فيه شدة ، فهذا بشار على جرأته المعهودة ، وسلطنة لسانه ، يدخل على إبراهيم بن عبد الله بن حسن " فأنسده قصيدة يهجو فيها المنصور ويشير عليه برأي يستعمله في أمره ، فلما قتل إبراهيم خاف بشار ، فقلب الكنية ، وأظهر أنه كان قالها في أبي مسلم وحذف منها أبياتاً<sup>(٢)</sup> .

ولا يظن أن الشعراة الذين هجوا الخلفاء كانوا يعتمدون على قوة خفية تحمي ظهورهم إن صح التعبير كما يرى ذلك محمد عبد العزيز الموافي<sup>(٣)</sup> .

وذلك لأن الخلفاء في العصر العباسي ( ١٣٢-٢٣٢ هـ ) كانوا حكاماً أقوياء قضوا على كل من يحاول مشاركتهم في سلطتهم ، فقد قضوا على أبي مسلم ،

(١) عز الدين إسماعيل ، في الشعر العباسي الرؤية والفن ، المكتبة الأكاديمية ، ص ٣٦٢ .

(٢) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهرس بإشراف وتحقيق إبراهيم الإيباري ، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م / ٣ / ١٠٠٤ .

(٣) حركة التجديد في الشعر العباسي ، مكتبة الشباب ، سنة ١٩٩١ م ، ص ٨٥ .

وعبد الله بن علي ، ثم فتكوا فتكاً دريعاً بالبرامكة على الرغم من مكانتهم في قلوب الناس ، وبالرغم من قوتهم ونفوذهم ، فأرى أنه من غير المعقول أن يعجزوا عن القضاء على شاعر مهما كان سنه ، ولكنه في رأيي - التسامح والعفو الزائد عن الحد ، الذي أوصل الهجائن إلى مجاوزة الحد في فن الهجاء .

### الاهتمام بالزهد :

هذا الغرض ليس جديداً على هذا العصر ، ولكنه غرضٌ قديمٌ ، له جذور سبقت العصر العباسى بزمن طويل ، وقد يكون من الطبيعي ألا يذكر هذا الغرض - خاصة - هنا ، لأن من الطبيعي أن الزاهدين ينأون عن بلاطات الحكم ، ويبتعدون عنهم ، زاهدين في كل ما يحيط بهم من زخارف الدنيا ، رافضين ما يعرض عليهم من متاعهم ، رغبة منهم في نيل الجزاء الأعظم في جنات النعيم ، مطمئنين إلى هذا ، لذا هم ساخطون على الدنيا ، ذامون لها - فها هو عمرو بن عبيد الزاهد يسأل المنصور ، " يا أبا عثمان ، هل لك من حاجة؟ قال : نعم ، قال: وما هي؟ قال : لا تبعث إلى حتى آتيك ، ولا تعطني حتى أسألك . قال المنصور : إذاً لا نلتقي ، فقال عمرو : عن حاجتي سألتني . فودعه وانصرف "(١) . فطبعي أن يكون شعرهم متعلقاً بذم الدنيا ، والرجوع إلى الله ، والإنابة إليه ، ولا علاقة لهم بالحكام على هذه الصورة ، أو من هذا المنظور ، ولا علاقة للحكام بالشعراء الزهاد ، أو شعرهم ، سواء أكان جديداً أو قديماً .

وإذا نظرنا إلى نزعة الزهد نفسها - سواء كانت في شعر أو بدونه - فإن بعض الباحثين يرى أنها كانت رد فعل للهو والمجون والزنقة ، ووجود فوارق اجتماعية بين طبقات المجتمع (٢) .

ويرى الباحث أن ظهور مجموعة من الزهاد في مجتمع مسلم ليس له كبير الصلة بما حل بالمجتمع من فساد ، أو من فروق طبقة بين أفراده ، وإلا لو قفنا

(١) الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بين كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، المنصورة ، طبعة مكتبة الإيمان ، خرج أحديه محمد بيومي ، عبد الله المنشاوي ، محمد رضوان مهنا ، د.ت ، ٤٨٢/١٠ .

(٢) ينظر محمد مصطفى هدارة ، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ط ١ ، بيروت ، مطبعة دار العلوم العربية ، سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ ، ص ٣٠٨ .

حائرين أمام زهد الصحابة ، وتقواهم ، وذمهم للدنيا ، مع ما كان يمتلك به مجتمعهم من تقوى وصلاح ، أو لوقفنا حائرين أيضاً أمام أصحاب الأموال الذين باعوا الدنيا بكل ما فيها وأقبلوا على الله طامعين في ثواب الآخرة ، وهم كثيرٌ ، ويرى الباحث أن حركة الزهد هذه ليست في حاجة إلى تعقيد في تفسيرها ، إنما هي من نوع تقاؤت الناس في قبول تعاليم السماء ، فلا نستطيع أن نقول أن قبول الناس لوعظ والنصح في ذم الدنيا يكن على وثيره واحدة ، وإنما يتقاوون ذلك من نفس إلى أخرى ، هؤلاء الزهاد سمعوا الوعظ فاتعظوا ، في حين لم يتعظ آخرون ، وهذا طبيعي من الجائز أن يحدث سواء وجدت في مجتمع صالح أو مجتمع مملوء بالفاسدين .

أما شعر الزهد وسبب إثباته هنا فإن الباحث صادف في بعض خلفاءبني العباس ميلاً إلى شعر الزهد ، وترحيباً به ، بل وقولاً فيه ، وتشجيعاً له . وإذا كانت طبيعة الزاهد نفسها قد لا تهتم بالقدر أو بالمدح ، فأنتي وجدت في بعض الحكام طلباً مباشراً لشعر الزهد . ومن الطبيعي أن يكون ذلك دافعاً إلى تطوره وإلى ازدهاره ، فإن البضاعة التي يطلبها الحكام لابد لها من نهوض بصورة أو بأخرى .

كان أبو العتاهية ترك قول الشعر ، فحكى فقال : " لما امتنعت من قول الشعر ، أمر المهدى بحبسي في سجن الجرائم وهدده بالقتل أو قول الشعر فقال : بل أقول الشعر "(١). وأبو العتاهية من رواد شعر الزهد ، وإن كان الخبر لم يذكر نوع الشعر الذي طلبه الخليفة ، إلا أن أخباراً أخرى كثيرة تؤكد رغبة الخلفاء في سماع شعره ، حتى ولو كان قاسيأً ، فها هو الأصمubi يقول : " صنع الرشيد يوماً طعاماً كثيراً ، وزخرف مجالسه ، وأحضر أبا العتاهية فقال : صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا فقال :

**عشْ مَا بَدَأْكَ سَالِمًا .. فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ الْقُصُورِ**

قال : أحسنت ثم ماذا ؟ قال :

---

(١) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ط ١ ، مكتبة النهضة المصرية ، تحقيق ، محمد محي الدين عبد الحميد ، سنة ١٩٤٨ م ، ٢٠٣/١ .

**يَسْعِي إِلَيْكَ بِمَا اشْتَهَى . . تَلَدَّى الرُّوَاحُ وَفِي الْبُكُورِ**

قال : أحسنت ثم ماذا ؟ قال :

**فَإِذَا النُّفُوسُ تَقْعُدُ . . فِي ظِلِّ حَشْرَجَةِ الصُّدُورِ**

**فَهُنَّاكَ تَعْلَمُ مُوقِنًا . . مَا كُنْتَ إِلَّا فِي غُرْرُورِ**

فبكى الرشيد ، وقال الفضل بن يحيى : بعث إليك أمير المؤمنين لتسره ، فحزنته  
قال : دعه فإنه رأنا في عمى فكره أن يزيدنا <sup>(١)</sup>.

فلم يستجب الرشيد لتحريض الفضل ضد أبي العتاهية ، وما ذلك إلا لسمو نفسه ،  
ووجود بذرة الزهد داخله ، وإن كانت زخارف الدنيا في من هو في موضعه  
ثقيلة، يصعب الانتباه إليها إلى غرورها إلا لمن رحم الله .

والرشيد خاصة كان من أكثر الناس دموعاً ، لخوفه الشديد من الله ، وكان كثير  
النظر في شعر أبي العتاهية الزاهدة ، قال الأصممي : "دخلت يوماً على الرشيد  
وهو ينظر في كتاب ، ودموعه تحدر على خديه ، فظلت قائماً حتى سكن ،  
وحانت منه التفاتة ، فقال : اجلس يا أصممي ، أرأيت ما كان ؟ قلت : نعم يا أمير  
المؤمنين ، قال : أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا ، ورمى بقرطاس فإذا  
فيه شعر لأبي العتاهية :

**هَلْ أَنْتَ مُعْتَرٌ بِمَنْ خَلَّتَ . . مِنْهُ غَدَاءَ مَضَى دَسَاكِرُهُ**

**وَبِمَنْ أَذَلَّ الْمَوْتُ مَصْرَعَهُ . . فَتَبَرَّأَتْ مِنْهُ عَشَائِرُهُ**

**وَبِمَنْ خَلَّتْ مِنْهُ أَسِرَّتُهُ . . وَبِمَنْ خَلَّتْ مِنْهُ مَنَابِرُهُ**

**أَيْنَ الْمُلْوُكُ وَأَيْنَ غَيْرُهُمْ . . صَارُوا مَصِيرًا أَنْتَ صَائِرُهُ**

**يَا مُؤْثِرَ الدُّنْيَا بِلَدَتِهِ . . وَالْمُسْنَدُ تَعِدُ لَمَنْ يُفَاخِرُهُ**

**نَلْ مَا بَدَالَكَ أَنْ تَنَالَ مِنَ الدُّ . . نِيَا فِي إِنَّ الْمَوْتَ آخِرُهُ**

قال الرشيد : كأني والله أخاطب بذلك دون الناس <sup>(١)</sup>.

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، تحقيق : محمد يوسف الدقاد ،

ثم هو نفسه يقول لأبي العتاهية : عطنى بآيات من الشعر ، فيقول أبو العتاهية :  
 لا تَأْمُنِ الْمَوْتَ فِي طَرْفٍ وَلَا نَفْسٍ .: وَلَوْ تَمَتَّعْتَ بِالْحُجَّابِ وَالْحَرَسِ  
 وَاعْلَمْ بِأَنَّ سِهَامَ الْمَوْتِ صَائِبَةً .: لِكُلِّ مُدَرَّعٍ مِنْهَا وَمُتَرَسِّ  
 تَرْجُونَ النَّجَاهَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا .: إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِيْ عَلَى الْبَيْسِ<sup>(٢)</sup>  
 وإذا كان الخلفاء كثيري الاستماع إلى الزهد بهذه الطريقة ؛ فإن هذا يفسر لنا  
 المقطوعات الشعرية التي رواها المؤرخون للخلفاء ، كالمنصور والمهدي  
 والرشيد ، وأمكننا أن ننسب كثيراً من المقطوعات غير المنسوبة لقائل إلى الخلفاء  
 أنفسهم ، فإنهم يمتلكون نفساً زاهدة ، قد ترتكب الكثير من التصرفات غير المقبولة  
 في كثير من الأحيان ، ولكنها تتضح زهداً عند تذكر الموت والآخرة .

من ذلك ما يروى للمنصور أنه " لما دخل آخر منزل نزله من طريق مكة ، نزل  
 في صدر البيت الذي نزله فإذا فيه مكتوب :  
 أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت .: سُنُوكَ ، وَأَمْرُ اللَّهِ لَا بُدَّ وَاقِعٌ  
 أبا جعفر هل كاهن أو منجم .: لك اليوم من حر المنية مانع  
 قال : فدعا المتولي لإصلاح المنازل ، فقال له : ألم أمرك ألا يدخل المنزل أحد  
 من الدعّار ! قال : يا أمير المؤمنين والله ما دخلها أحد منذ فرغ منها ، فقال :  
 اقرأ ما في صدر البيت مكتوباً ، قال : ما أرى شيئاً يا أمير المؤمنين ، قال : فدعا  
 رئيس الحجة فقال : اقرأ على ما على صدر البيت مكتوباً ، قال : ما أرى شيئاً ،  
 فأمر أن يكتبنا عنه " <sup>(٣)</sup> .

(١) المسعودي ، أبو الحسن على بن الحسين بن علي ، مروج الذهب ومعان الجوهر ، ط ٣ ، مصر ، طبعة السعادة ، تحقيق محمد محبي الدين عبد الحميد ، سنة ١٩٥٨ م ، ٣ / ٣٧٦ .

(٢) الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، المنصورة ، طبعة مكتبة الإيمان ، خرج أحاديثه الشيخ : محمد بيومي ، أ. عبد الله المنشاوي ، أ. محمد رضوان مهنا ، د.ت ، ٥٧٩/١٠ .

(٣) أبو جعفر محمد بن جرير الطبراني ، تاريخ الرسل ، والملوك ، ط ٣ ، منقحة ، طبعة دار المعارف ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، سنة ١٩٦٦ م ، ٨ / ١٠٩ .

وقد روی مثل ذلك للمهدي والرشيد ، وأرى أن سبب ذلك ميل الخلفاء الدفين إلى الزهد ، وسماعهم الكثير له ، وعدم تعصبهم عليه رغم قسوته في بعض الأحيان ، وقد ترك ذلك لهم حسأ زهدياً ، خرج في هذه المقطوعات غير معروفة القائل . ومن هذا يجوز أن نعتبر بعض الحكماء مشاركين للشعراء الزاهدين في زهدهم ، ألهجت ألسنتهم بالزهد ، فتعمق في نقوس بعضهم ، وخرج فناً وأدبًا راقياً.

ولا داعي في هذا البحث لذكر الكثير من الشعراء الزهاد في هذا العصر من أمثال أبي نواس وما دار حول زهدياته من جدل ، أو محمود الوراق ، أو محمد بن كناسة ، أو عبد الله بن المبارك ، فإننا لا ننتهج الحديث عن الغرض بصفة عامة ، بل نبتغي التوصل إلى صلة الحاكم بالغرض إن كان إلى ذلك من سبيل .

### **الاهتمام بالشعر التعليمي :**

هذا النوع من النظم بدعة عباسية خالصة ، استوت ملامحها على يد الشاعر العباسي أبان بن عبد الحميد ، وإن كان هذاراً يثبت في كتابه " اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري " أن هناك محاولات سبقت من هذا النوع على لسان الوليد بن يزيد أو محمد بن إبراهيم الفزاروي ، أو اسحق بن حنين<sup>(١)</sup> ، إلا أنني أرى أن هذه المحاولات لم تكن تامة الجوانب كما كان شعر أبان التعليمي . وقد كان هذا النوع من النظم بإرشاد وتوجيه مباشر من الوزير يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد ، أي أنه صاحب الفضل في فكرة النظم التعليمي برمتها ، فقد روی الصولي في كتاب الأوراق عن حماد بن إسحق قال : " ألزم يحيى بن خالد البرمكي أبان بن عبد الحميد داراً لا يخرج منها حتى ينقل كتاب كليلة ودمنة من الكلام إلى الشعر ، فنقله ، فوهب له عشرة آلاف دينار "<sup>(٢)</sup>.

وروى أيضاً أن أباً لأبان بن عبد الحميد اللاحقي قال : " أحب يحيى بن خالد أن يحفظ كتاب كليلة ودمنة ، فاشتد عليه ذلك ، فقال له أبان بن عبد الحميد : أنا

(١) ص ٣٨٤ .

(٢) ص ٢ .

أعمله شعراً ليخف على الوزير حفظه ، فنقاله إلى قصيدة عملها مزدوجة ، عدد أبياتها أربعة عشر ألف بيت ، في ثلاثة أشهر ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار <sup>(١)</sup>.

وبهذا النظم عُذَّ أبان بن عبد الحميد مبتكر هذا الفن في الأدب العربي . يقول طه حسين - في أثناء حديثه عن أبان بن عبد الحميد - " إن أبان بن عبد الحميد لا يثبت للشعراء المعروفين في فنون الشعر التي اعتادها الشعراء ، ولكنه يفوقهم في شيء نحسب أنه هو الذي ابتكره وسبقه إليه ، فهو إمام طائفة عظيمة الخطر من الناظمين ، بمعنى أنه ابتكر في الأدب العربي فناً لم يتعاطه أحد من قبله ، وهو فن الشعر التعليمي " <sup>(٢)</sup>.

ويقول أيضاً : " إلى هذا الفن سبق أبان بن عبد الحميد في الأدب العربي ، فأنشأ كثيراً من الشعر التعليمي ، طرق فيه فنوناً مختلفة من العلم والحكمة والدين " <sup>(٣)</sup>. ومن قصidته التي نقل فيها كليلة ودمنة :

هَذَا كِتَابُ كَذِبٍ وَمَحْنَةٌ .. وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى كَلِيلٌ دِمْنَةٌ  
فِيهِ دِلَالَاتٌ وَفِيهِ رُشْدٌ .. وَهُوَ كِتَابٌ وَضَعْتُهُ الْهَنْدُ  
فَوَصَّلُوا آدَابَ كُلِّ عَالَمٍ .. حِكَايَةٌ عَنْ السُّنْنِ الْبَهَائِمِ  
فَالْحُكَّمَاءُ يَعْرِفُونَ فَضْلَهُ .. وَالسُّخَفَاءُ يَشْتَهُونَ هَزَّاًهُ  
وَهُوَ عَلَى ذَاكَ يَسِيرُ الْحِفْظِ .. لَذَّ عَلَى اللِّسَانِ عِنْدَ الْلَّفْظِ <sup>(٤)</sup>

ثم عمل أبان بعد نظم كليلة ودمنة كتاباً منظوماً في التاريخ ، والصوم ، والصلوة ، وغير ذلك مما طلبه منه بعض رجالات البرامكة ، الذين أجز لواله العطاء . وعلى منوال نسج أبان ، نسج أبو العناية ( ذات الأمثال ) ، التي احتوت على كثير من الوعظ والحكم :

(١) نفسه ، ص ٣ .

(٢) حديث الأربعاء ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، ٢٢٠ / ٢ .

(٣) نفسه : ٢٢١ / ٢ .

(٤) أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي ، الأوراق ، ط ٢ ، بيروت ، طبعة دار المسيرة ، عنني بنشره ج ، هيرث ، دن ، سنة ١٤٠١ هـ - ١٩٨٢ م ، ص ٤٦ .

حَسْبُكَ مِمَّا تَبْتَغِيهِ الْقُوْتُ .: مَا أَكْتَرَ الْقُوْتَ لَمَنْ يَمُوتُ  
 لِكُلِّ مَا يُؤْذِي - وَإِنْ قَلَّ - أَلْمٌ .: مَا أَطْوَلُ اللَّيْلَ عَلَى مَنْ لَمْ يَنْمِ  
 مَنْ جَعَلَ النَّمَامَ عَيْنًا هَلَّا .: مُبِلْفُكَ الشَّرَّ كَبَاغِيَهُ لَكَا  
 مَا انْتَقَعَ الْمَرْءُ بِمَثْلِ عَقْلِهِ .: وَخَيْرُ ذُخْرِ الْمَرْءِ حُسْنُ فِعْلِهِ  
 إِنَّ الْفَسَادَ ضِدُّهُ الصَّلَاحُ .: وَرَبُّ جَدِّ جَرَّهُ الْمِزَاجُ<sup>(١)</sup>

وبهذا فإن بإمكان الباحث أن يرى دوراً لحكام بنى العباس في اختراع هذا النوع من النظم ، ولكنني أذهب مذهب بعض الباحثين الذين يرون أن هذا النوع من الشعر إن هو إلا نظم بعيد عن روح الشعر الحقيقة " والحقيقة أنَّ عَدَّ مثل هذا النظم من الشعر فيه كثير من التجوز ، فالشعر بمعناه الدقيق ليس هو الكلام الموزون المقفى ، بل إنه يتعامل مع اللغة بطريقة مختلفة تماماً عن النظم التعليمي ، ويعبر عن المشاعر المتصلة بوجودان الإنسان ، ويعتمد على الصورة في تشكيل مضمونه ، ويبتعد عن المباشرة ، والتقريرية ، لأن جوهره هو الإيحاء ، وهو بذلك يختلف عن تلك المنظومات "<sup>(٢)</sup> .

### **الخمريات :**

اختلاف الفقهاء في تفسير قوله تعالى :

«يَا يَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ  
 الشَّيْطَانِ فَاجْتَبِيُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (المائدة : ٩٢) .

وكان اختلافهم يرتكز على المراد بالخمر ، وإن كانوا قد اتفقوا على تحريم كل ما هو مسكر ، إلا أن بعض الفقهاء " أداة اجتهاد إلى تحليل بعض أنواع من الأنذدة ، كنبذ التمر الزيبيب إن طبخ أدنى طبخ ، وشرب منه قدر لا يسكر " <sup>(٣)</sup> .

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهرس بإشراف تحقيق إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م ، ٣٦/٤ .

(٢) محمد عبد العزيز المواتي ، حركة التجديد في الشعر العباسى ، مكتبة الشباب ، سنة ١٩٩١ م ، ص ١٢٩ .

(٣) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، الهيئة العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، سنة ٢٠٠٢ ، ١٣٥/١ .

وقد كان هذا الرأي تكأة يستند عليها أصحاب النفوس الضعيفة ، فأسرفت طوائف مختلفة من المسلمين على نفسها في شرب الخمر ، وشاعت هذه الظاهرة في المجتمع كله ، وجاهر الناس بمجالس الشراب ، وصور مجموعة من مجان الشعراً مجالس الشراب دون رادع من خلق أو دين استناداً على هذا الرأي وتحميلاً له أكثر مما يحتمل .

وتبع هذه الظاهرة الواضحة ، والمنتشرة في مجتمع العصر العباسي ، حركة أدبية إيداعية أبدع فيها عدد من الشعراً المستهتررين قصائد مطولة ، تدور حول الخمر وحول مجالسها ، وسمى هذا الشعر في الأدب العربي بالخمريات .

أما علاقة الحاكم بهذا الفعل فيرى الباحث أنها كانت مباشرة ، بدأت بالوليد بن زيد، مروراً بخلفاء وحكام العصر العباسي (٢٣٢-١٣٢ هـ) إذا استثنينا منهم أباً جعفر المنصور ، فقد روى أن المهدى كان يشرب نوعاً من النبيذ ، وكان يسمح للشعراً في إنشاد الخمريات بحضوره ، وهذا بلا شك تشجيع للشعراً على التمادي في هذا النوع من الشعر .

فيروي حماد الرواية يقول "دخلت على المهدى فقال : أنسنني أحسن أبياتٍ في السُّكْرِ ، ولك عشرة آلاف درهم وخلعتان من كسوة الشتاء والصيف ؟ فأنشدته قول الأخطل :

ثَرَى الزُّجَاجَ وَلَمْ يَطْمِثْ يُطْفِئْ بِهِ .. كَأَنَّهُ مِنْ دَمِ الْأَجْوَافِ مُخْتَضَبُ  
حَتَّى إِذَا افْتَضَ مَاءُ الْمُزْنِ عُذْرَتَهَا .. رَاحَ الزُّجَاجُ وَفِي الْوَانِهِ صَاهِبُ  
تَتَرُوْ إِذَا شَجَّهَا بِالْمَاءِ مَا ذَجَّهَا .. نَزَوَ الْجَنَابِ فِي رَمْضَانَ تَتَهِبُ  
رَاحُوا وَهُمْ يَحْسَبُونَ الْأَرْضَ فِي فَلَكٍ .. أَصْرَعُوا وَقْتَ الرَّاحَاتِ وَالرُّكَبُ

قال لي : أحسنت وأمر لي بما شرطه ووعدي به فأخذته" (١) .

ومجالس الرشيد ، وما أحاط بها من شراب ، بل ومن جدل حول مسألة الشراب خاصة في مجلسه ، أشهر من أن يعاد ذكرها هنا ، فقد أحدثت مجالس الرشيد

(١) أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة دار الشعب ، طبعة كاملة محررة معها فهارس بإشراف وتحقيق : إبراهيم الإبياري ، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ . ٢١٦٨/٥ .

عامة بما تحويه من شراب ولهم ضجة كبيرة بين المدافعين عن تقواه وورعه ، وبين من سجلوا في تاريخه صورة لمجالس الشراب هذه .

أما الأمين فقد صحب أبا نواس شاعر الخمرية الأول غير منافس ، وشرب وسكر وعربد ، وهذا معروف مشهور ليس عليه كبير خلاف .

وبناء على هذه التجاوزات من أفراد البيت الحاكم ، بالغ أبو نواس في وصف مجالس الشراب ، وفي تقديس الخمر ، ولم يتوقف عند النوع الحلال منها ، بل جاهر بالحرام فقال :

وَإِنْ قَالُوا حَرَامٌ قُلْ حَرَامٌ .. وَلَكِنَّ الَّذِيْذَ فِي الْحَرَامِ<sup>(١)</sup>

وقد كان وقوع الخلفاء في هذا المزلق سبباً في ذيوع شعر الخمرية على هذا النحو .

---

(١) أبو نواس ، ديوان ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، حققه وضبطه وشرحه : أحمد عبد المجيد الغزالي ، ص ٦٩٣ .

# **الفصل الرابع**

## **دور الحكام في تطور النثر**

## **المبحث الأول**

### **تطور النثر والنهاية به**

#### **تطور النثر :**

من طبيعة الأمور أن يتطور النثر في عصر العباسين كما تطور كل شيء ، فقد تحذثنا عن النهضة العلمية التي عممت العصر ، وأثرت في نواحٍ كثيرة من نواحي الحياة فيه ، وتركَت أثراً لها الواضح في رقي المجتمع العباسي بصفة عامة ، والطبقة الحاكمة على وجه الخصوص ، وقد تركت هذه الطفرة العلمية الكبيرة أثراً على العلماء والشعراء والكتاب ؛ بل وتركَت بصمتها في الحياة الاجتماعية ، وفي الحياة السياسية أيضاً وقد تحذثنا عن توفر رواد الثقافية ، وسخاء الدولة في الاهتمام بها ، ووقف الخلفاء من العلم والعلماء موقفاً كان له أثرٌ بعيد في بلوغ هذا النهضة الثقافية أعلى مستوى لها بما جعلها تبدو واضحة الملامح ظاهرة في القسمات عبر تاريخ العرب الطويل ، فقد ضم هذا العصر ( ١٣٢ - ٢٣٢ هـ ) أئمة كل العلوم العربية ، ولا يمكن البتة إنكار الدور الكبير لحكومة العباسين في هذا التطور الثقافي والعلمي ، الذي يفتقر على طبقة واحدة من طبقات المجتمع ، بل احتوى هذا التطور العلمي والفنى الطبقات الفقيرة كما احتوى غيرها ، فأصبح المجتمع كله ينعم بالفكر والفن والثقافة .

أما النثر فقد شهد تطويراً ملحوظاً في المعاني وفي الألفاظ وفي التراكيب ، وقد شهد العصر العباسي ( ١٣٢ - ٢٣٢ هـ ) مجموعة من أرباب الكتابة النثرية وشهدت رسائلهم وخطبهم وتوصياتهم التي بين أيدينا احتواء هذه الثقافات الكثيرة التي سادت المجتمع ، فتركَت أثراً لها في هذه الرسائل ، وهذه الخطب ، وهذه التوصيات " وعلى سنن من طبائع الحياة ، أخذ النثر يتطور تطوراً واسعاً ، إذ حمل خلاصة هذه المدينة ، وملئت أوانيه بشرابها الجديد ، الذي اختلفت ألوانه باختلاف ينابيعه الكثيرة ، وقد أظهر النثر العربي مرونة واسعة ، إذ استطاع أن

يحتوي كل هذه الينابيع ، وأن يتسع لها صدره ، بل لقد غدا كمجرى نهر كبير ، روافده جداول من ثقافات متعددة لا يكاد يحد أو يحصى <sup>(١)</sup>.

### النهوض بالنشر :

وقد كانت لحكومة العباسين عدة أدوار في هذا التطور ، الذي شمل كل فنون النشر ، فإذا ذهبنا نتتبع دور الحكام في هذا التطور ؛ لمسنا أن أهم أدوارهم للنهوض بالنشر تتمثل في :

**أ- الترجمة :**

كان لاهتمام الخلفاء ووزرائهم بالترجمة أكبر الأثر في النهوض بالنشر بصفة عامة ، " بما ترجم عن الفارسية من آثار أدبية ، وما نقل عن اليونانية من المسائل العقلية والمنطقية ، وكان لتطور الإدارة دورٌ كبير في تطور النشر " <sup>(٢)</sup> .

فقد أنفق العباسيون الأموال الطائلة على ترجمة علوم و المعارف الأمم الأخرى إلى اللغة العربية ولم يقتصر دور الترجمة على ترجمة العلوم التطبيقية العملية كالطب والفالك والرياضيات فقط ، بل اتسع نطاق الترجمة - برعاية الحاكم - وترجمت علوم وآداب اليونان ، من مثل كتب أفلاطون في الفلسفة والأدب ومنها <sup>(٣)</sup> :

- ١- كتاب السياسة .
- ٢- كتاب المناسبات .
- ٣- كتاب النواميس .
- ٤- كتاب طيماؤس .
- ٥- كتاب التوحيد .
- ٦- كتاب الحس واللذة .

(١) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعرفة سنة ١٩٦٦ م ، ص ٤٤١ .

(٢) مصطفى الرافعي ، حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهرة ، ط ٢ ، بيروت ، منشورات الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، سنة ١٩٦٨ م ، ص ٢٢٨ .

(٣) جورجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، القاهرة ، دار الهلال ، طبعة راجعها وعلق عليها : حسين مؤنس ، ص ١٧١ .

٧- كتاب أصول الهندسة .

وكتب أرسطو طاليس ومنها على سبيل المثال<sup>(١)</sup> :

١- كتاب المقولات .

٢- كتاب العباره .

٣- كتاب البرهان .

٤- كتاب الجدل .

٥- كتاب المغالطات أو الحكمة المنوهة .

٦- كتاب الخطابة .

٧- كتاب الشعر .

٨- كتاب الكون والفساد .

٩- كتاب النفس .

١٠- كتاب الأخلاق .

١١- كتاب المرأة .

وغيرها من كتب الطب وفروعه ، وكتب الرياضيات والنجوم ، ورسائل العلوم<sup>(٢)</sup>.

ولقد رأى بعض المؤرخين أن ترجمة الكتب اليونانية يرجع إلى رؤية رآها المأمون في منامه ، أو نحو ذلك ، فقد ذكر صاحب الفهرست " أن أحد الأسباب التي من أجلها كثرت كتب الفلسفة ، وغيرها من العلوم القديمة : أن المأمون رأى في منامه كأن رجلاً أبيض اللون ، مشرباً حمرة ، واسع الجبهة ، مقرنون الحاجب، أجلح الرأس ، أشهل العينين ، حسن الشمائ ، جالس على سريره ، قال المأمون :

وكأني بين يديه قد ملئت هيبة ، فقلت : من أنت ؟ قال : أنا أرسطاليس ، فسررت به وقلت : أيها الحكيم ! أسائلك ؟ قال : سل ، قلت : ما الحسن ؟ قال : ما حسن في العقل ؟ قلت ثم ماذا ؟ قال : ما حسن في الشرع ، قلت ثم ماذا ؟ قال ما حسن عند الجمهور ، قلت : ثم ماذا ؟ قال : لا ثم ! وفي رواية أخرى ، قلت :

---

(١) نفسه : ص ١٧٢ .

(٢) نفسه : ص ١٧٤ .

زدني ، قال : من نصحك في الذهب فليكن عندك كالذهب ، وعليك بالتوحيد .  
فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب <sup>(١)</sup> .

من غير المعقول أن يكون المأمون جاهلاً بأرسطوليس ولا يعلم عنه شيئاً إلا من المنام ، لأن هذا غير لائق علمياً ، فمن أين يأتيه في المنام من لا يعرفه في الحقيقة ، ثم إننا رأينا أن المأمون شخصية اشتهر عنها موسوعية العلم بكل أصنافه ، فكان يمتلك شخصية علمية فذة موسوعية ، فإذا صحت هذه الرواية دلتا على أن الحلم كان انعكاس صورة طبيعية لما كان يفكر فيه المأمون في اليقظة ، كما يرى ذلك أحمد أمين <sup>(٢)</sup> .

ولقد كان لهذه الثقافة اليونانية دورها في نشأة علم الكلام ، وأثرها في مناظرات المتكلمين لخصوم الدين الإسلامي جليًّا واضح، وقد اتضح "أن حاجة المتكلمين إلى الفلسفة لوقوفهم أمام خصومهم يجادلونهم بمثل حججهم اضطرتهم إلى أن يقرأوا الفلسفة اليونانية ، وينتفعوا بالمنطق وباللاهوت اليونانيين ، فنرى النظام يقرأ أرسطو ويرد عليه ، وأبا الهذيل العلاف كذلك ، نرى كثيراً من المعتزلة يتكلمون في الطفرة والتولد ، والجوهر والعرض ، والجوهر الفرد ، ونحو ذلك من المسائل التي تعد من صميم الفلسفة اليونانية ، وتدخل في بحوث المتكلمين" <sup>(٣)</sup> .

ولقد كان تأثير لهذه الثقافة اليونانية التي حرث الحكام على ترجمتها أثراً في النثر الفني ، فقد وجدها روؤس المعتزلة يتعرضون في كلامهم وفي مناظراتهم للأجسام ، والأعراض ، والجواهر ، والحركة ، والسكن ، والكمون ، والتولد ، والطفرة ، والوجود ، والعدم ، والروح ، والنفس ، والعقل ، وأدراك الحواس ، والكم ، والكيف ، والألوان ، والخير ، والشر .

---

(١) ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن أبي يعقوب ، الفهرست ، الفهرست ، بيروت ، دار المعرفة ، نسخة طبعة مصر ، سنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ، ص ٢٤٣ .

(٢) ضحي الإسلامي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكة الأسرة ، ١٩٩٨ م ، طبعة سنة ٢٠٠٢ ، ١/٢٨٤ .

(٣) أحمد أمين ، ضحي الإسلام ، ط ٩ ، مكتبة النهضة المصرية ، نسخة الجزء الثالث ، سنة ١٩٧٨ م ٣/٨ .

" وكل ذلك كان له آثار بعيدة في النثر العربي ، لا من حيث الألفاظ والمصطلحات الجديدة فحسب ، بل أيضاً من حيث ذخائر الفكر الفلسفي اليوناني والعربي ، التي التقت في أوعيته وأوانيه ، والتي جعلته يعرف صوراً من تحليل الأفكار وتركيبها لا عهد له بها " <sup>(١)</sup> .

ولم يقتصر دور الحكماء في الترجمة التي خدمت النثر العربي على التراث اليوناني وإنما اهتموا أيضاً بنقل كثير من ثقافات الهند ، التي نقلها الفرس إلى لغتهم الفارسية ، فلما دخلوا الإسلام نقلوها إلى اللغة العربية ، ومن أهم الكتب التي ترجمت عن الثقافة الهندية كتاب كليلة ودمنة ، الذي نقله ( عبد الله بن المُقْعَنْ ) وإن كان الأطباء الهنود أهم من انتقل بعلمه إلى الثقافة العربية والإسلامية ، حيث أحضرهم الحكماء ، وأمرؤهم بنقل علومهم إلى العربية ، وكان كثير من الفكر والفن قد انتقل إلى العربية عن طريق هؤلاء ، فكانت لهم آراء مهمة في بلاغة القول ، وفي الأدب ، فقد كان من أئمَّة بغداد من هؤلاء الأطباء يحمل معه كتبًا وصحفًا في مواضيع شتى " حكى الجاحظ أن معمراً أبا الأشعث قال : قلت لبهلة الهندي - أيام اجتب يحيى بن خالد أطباء الهند - : ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهلة : عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها ، وتلخيص لطائف معانيها ، قال أبو الأشعث : فلقيت بتلك الصحيفة الترجمة فإذا فيها " أول البلاغة اجتماع آلات البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجنس ، ساكن الجوارج ، قليل اللحظ متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوق ، ويكون في قوله فضل للتصريح في كل طبقة ، لا يدقق المعاني كل التدقيق ، ولا ينفع الألفاظ كل التقيح ، ولا يصفيها كل التصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيمًا أو فيلسوفًا عظيمًا " <sup>(٢)</sup> .

(١) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ ، ص ٤٤٢ وما بعدها .

(٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين ، القاهرة ، طبعة الفتوح الأدبية ، تحقيق وشرح / عبد السلام محمد هارون ، وقف على طبعه محب الدين الخطيب ، سنة ١٣٣٢ هـ ٩٢/١ .

وإذا صح وجود هذه الصحيفة ، وصح ما هو موجود فيها من حدث عن البلاغة ، كان ذلك تقسيراً منطقياً لما كان يحدث من بلاغة في ديوان الكتابة العباسية ، ولخلفاء العباسيين وزرائهم ، فلم يكن الكتاب يكلمون الخلفاء والساسة بكلام السوقـة ، وإنما يتخيرون للحكام فصيح القول ، متينه سبكاً ، وأقواه أسلوباً . ولم يقتصر دور الثقافة الهندية على الأدب العربي عامـة ، والنـثر خاصـة ، في هذا الأثر فقط ، بل قد حدد أحـمد أمـين ما أـستقادـه الأـدب العـربـي منـ الـهـنـدـ فيـ أمـورـ ثـلـاثـةـ :

أولـهاـ :ـ الـفـاظـ هـنـدـيـ عـرـبـتـ مـثـلـ (ـ زـنـجـبـيلـ -ـ كـافـورـ )

ثـانيـهاـ :ـ الـقـصـصـ الـهـنـدـيـ .

ثـالـثـهاـ :ـ الـحـكـمـ الـهـنـدـيـ .

وقد ملئت كتب الأدب المؤلفة في هذا العصر بهذا النوع <sup>(١)</sup> .

وقد كان انتقال هذه الثقافة الهندية ، عن طريق الفرس أصحاب الدعوة العباسية بداية ، وأصحاب الكلمة المسموعة لدى حـكـومـةـ العـبـاسـيـنـ طـيـلـةـ الـعـصـرـ العـبـاسـيـ (ـ ١٣٢ـ -ـ ٢٣٢ـ هـ)ـ كـلـهـ ،ـ بـلـ نـقـولـ :ـ أـقـرـبـ النـاسـ إـلـىـ الـخـلـيفـةـ الـعـبـاسـيـ ،ـ فـهـمـ وزـرـاؤـهـ وـكـتـابـهـ وـقـضـاتـهـ ،ـ وـقـدـ اـتـضـحـتـ آـثـارـ الـثـقـافـةـ الـهـنـدـيـ فـيـ كـتـابـاتـهـ .

أما الفرس فهم شيعة العباسيين في انتزاع الخلافة ، وعلى أكتافهم تقلد العباسيون مقاليد حكم المسلمين ، وقد انتقلوا إلى العرب بحضارتهم وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم وآدابهم ، فأصبحوا هم أنفسهم أصحاب كثير من السلطان ، وكثير من الأمر ، وكثير من النهي ، وقد تركوا في العرب عامـة ، وحكـامـ الـعـبـاسـيـنـ خـاصـةـ آـثـارـ قـوـيـةـ ،ـ فـيـ طـرـيقـةـ حـكـمـهـمـ ،ـ وـفـيـ تنـظـيمـ دـوـلـتـهـمـ ،ـ وـفـيـ قـصـورـهـمـ ،ـ وـمـلـابـسـهـمـ ،ـ وـمـأـكـلـهـمـ ،ـ وـمـشـارـبـهـمـ ،ـ وـمـجـالـسـهـمـ ،ـ وـفـيـ أـعـيـادـهـمـ ،ـ وـفـيـ مـعـاـمـلـاتـهـمـ لـلـنـاسـ ،ـ وـفـيـ كـثـيرـ مـنـ ضـرـوبـ حـيـاتـهـمـ .

ولو ذهبنا نعدد آثار الفرس في كل مناحي الحياة لطالـنا القـولـ ،ـ أـمـاـ حينـ نـتـحدـثـ عنـ آـثـرـهـمـ فـيـ النـثرـ الـفـنيـ ،ـ فـسـنـجـدـ أـنـفـسـنـاـ نـنـقـلـ إـلـىـ النـوـعـ الثـانـيـ مـنـ جـهـودـ الـحـكـامـ وـهـوـ :

(١) ضـحـىـ الإـسـلامـ ،ـ الـهـيـئـةـ الـمـصـرـيـةـ الـعـامـةـ لـلـكـتابـ ،ـ مـكـتبـةـ الـأـسـرـةـ ١٩٩٨ـ ،ـ طـبـعـةـ سـنـةـ ٢٠٠٢ـ مـ /ـ ٢٦٥ـ .

## بـ- الاهتمام بديوان الكتابة :

كان الفرس يعتنون عناية بالغة بالكتاب ، ويهتمون بتتشائمهم ، والاهتمام بهم، ثم بعد ذلك امتحانهم امتحاناً قاسياً ، ليختاروا من يلتحق بأحد دواوين الحكم "وكان الرسم جارياً في أيام الفرس ، أن يجتمع أحداث الكتاب ومن نشأ منهم بباب الملك ، متعرضين للأعمال ، فيأمر الملك رؤساء كتابه بامتحانهم ، والتقتيس عن عقولهم ، فمن رضى منهم عرض عليه اسمه ، وأمر بملازمة الباب ، ليستعان به ثم أمر الملك ، بضمهم إلى العمال ، وتصريفهم في الأعمال ، وتنقلهم على قدر آثارهم وكفاياتهم من حال إلى حال ، حتى ينتهي بكل واحد منهم إلى ما يستحقه من المنزلة " <sup>(١)</sup>.

وكان للكاتب في الدولة الفارسية مكانة عالية ، لا يبلغها أحدٌ من الناس ، إلا من كان من طبقته " ولم يكن (الهماليج) <sup>(٢)</sup> في أيام الفرس إلا الملك والكاتب والقاضي " <sup>(٣)</sup>.

وقد انتقل هذا الاهتمام بالكتاب إلى دولة الإسلام في عهد العباسيين ، وزاد عليه بأن أصبحت الإجاده الكتابية طريقاً ممهداً للوصول إلى منصب الوزير ، الذي استحدثه العباسيون بتوجيه من الفرس ، فقد كان يشترط في هذا المنصب القدرة الكتابية ، والفصاحة ، والبيان ، وقد جعل هذا الشرط منصب الوزير مطمحًا يرثوا إليه الكثيرون ، ولم يصلوا إليه إلا إذا بلغوا شاؤًا بعيدًا في تقويم السنن ، وتدريبها على الفصاحة والبيان ، مما كان له أثره في النثر الفني ، وفي رقيه " وتاريخ الوزراء يدلنا على أن أكثر من اختياره لوزارة لوحظ في اختياره الكفاية العلمية والبلاغة ، فأبو سلمة الخلال كان فصيحاً عالماً بالأخبار والأشعار والسير

---

(١) الجهشياري ، أبو عبد الله محمد بن عبادوس ، الوزراء والكتاب ، ط ١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، حقه ووضع فهارسه ، مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ الشلبي ، سنة ١٩٣٨ م ، ص ٣.

(٢) الهماليج : البرادين ، فارسي معرب ، الواحد هملج .

(٣) الجهشياري ، أبو عبدالله محمد بن عبادوس ، الوزراء ، الكتاب ، ط ١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، حقه ووضع فهارسه ، مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ الشلبي ، سنة ١٩٣٨ م ، ص ٩.

والجدل ، والبرامكة كانوا ذوي مشاركة في كثير من العلوم والأداب ، والفضل بن سهل كان يسمى ذا الرياستين لجمعه بين رئاسة السيف ورئاسة القلم <sup>(١)</sup> .

ولم يكن منصب الوزير إلا نهاية يصل إليها بعض من بزغ نجمه في ديوان الكتابة لدى العباسين ، فلقد " كان لكل وزير كاتب بل كتاب يعينونه ولولاة الأقاليم ورجال الدولة كتاب ، فكان حماد عجرد كاتباً لحيى بن محمد بن صول بالموصل ، وكان ابن المفعع يكتب لداود بن عمر بن هبيرة والي كرمان ، وكان عمرو بن مساعدة يكتب للمأمون ، وكان الحسن بن عيسى يكتب لعمرو بن مساعدة ، وكان يكتب لحيى بن خالد البرمي عبد الله بن سوار بن ميمون ، وهذا " <sup>(٢)</sup> .

وقد كان منصب الكاتب أيضاً منصباً تطمح إليه النفوس ، مما حفز كل من اتصل بديوان الكتابة إلى الإجاده في فنه ، والإفصاح بأوضح وأقوى الأساليب عن المعاني المطلوبة منه ، حتى أوصلت الإجاده الكتابية كثيرين من صغار الكتاب إلى بلاطات الخلفاء والوزراء ، وكان لهذا دوره بطبيعة الحال في النهوض بالنشر في هذا العصر " فقد بلغ النثر الفني منزلة سامية ، وامتاز بسهولة العبارة ، وانتقاء الألفاظ ، وجودة الأسلوب ، كما امتاز بجودة المعاني واحتراعها ، ودقة الأخيلة وابتداعها ، وظهور آثار الثقافات الحديثة وخاصة اليونانية فيه " <sup>(٣)</sup> .

" وكل ذلك معناه أن النثر تهيأت له أسباب كثيرة في هذا العصر لكي ينمو ويزدهر فقد أخذ يمتد ليستوعب العلوم والفلسفة ، كما يستوعب مادة عقلية عميقة حتى في المجال الأدبي ، إذ أخذت تغدوه آداب الفرس السياسية والاجتماعية كما أخذت تغدوه الثقافات الأجنبية ، وكل ما وصل بها الفكر اليوناني " <sup>(٤)</sup> .

---

(١) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، مكتبة الأسرة ١٩٩٨ م ، طبعة سنة ٢٠٠٢ م ، ١٨٣ / ١ .

(٢) نفسه : ١٨٤/١ .

(٣) محمد عبد المنعم خفاجي ، الحياة الأدبية في العصر العباسي ، ط ١ ، القاهرة ، نشر رابطة الأدب الحديث دار العهد الجديد سنة ١٩٥٤ م ، ص ٣٤ .

(٤) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ م ، ص ٤٤٨ .

## **المبحث الثاني**

### **أنواع النثر**

ينقسم النثر بشكل عام إلى نوعين : نثر فني ، ونثر غير فني ، أما النثر غير الفني فمنه النثر العلمي ، والنثر التاريخي ، والنثر الفلسفى ، وبعض النثر الدينى ، وكل هذه الأنواع لا تدخل في نطاق البحث الأدبي بمعناه الدقيق ، ولقد كان التطور في النثر الفني أعمق أثراً وأكثر بروزاً ، وذلك لأن أنواع النثر الأخرى لا يلتفت أصحابها إلى جمال الصياغة وروعه الأسلوب ، ودقة الأداء ، أما النثر الفني فمنظور فيه إلى الجانب الجمالي ، لذا أثر فيه حكام بنى العباسى تأثيراً واضحاً.

#### **النثر الفنى :**

كان النثر الفنى قبل العصر العباسى يتميز في أسلوبه بالإيجاز والاقتضاب، كما كان في أغراض لا يكاد يعدو رسائل الخلفاء إلى الملوك والقواد ورؤساء الدولة ؛ لتنفيذ أمر من الأمور العظام بجانب الخطب الرائعة في العصر الأموي . إلا أنه كان محدود الآفاق في أسلوبه وأغراضه وسبب هذا أن الدولة العربية في ذلك الوقت كانت دولة عربية خالصة ، لم تتعقد فيها الحياة الحضرية ، ولم تكن قد اتصلت بعد بالأمم المتحضرة كالفرس واليونان . فلما تحولت الدولة من بنى أمية إلى بنى العباس ، وقامت دولة هؤلاء على أكتاف الفرس ، وحدث هذا الانقلاب السياسي والاجتماعي والفكري ، تعقدت أمور الحياة ، وتشعبت فروعها ، واتسع نطاقها الفكري والعقلي ، وتبع ذلك تطور في النثر الفنى ، لأن النثر هو اللسان المعبر عن هذه الحياة الفكرية ؛ بخلاف الشعر ، فإنه يتعلق بالعواطف ، ولا يكاد يمس الحياة العقلية إلا من جوانب محدودة ، وهكذا ، كان لابد للنثر الفنى من أن يتطور ، ويتساير الحياة ، ويمضي في ركبها قبل غيره.

## أهم أنواع النثر الفني :

### أ- الخطب :

تنقسم الخطابة إلى سياسية ، وحفلية ، ودينية : أما الخطابة السياسية فقد كانت قوتها الحقيقة أيام بني أمية ، لأن العصر الأموي كان عصراً ذهبياً للخطابة العربية بشكل عام ، وذلك لما أحاط بحكومة الأمويين من ظروف سياسية استدعت نمو هذا اللون ، وازدهاره ، ووصوله إلى درجة عالية من الرونق والبيان ، حتى وصل الأمر إلى بني العباس ، استمرت الخطابة على قوتها في بداية الأمر ، وكان السبب في ذلك الجدال الدائر حول أحقيـة الخلافـة ، ولمـن تكون ، وقد انـحرـسـ هذا الجـدـالـ الخـطـابـيـ فيـ عـصـرـ العـبـاسـيـنـ عنـهـ أـيـامـ بـنـيـ أـمـيـةـ ،ـ فـكـانـ الـصـرـاعـ قـائـماـ بيـنـهـمـ وـبـيـنـ أـبـنـاءـ عـلـىـ بـنـ أـبـيـ طـالـبـ -ـ كـرـمـ اللهـ وـجـهـهـ -ـ كـلـ يـرـىـ لـفـسـهـ الـأـحـقـيـةـ الشـرـعـيـةـ فـيـ إـمـامـةـ الـمـسـلـمـيـنـ ،ـ "ـ نـشـطـتـ الـخـطـابـةـ السـيـاسـيـةـ فـيـ مـطـلـعـ هـذـاـ عـصـرـ ،ـ إـذـ اـتـخـذـتـهاـ الثـورـةـ العـبـاسـيـةـ أـدـاتـهاـ فـيـ بـيـانـ حـقـ العـبـاسـيـنـ فـيـ الـحـكـمـ ،ـ وـكـانـواـ يـحـثـونـ مـنـذـ أـوـلـ أـمـرـ بـأـنـ أـبـنـاءـ عـمـهـ الـعـلـوـيـنـ يـضـطـغـنـونـ عـلـيـهـمـ اـسـتـثـارـهـمـ بـالـخـلـافـةـ مـنـ دـوـنـهـ ،ـ فـمـضـواـ يـؤـكـدـونـ فـيـ خـطـابـتـهـمـ أـنـهـ أـصـحـابـ هـذـاـ حـقـ "ـ (ـ ١ـ)ـ .ـ

واشتـدـ الـصـرـاعـ الـكـلـامـيـ بـيـنـ الـطـرـفـيـنـ ،ـ وـأـنـتـجـ عـدـةـ خـطـبـ سـيـاسـيـةـ مـهـمـةـ ،ـ لـلـسـفـاحـ ،ـ وـدـاـوـدـ بـنـ عـلـيـ ،ـ وـأـبـيـ جـعـفرـ الـمـنـصـورـ مـنـ الـعـبـاسـيـنـ ،ـ وـمـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ اللهـ (ـ الـنـفـسـ الـزـكـيـةـ)ـ مـنـ أـبـنـاءـ عـلـىـ ،ـ وـكـانـتـ أـوـلـ خـطـبـةـ خـطـبـهاـ السـفـاحـ حـينـ بـوـيـعـ لـهـ بـالـخـلـافـةـ ،ـ أـنـ صـدـ المـنـبـرـ ،ـ فـقـامـ فـيـ أـعـلاـهـ فـقـالـ :

"ـ الـحـمـدـ لـهـ الـذـيـ اـصـطـفـىـ إـلـلـاهـ لـنـفـسـهـ تـكـرـمـةـ ،ـ وـشـرـفـهـ ،ـ وـعـظـمـهـ ،ـ وـاخـتـارـهـ لـنـاـ ،ـ وـأـيـدـهـ بـنـاـ ،ـ وـجـعـلـنـاـ أـهـلـهـ ،ـ وـكـهـفـهـ ،ـ وـحـصـنـهـ ،ـ وـالـقـوـامـ بـهـ ،ـ وـالـذـابـينـ عـنـهـ ،ـ وـالـنـاصـرـيـنـ لـهـ ،ـ وـأـلـزـمـنـاـ كـلـمـةـ التـقـوىـ ،ـ وـجـعـلـنـاـ أـحـقـ بـهـاـ وـأـهـلـهـ ،ـ وـخـصـنـاـ بـرـحـمـ رـسـوـلـ اللهـ (ـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ)ـ ،ـ وـقـرـابـتـهـ ،ـ وـأـنـشـأـنـاـ مـنـ آـبـائـهـ ،ـ وـأـنـبـتـاـ مـنـ شـجـرـتـهـ ،ـ وـاشـتـقـنـاـ مـنـ نـبـعـتـهـ ،ـ وـجـعـلـهـ مـنـ أـنـفـسـنـاـ عـزـيزـاـ عـلـيـهـ مـاـ عـنـتـاـ ،ـ حـرـيـصـاـ

(١) شـوـقـيـ ضـيـفـ ،ـ الـعـصـرـ الـعـبـاسـيـ الـأـوـلـ ،ـ طـ ١٤ـ ،ـ الـقـاهـرـةـ ،ـ دـارـ الـمعـارـفـ ،ـ سـنـةـ ١٩٦٦ـ ،ـ صـ ٤٤٨ـ .ـ

علينا بالمؤمنين رؤوفاً رحيمًا ، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم ، فقال عز من قائل فيما أنزل من محكم القرآن : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَهِّبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ وقال : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ ، وقال : " وأندر عشيرتك الأقربين " وقال : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقَرِيٍّ فَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى ﴾ وقال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ خُمُسُهُ وَلِرَسُولِهِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى ﴾ . فأعلمهم جل تناوه فضلنا ، وأجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفيء والغنية نصيباً ، تكرمه لنا ، وفضل علينا ، والله ذو الفضل العظيم ، وزعمت السبيئة الظلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، فشاهدت وجوهم ، بم ولم أيها الناس ، وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ، وبصرهم بعد جهالتهم ، وأندهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق وأدحض بناء الباطل وأصلاح بنا منهم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الخيسة ، وأتم بنا النقيصة ، وجمع الفرقة ، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دينهم ودنياهم ، وإخواناً على سرر متقابلين في آخرتهم ، فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه ، وأمرهم شوري بينهم فحووا مواريث الأمم ، فعدلوا فيها ، ووضعوها مواضعها ، وأعطواها أهلها ، وخرجوا خاماً منها ، ثم ثبت بنو حرب ومروان ، فابتزواها وتدالواها بينهم ، فجاروا فيها ، واستأثروا بها ، وظلموا أهلها ، فألمي الله لهم حيناً حتى آسفوه ، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ، ورد علينا حقنا ، وتدارك بنا أمتنا ، وولي نصرنا والقيام بأمرنا ، ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض ، وختم بنا كما افتح بنا ، وإنني لأرجو إلا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله ، يا أهل الكوفة ، أنتم محل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يتثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا وأتاكتم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم في أعطياتكم مائة

درهم ، فاستعدوا ، فأنا السفاح المبيح ، والثائر المبير" <sup>(١)</sup> ثم خطب عمه داود بن علي فقال :

" الحمد لله شكرًا شكرًا الذي أهلك عدونا ، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) أيها الناس الآن أقشع حنادس الدنيا ، وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضُها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها ، وبزغ القمر من مزاغه ، وأخذ القوس باريها ، وعاد السهم إلى منزعه ، ورجع الحق إلى نصابه في أهل بيته ، أهل الرأفة والرحمة بكم ، والعطف عليكم ، أيها الناس ، إنما والله ما خرجننا طلب هذا الأمر لنكثر لجيئنا ولا عقيانا ، ولا نحرن نهرًا ولا نبني قصرًا ، وإنما أخرجنا الأفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبني عمّنا ، وما كرثنا من أموركم ، وبهظنا من شؤونكم ، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم ، وخرقهم بكم ، واستدللهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم ، علينا لكم ذمة الله تبارك وتعالى ، وذمة رسوله (صلى الله عليه وآله) ، وذمة العباس رحمه الله ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، تباً تباً لبني حرب بن أمية ، وبني مروان ، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ؛ فركبوا الآثام ، وظلموا الأنام وانتهكوا المحارم ، وغضوا الجرائم ، وجاروا في سيرتهم في العباد ، وسنتم في البلاد التي بها استذدوا تسربل الأوزار ، وتجلب الأصار ، ومرحوا في أعناء المعاصي ، وركضوا في ميادين الغي جهلاً باستدارج الله ، وأمنا لمكر الله ، فأتاهم بأس الله بياناً وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث ، ومزقوا كل ممزق ، فبعداً للقوم الظالمين ، وأدالنا الله من مروان وقد غره بالله الغرور أرسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه ، فظن عدو الله أن لن نقدر عليه ، فنادي حزبه ، وجمع مكايده ، ورمى بكتائبه ، فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ، ومحق ضلاله ، وجعل

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٧ / ٤٢٥ .

دائرة السوء به ، وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا ، أيها الناس ، إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً ، إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة إنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن اسْحَنَفَ فيه شدة الوعك ، وأدعوا لأمير المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان ، المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحها ، بإبدال الدين ، وانتهاك حريم المسلمين الشاب المتكل المتمهل المقتندي بسلفة الأبرار الآخيار ، الذين أصلحوا الأرض بعض فسادها ، بمعالم الهدى ومناهج التقوى <sup>(١)</sup> . وقد أشاد الجاحظ ببيان داود وفصحته قائلاً : " إنه كان أنطق الناس وأجودهم ارتجالاً واقتضاياً للقول ، وله كلام كثير معروف " <sup>(٢)</sup> . وعلى نفس النهج يخطب أبو مسلم الخراساني خطبة رائعة في الدفاع عن أحقيّة العباسين في الخلافة فيقول :

" الحمد لله الذي حمد نفسه ، واختار الإسلام ديناً لعباده ، ثم أوحى إلى محمد ( صلى الله عليه وآله ) من ذلك ما أوحى ، واختاره من خلقه ، نفسه من أنفسهم ، وب بيته من بيوتهم ، ثم أنزل عليه في كتابه الناطق الذي حفظ بعلمه وأشهد ملائكته على حقه ، قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسُ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُظَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ، ثم جعل الحق بعد محمد صلى الله عليه وآلله في آل بيته ، فصبر من صبر منهم بعد وفاة رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) على الألواء والشدة ، وأغضى على الاستبداد والأثراء ، ثم إن قوماً من أهل بيته الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، جاهدوا على ملة نبيه وسننته بعد عصر من الزمان ، من عمل بضاعة الشيطان وعداوة الرحمن ، بين ظهراني قوم أثروا العاجل على الآجل ، والفاني على الباقي ، إن رتق جور فتقوه ، أو فتق حق رتقوه ، أهل خمور ومخمور ، وطنابير ومزامير ، إن ذكروا لم يذكروا ، أو قدموا إلى الحق أدبروا ، وجعلوا الصدقات في الشبهات ، والمعانم في المحارم ، والفيئ في الغي ، هكذا كان زمانهم ، وبه كان يعمل سلكانهم ، وزعموا أن غير محمد أولى بالأمر

(١) نفسه / ٤٢٦ .

(٢) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٣٣١ ، وما بعدها .

منه ، فلم وبم أيها الناس ؟ ألكم الفضل بالصحابي دون دوي القرابي ؟ ، الشركاء في النسب ، والورثة في السلب ، مع ضربهم على الدين جا هلكم ، وإطعامهم في الجدب جائكم ، والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط ، ما زلت بعد نبيه تختارون تميمياً مرة ، وعدوياً مرة ، وأموياً مرة وأسدياً مرة ، وسفينياً مرة ، ومروانياً مرة ، حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته ، يضربكم بسيفه ، فأعطيتهموها عنوة ، وأنتم صاغرون ، ألا إن آل محمد أئمة الهدى ومنار سبيل التقى ، القادة السادة الذاذة ، بنو عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ومنزل جبريل بالتزييل ، كم قسم الله بهم جبار طاغٍ ، وفاسق باعٍ ، شيد الله بهم الهدى ، وجلى بهم العمى ، لم يسمع بمثل العباس ، وكيف لا تخضع له الأمم لواجب حق الحرمة ؟ أبو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد أبيه ، وإحدى يديه ، وجدة بين عينيه ، أمينه يوم العقبة ، وناصره بمكة ، ورسوله إلى أهلها ، وحاميه يوم حنين ، عند ملتقى الفتئين ، لا يخالف له رسمًا ، ولا يعصي له حكمًا ، الشافع يوم نيق العقاب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قوله في الأحزاب ، إن في هذا أيها الناس لعبرة لأولي الأ بصار<sup>(١)</sup> .

**ويخطب أبو جعفر المنصور بمكة فيقول :**

"أيها الناس ، إنما أنا سلطان الله في أرضه أسو سكم بتوفيقه وتسديده ، وأنا خازنه على فيه ، أعمل بمشيئة ، وأقسمه بإرادته ، وأعطيه بإذنه ، قد جعلني الله عليه قفلاً ، إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم فيئكم وأرزاقكم فتحنى ، وإذا شاء أن يقفلني ، فارغوا إلى الله أيها الناس ، وسلوه في هذا اليوم الشريف ، الذي وهب لكم في من فضله ما أعملكم به في كتابه إذ يقول تبارك وتعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّنَا عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ إِسْلَامَ دِينَكُم﴾ أن

---

(١) أحمد زكي صفت ، جمهرة خطب العرب ، ط ١ ، مصر مطبعة مصطفى البابي الجبى وأولاده . ١٩٣٣ م . ١٥/٣ .

يوفقني للصواب ، ويصدقني للرشاد ، ويلهمني الرأفة بكم ، والإحسان إليك ،  
ويفتحني لأعطياتكم ، وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم ، إنه سميع قريب" (١) .  
ويقول أيضاً :

" يا أهل خراسان ، أنت شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم  
تبايعوا من هو خير منا ، وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب  
تركتناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير ،  
فقام فيها علي بن أبي طالب ، فتلطخ ، وحكم عليه الحكمان ، فأفترقت عنه الأمة ،  
واختلف عليه الكلمة ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه  
، ثم قام من بعده الحسن بن علي ، فو الله ما كان فيها برجل ، قد عرضت عليه  
الأموال قبلها ، فدس إليه معاوية إني أجعلك ولبي عهدي من بعدي ، فخدعه ،  
فانسلخ له مما كان فيه ، وسلمه إليه ، فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة  
فيطلقها غداً ، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ، ثم قام من بعده الحسين  
بن علي ، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة ، أهل الشقاق والنفاق والأغراء في  
الفتن ، أهل هذه المدرة السوداء ، وأشار إلى الكوفة ، فوالله ما هي بحرب  
فأحاربها ، ولا سلم فأسلامها ، فرق بيني وبينها ، فخذلوه وأسلموه حتى قتل ، ثم  
قام من بعده زيد بن علي ، فخدعه أهل الكوفة وغروه ، فلما أخرجوه وأظهروه  
أسلموه ، وقد كان أتى محمد بن علي فناشده في الخروج ، وسألة ألا يقبل أقويل  
أهل الكوفة ، وقال له : إننا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب  
بالكوفة ، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده عمي داود بن علي ، وحضره  
غدر أهل الكوفة فلم يقبل ، وأتم على خروجه ، فقتل وصلب بالكناسة ، ثم وثب  
 علينا بنو أمية ، فأماتوا شرفنا ، وأذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا ترة  
يطلبونها ، وما كان لهم ذلك كله إلا فيهم ، وبسبب خروجهم عليهم ، فنفونا من  
البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ، ومرة بالشام ومرة بالشراة ؛ حتى أبعثكم الله شيعة  
وأنصار فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ، ودمغ بحقكم أهل الباطل ، وأظهر

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ١ ، بيروت ، طبعة دار الكتب العلمية ،  
سنة ١٤٠٧ هـ - ج ٤ / ص ٤٥٣.

حقنا ، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، فقر الحق مقره ، وأظهر مناره ، وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا ، وثبوا علينا ظلماً وحسداً منهم لنا ، وبغياناً لما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا به خلافته ، وميراث نبيه (صلى الله عليه وسلم) جهلاً علَيَّ وجُنباً عنْ عَذْوِهِم ..

**لَبَسْتِ الْخُلَّاتِ الْجَهَلُ وَالْجُنُونُ.** فإني والله يا أهل خراسان ، ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة ، بلغني عنهم بعض السقم والتعمّر ، وقد دسست لهم رجالاً فقلت: قم يا فلان ، قم يا فلان فخذ معك من المال كذا ، وحذوت لهم مثلاً يعلمون عليه، فخرجوا حتى أتواهم بالمدينة ، فدسوا إليهم تلك الأموال ، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايدهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي ، وطلبهم الفتنة ، والتماسهم الخروج عليّ ، فلا يرون أني أتيت ذلك غير يقين ، ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية ﴿ وَحِيلٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فَعَلَ بأشْيَا عِهْمِ مِنْ قَبْلِ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍ مُرِيبٍ ﴾<sup>(١)</sup>.

وعلى الجانب الآخر يخطب محمد بن عبد الله بن حسن (النفس الزكية) حيث خرج على المنصور فيقول :

"أَمَّا بَعْدُ ، أَيُّهَا النَّاسُ ، فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الطَّاغِيَةِ عَدُوُ اللَّهِ أَبِي جَعْفَرِ مَا لَمْ يَخْفِ عَلَيْكُمْ ، مِنْ بَنَائِهِ الْقَبْةِ الْخَضْرَاءِ الَّتِي بَنَاهَا مَعَانِدًا اللَّهُ فِي مَلْكِهِ ، وَتَصْغِيرُ لِكُعبَةِ الْحَرَامِ ، وَإِنَّمَا أَخْذَ اللَّهُ فَرْعَوْنَ حِينَ قَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعُلَى ، وَإِنَّ أَحْقَ النَّاسَ بِالْقِيَامِ بِهَذَا الدِّينِ أَبْنَاءُ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَالْأَنْصَارُ الْمُوَاصِينَ ، اللَّهُمَّ إِنَّمَا قَدْ أَحْلَوْ حِرَامَكَ ، وَحَرَمَوا حَلَّاكَ ، وَآمَنُوا مِنْ أَخْفَتَ وَأَخَافُوا مِنْ آمَنْتَ ، اللَّهُمَّ فَأَحْصِهِمْ عَدَدًا ، وَاقْتُلْهُمْ بَدْدًا ، وَلَا تَغْدِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ، أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي وَاللَّهُ مَا خَرَجْتَ مِنْ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ وَأَنْتَمْ عَنِّي أَهْلُ قُوَّةٍ وَلَا شَدَّةٍ ، وَلَكُنِي اخْتَرْتُكُمْ لِنَفْسِي ، وَاللَّهُ مَا جَئْتَ هَذِهِ وَفِي الْأَرْضِ مُصْرِّ يَعْبُدُ اللَّهُ فِيهِ إِلَّا وَقَدْ أَخْذَ لِي فِيهِ الْبِيَعَةَ<sup>(٢)</sup>.

(١) نفسه : ج ٤ / ص ٥٣٤.

(٢) نفسه : ج ٤ / ص ٤٢٥ .

وهذه القوة البيانية التي رأيناها في هذه الخطاب السياسية بدأت تختفي - كماً - بعد تمكن العباسيين من الحكم ، والقضاء على مناوئيهم من أبناء علىٰ ، فلم نر الخطابة السياسية تكمل مسيرة ازدهارها ، لأن " قوة الشيء ترجع إلى قوة عوامله وأسبابه "<sup>(١)</sup> فلم تستمر على القوة التي كانت عليها في صدر تلك الدولة بينما استقرت ورسخت " إذ فترت عند ذلك الدواعي وهدأت الدوافع "<sup>(٢)</sup> .

فقد جعلتها الظروف السياسية المحيطة بكرسي الخلافة تزدهر وتتمو ، حتى إذا ما استقر القصر ، وهذا إلى حد ما الصراع عليه ، هدأت الخطابة بل " ضعفت الخطابة العباسية في هذا العصر ضعفاً شديداً ، لأنها إنما تزدهر حينما تكفل للناس حرثتهم السياسية ، على نحو ما كان الشأن في عصر بنى أمية ، أما في هذا العصر فقد أخذ العباسيون الناس بالشدة ، فضعف الأحزاب السياسية "<sup>(٣)</sup> . واستمر ضعف الخطابة السياسية زمناً طويلاً ، حتى جاءت فتنة الأمين والمأمون عادت إلى شيء من القوة لم تدم طويلاً ، وإن كانت لم توازن الخطابة في صدر العصر العباسي ، ولا في أيام بنى أمية ، ونستطيع أن نعتبر حركة الخطابة - جودة أو ضعفاً - متعلقة باليت الحاكم نفسه ، لما قوى ضعفت الخطابة السياسية ، لما مر بعض الضعف في بداية الدولة أو في فتنة الأمين والمأمون ، فهناك تناسب عكسي بين قوة الدولة وقوة الخطابة في هذه العصر.

ولما اشتد النزاع بين الأمين والمأمون اشتد على أثره اللسان الخطابي ، يقول المأمون في إحدى خطبه :

" قد عرفتني من حق أمير المؤمنين أكرم الله ما لا أنكره ، ودعوتني من المؤازرة والمعونة إلى ما أوثره ولا أدفعه ، وأننا لطاعة أمير المؤمنين مقدم ، وعلى المسارعة إلى ما سره ووافقه حريص ، وفي الروية تبيان الرأي ، وفي إعمال الرأي نصح الاعتزام والأمر الذي دعاني إليه أمير المؤمنين لا أتأخر عنه تثبيطاً ومدافعة ، ولا أتقدم عليه اعتسافاً وعجلة ، وأننا في ثغر من ثغور المسلمين

(١) أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، ط ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٩٧ م ٣١٧/١.

(٢) نفسه : ١٤٣/١ .

(٣) شوقي ضيف العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ ، ص ٤٥٠ .

كلب عدوه ، شديد شوكته ، وإن أهملت أمره لم أمن دخول الضرر والمكروه على الجنود والرعية ، وإن أقمت لم آمن فوت أحب من معونة أمير المؤمنين وموازرته وإيثار طاعته ، فانصرفوا حتى أنظر في أمري ، ونصح الرأي فيما اعتزم عليه من مسيري إن شاء الله<sup>(١)</sup> .

ويخطب الأمين حينما رأى أن الأمر قد تولى عنه ، وأن أنصاره يتسللون فيخرجون إلى طاهر بن الحسين ، فأشرف عليهم وقال :

" الحمد لله الذي يرفع ويضع ، ويعطي ويمعن ، ويقبض ويُبسط ، وإليه المصير أَحْمَدَهُ عَلَى نِوَافِي الزَّمَانِ ، وَخَذَلَانِ الْأَعْوَانِ ، وَتَشَتَّتَ الرِّجَالُ ، وَذَهَابُ الْأَمْوَالِ ، وَحُلُولُ النِّوَافِيْبِ ، وَتَوْفِدُ الْمَصَائِبِ ، حَمَدًا يَدْخُرُ لِي بِهِ أَجْزَلُ الْجَزَاءِ ، وَيَرْفَدُنِي أَحْسَنُ الْعَزَاءِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، كَمَا شَهَدَ لِنَفْسِهِ ، وَشَهَدَتْ لَهُ مَلَائِكَتُهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدَ الْأَمِينِ ، وَرَسُولَهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، أَمِينَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، أَمَّا بَعْدُ يَا مَعْشِرَ الْأَبْنَاءِ ، وَأَهْلِ السُّبُقِ إِلَى الْهُدَىِ ، فَقَدْ عَلِمْتُمْ غَلَتِي كَانَتْ أَيَامُ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ وَزِيرِ عَلِيٍّ وَمَشِيرِ ، فَمَادِتْ بِهِ الْأَيَامُ بِمَا لَزَمَنِيْ بِهِ مِنَ النِّدَامَةِ فِي الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ ، إِلَى أَنْ نَبْهَوْنِيْ فَانْتَبَهْتُ ، وَاسْتَعْنَتُمُونِيْ فِي جَمِيعِ مَا كَرِهْتُمْ مِنْ نَفْسِيْ وَفِيمُ ، فِي ذَلِكَ لَكُمْ مَا حَوَاهُ مَلْكِيْ ، وَنَالَتْهُ مَقْدَرْتِيْ ، مَا جَمَعْتُهُ وَرَثَتْهُ عَنْ آبَائِيْ ، فَقُوْدَتْ مِنْ لَمْ يَجِزْ ، وَاسْتَكْفَيْتُ مِنْ لَمْ يَكُفْ ، وَاجْتَهَدْتُ عَلَمَ اللَّهِ فِي طَلَبِ رَضَاكُمْ بِكُلِّ مَا فَدَرْتُ عَلَيْهِ ، وَاجْتَهَدْتُ عَلَمَ اللَّهِ فِي مَسَاعِيْ فِي كُلِّ مَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ تَوجِيهِيْ إِلَيْكُمْ عَلَى بْنِ عَيْسَى شِيخِكُمْ وَكَبِيرِكُمْ وَأَهْلِ الرَّأْفَةِ بَكُمْ وَالْتَّحْنُنِ عَلَيْكُمْ ، فَكَانَ مِنْكُمْ مَا يَطْوِلُ ذَكْرُهُ ، فَغَفَرْتُ الذَّنْبَ ، وَأَحْسَنْتُ ، وَاحْتَمَلْتُ ، وَعَزِيزَتْ نَفْسِيْ عَنْدَ مَعْرِفَتِي بِشَرُودِ الظَّفَرِ ، وَحِرْصِيْ عَلَى مَقَامِكُمْ مُسْلَحَةً بِحَلوَانَ مَعَ ابْنِ كَبِيرِ صَاحِبِ دُعَوَتِكُمْ ، وَمَنْ عَلَى يَدِيْ أَبِيهِ كَانَ فَخْرَكُمْ ، بِهِ تَمَتْ طَاعَتُكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَمِيدَ بْنُ قَحْطَبَةَ ، فَصَرَرْتُمْ مِنَ التَّلَبِ عَلَيْهِ إِلَى مَا لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ ، وَلَا صَبَرَ عَلَيْهِ ، يَقُوْدُكُمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ عَشْرُونَ أَلْفًا إِلَى عَامَدِينَ ، وَعَلَى سَيِّدِكُمْ مَتَوَثِّبِينَ ، مَعَ سَعِيدِ الْفَرْدِ

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبراني ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ١ بيروت ، طبعة دار الكتب العلمية ، سنة ١٤٠٧ هـ - ج ٥ / ص ٤٩.

، سامعين له مطيعين ، ثم وثبتم مع الحسين علىّ ، فخلعتموني وشتموني وانتهبتموني وقيدموني ، وأشياء منعتموني من ذكرها حقد قلوبكم وتلكؤ طاعتكم أكبر وأكثر ، فالحمد لله من حمد من أسلم لأمره ورضي بقدره والسلام<sup>(١)</sup>.

ويشارك في المعركة الكلامية الممثلة في الخطب غير الأمين والمأمون ، من أمثال طاهر بن الحسين ، ومحمد بن عيسى ، والعباس بن موسى ، والسيدة زبيدة ، وعبد الملك بن صالح ، وغيرهم ، نذكر منها خطبة رائعة لدود بن عيسى يدعو إلى خلع الأمين فيقول :

" الحمد لله مالك الملك ، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك من يشاء ، ويعز من يشاء ويدل من يشاء ، بيده الخير وهو على كل شيء قادر ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، وأشهد أن محمداً عبد ورسوله ، أرسله بالدين ، وختم به النبيين ، وجعله رحمة للعالمين ، صلى الله عليه في الأولين والآخرين ، أما بعد يا أهل مكة ، فأنتم الأصل والفرع والعشيرة والأسرة والشركاء في النعمة ، إلى بلدكم نفذ وفد الله ، وإلى قبلتكم يأتكم المسلمين ، وقد علمت ما أخذ عليكم الرشيد هارون رحمة الله عليه وصلاته ، حين بايع لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم من العهد والميثاق لتنصرن المظلوم منهما على الظالم ، والمبغي على الباغي والمغدور على الغادر ألا وعلمتم وعلمنا أن محمد بن هارون قد بدأ بالظلم والبغى والغدر ، وخالف الشروط التي أعطاها من نفسه في بطن البيت الحرام ، وقد حل لنا ولكم خلعه من الخلافة ، وتصييرها إلى المظلوم المبغي عليه ، المغدور به ، ألا وإنني أشهدكم أنني قد خلعت محمد بن هارون من الخلافة كما خلعت قلسوتى هذه من رأسي ، وخلع قلسوتى عن رأسه فرمى بها بعض الخدم تحته ، وكانت من برود حبرة مسلسلة حمراء ، وأتى بقلنسوة سوداء هاشمية فلبسها ثم قال : قد بايعت لعبد الله عبد الله المأمون أمير المؤمنين بالخلافة ، إلا فقوموا إلى البيعة لخليفتكم ، فصعد جماعة من الوجوه إليه إلى المنبر رجل فرجل ، فباعوا لعبد الله المأمون بالخلافة وخلعوا محمداً<sup>(٢)</sup>.

(١) نفسه : ج ٥ / ص ١٠٢ .

(٢) نفسه : ج ٥ / ص ٧٠ .

والنوع الثاني الخطابة الحفليّة ، وكما وضعفت الخطابة السياسيّة ضعفت الخطابة الحفليّة ، وذلك بعد تحول شكل القصر الحاكم من الشكل العربي الذي يفتح أبوابه للواردين يدخلون على الخليفة دون كبير تكالُف ، إلى نظام وشكل فارسي يضع بين الخليفة وبين رعيته سداً منيعاً من الحجاب والحراس ، فأصبح الوصول إلى الخليفة شيئاً غير ميسور للناس ، فضعف الخطابة الحفليّة في دواوين الحكام إلى حد بعيد ، واقتصرت على بعض التهاني بتولى الخلافة ، أو التعازي بموت عزيز الخليفة أو الوزير ، فلما ماتت البانوقة وذلك ببغداد ، أظهر عليها المهدى جرعاً لم يسمع بمثله ، فجلس للناس يعزونه ، وأمر ألا يحجب عنه أحد فأكثر الناس في التعازي ، واجتهدوا في البلاغة وفي الناس من ينتقد هذا عليهم من أهل العلم والأدب ، فأجمعوا على أنهم لم يسمعوا تعزية أو جز ولا أبلغ من تعزية (شَبِيبُ بْنُ شَبِيبَةَ) فإنه قال :

" يا أمير المؤمنين ، الله خير لها منك ، وثواب الله خير لك منها ، وأنا أسأل الله ألا يحزنك ولا يفتاك " (١) .

وذكر صباح بن عبد الرحمن قال : حدثي أبي قال : توفيت البانوقة بنت المهدى فدخل عليه (شَبِيبُ بْنُ شَبِيبَةَ) فقال : " أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزئت أجرأ وأعقبك صبراً لا أجهد الله بلاءك بنعمة ولا نزع منك نعمة ، ثواب الله خير لك منها ، ورحمة الله خير لها منك ، وأحق ما صبر عليه ما لا سبيل إلى رده " (٢) .

وخطب (يوسف بن القاسم بن صبيح) الكاتب يوم ولی الرشید الخلافة فقال : " إن الله بمنه ولطفه من عليکم معاشر أهل بيته ، بيت الخليفة ، ومعدن الرسالة ، وأتاكم أهل الطاعة من أنصار الدولة ، وأعوان الدعوة من نعمه التي لا تحصى بالعدد ، ولا تنقضي مدى الأبد ، وأيديه التامة ، أن جمع الفتن ، وأعلى أمرکم ، وشدّ عضدکم ، وأوھن عدوکم ، وأظهر كلمة الحق ، وكنتم أولى بها وأهلها ، فأعزکم الله وكان الله قوياً عزيزاً ، فكنتم أنصار دین الله المرتضى ،

(١) نفسه : ج ٤ / ص ٥٩٣.

(٢) نفسه : ج ٤ / ص ٥٩٣ .

والذابين بسيفه المنتضى عن أهل بيته نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبكم استنقذهم من أيدي الظلمة أئمة الجور ، والناقضين عهد الله ، والسافكين الدم الحرام ، والاكلين الفيء ، والمستائزين به ، فاذكروا ما أعطاكم الله من هذه النعمة ، واحذروا أن تغيروا فيغير بكم ، وإن الله جل وعز استأثر بخليفة موسى الهادي الإمام ، فقبضه إليه ، وولى بعده رشيداً مرضياً أمير المؤمنين رؤوفاً بكم رحيمًا ، من محسنكم قبولاً وعلى مسيئكم بالعفو عطوفاً ، وهو أمتעה الله بالنعمة ، وحفظ له ما استرعاه إياه من أمر الأمة ، وتولاه بما تولى به أولياءه وأهل طاعته ، يعدكم من نفسه الرأفة بكم ، والرحمة لكم ، وقسم أعطياتكم فيكم عند استحقاقكم ، ويبذل لكم من الجائزة مما أفاء الله على الخلفاء مما في بيوت الأموال ما ينوب عن رزقكذا وكذا شهراً غير مقاص لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم ، وحامل باقي ذلك للدفع عن حريمكم ، وما لعله أن يحدث في النواحي والأقطار من العصاة المارقين إلى بيوت الأموال حتى تعود الأموال إلى جمامها وكثرتها ، والحال التي كانت عليها ، فاحمد والله وجدوا شكرًا يوجب لكم المزيد من إحسانه إليكم ، بما جدد لكم من رأي أمير المؤمنين ، وتفضل به عليكم أいで الله بطاعته وارغبوا إلى الله له في البقاء لكم به في إدامة النعماء لعلمكم ترحمون وأعطوا صفة أيمانكم ، وقوموا إلى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم وأصلاح بكم وعلى أيديكم وتولاكم ولاية عباده الصالحين<sup>(١)</sup>.

أما النوع الثالث من أنواع الخطابة ، وأعني الخطابة الدينية ، فإن طبيعتها تضمن لها الاستقرار والتطور ، فلا علاقة لها - بشكل عام - بالقصر وحده ، لأنها تتوجه إلى كافة المسلمين وقد تكون من غير خليفة أو حاكم ، لذا كثر الخطباء والبلغاء ، وكان منهم بطبيعة الحال خلفاء ووزراء ، وإذا كانت الخطابة الدينية من غير الحكام لا تدخل في مجال بحثنا ، لأن أثر الحكام فيها وفي توجيهها ليس بالأثر المباشر ، إلا أننا نجد من الخلفاء والوزراء من صدرت عنه خطب دينية بلغة ، أضيفت إلى ما لحكام العباسيين من درر الكلام ، وفصيح القول ، وإذا كانت خطب المنصور والسفاح قد اتخذت شكلاً سياسياً ، أو غالب عليها الجانب

(١) نفسه : ج ٤ / ص ٦١٨ .

السياسي، فإن للمهدي وللرشيد وللمأمون خطباً دينية قوية ، يقول أبو جعفر في أحدي خطبه الدينية :

" ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون أمر مبرم ، وقول عدل ، وقضاء فصل ، والحمد لله الذي أفلج حجته ، وبعداً للقوم الظالمين ، الذين اتخذوا الكعبة عرضاً ، والفيء إرثاً ، وجعلوا القرآن عضين ، لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكم ترى من بئر معطلة وقصر مشيد ، أهملهم الله حتى بدلوا السنة ، واضطهدوا العترة ، وعندوا واعتدوا واستكرووا ، وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمح لهم ركزاً " (١).

ويخطب المهدي فيقول :

" الحمد لله الذي ارتضى الإسلام لنفسه ، ورضي به من خلقه ، أحده على آله ، وأمجده لبلائه ، واستعينه ، وأؤمن به ، وأنوكل عليه توكل راضٍ بقضائه ، وصابر لبلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده المصطفى ، ونبيه المجتبى ، ورسوله إلى خلقه ، وأمينه على وحيه ، أرسله بعد انقطاع الرجاء ، وطموس العلم ، واقتراض من الساعة ، إلى أمةٍ جاهليةٍ ، مختلفةٌ أميةٌ ، أهل عداوة وتضاغن ، وفرقة وتباین ، قد اسهوتهم شياطينهم ، وغلب عليهم قرناؤهم ، فاستشعروا الردى ، وسلكوا العمى ، يبشر من أطاعه بالجنة وكريم ثوابها ، وينذر من عصاه بالنار وأليم عقابها " ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيَّ عن بينة ، وإن الله سمِيع عَلِيْم " أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن الاقتصار عليها سلامة ، والترك لها ندامة ، وأحثكم على إجلال عظمته ، وتوفير كبرياته وقدرته ، والانتهاء إلى ما يقرب رحمته ، وينجي من سخطه ، وينال بهما لديه من كريم الثواب وجزيل المآب " (٢) .

ويخطب الرشيد فيقول :

---

(١) نفسه : ج ٤ / ص ٥٣٤ .

(٢) أحمد زكي صفت ، جمارة خطب العرب ، ط١ ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، وأولاده ، سنة ١٩٣٣ . ٥٠/٣ .

" الحمد لله نحمده على نعمه ، ونسأليه على طاعته ونستنصره على أعدائه ونؤمن به حقاً ، ونتوكل عليه ، مفوضين إليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بعثه على فترة من الرسل ، ودروس من العلم ، وإدبار من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، بشير بالنعيم المقيم ، ونذير بين يدي عذاب أليم ، فبلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله ، فأدى عن الله وعده ووعيده ، حتى أتاه اليقين فعلى النبي من الله صلاة ورحمة وسلام " (١).

ويخطب المؤمن يوم الجمعة فيقول :

" الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجبه على خلقه ، أحمسه وأستعينه ، وأؤمن به ، وآتوكه عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده ، والتجز لوعده ، والخوف لو عيده ، فإنه لا يسلم إلا من انتقامه ورجاه ، وعمل له وأرضاه ، فانقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما ينزل عنكم ، وترحلوا فقد جبكم ، واستعدوا للموت فقد أظلمكم ، وكونوا قوماً صيح بهم فانتبهوا ، واعملوا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، فإن الله لم يخلفكم عبشاً ولم يترككم سدىً ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، وإن غائباً غاية تقصها اللحظة ، وتهدمها الساعة الواحدة ، لجديره بقصر المدة ، وإن غائباً يحده الجديدة : الليل والنهر لحرى بسرعة الأوبة ، وإن قادماً يحله بالفوز ، أو بالشقاوة لمستحق لأفضل العدة ، فاتقى عبد ربه ، ونصح نفسه ، وقدم توبته ، وغلب شهوته ، فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادع له ، والشيطان موكل به ، يزين له المعصية ليركبها ، ويمينه التوبة ليسوفها ، حتى تهجم عليه منيته أغفل ما يكون عنها " (٢).

(١) نفسه : ٣/٨٠.

(٢) نفسه : ص ١٢٠ .

ولقد كان للوعاظ خطب دينية في داويين الحكام جعلتهم يعترفون لهم بالورع والتقوى وأثرت فيهم تأثيراً قوياً ، حدث ذلك مع عمرو بن عبيد والمنصور ، ومع الرشيد وابن السمّاك ، فقد ذكر محمد بن هارون عن أبيه قال :

" حضرت الرشيد وقال له الفضل بن الريبع : يا أمير المؤمنين قد أحضرت ابن السمّاك كما أمرتني ، قال أدخله فدخل ، فقال له : عظني ، قال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده لا شريك له ، وأعلم أنك واقف غداً بين يدي الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزليتين لا ثالثة لهما ، جنة أو نار ، قال : فبكى هارون حتى أخذلت لحيته ، فأقبل الفضل على ابن السمّاك فقال : سبحان الله ، وهل يتخلج أحد شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله لقيمه بحق الله وعدله في عباده وفضله ، قال فلم يحفل بذلك ابن السمّاك من قوله ، ولم يلتفت إليه ، وأقبل على أمير المؤمنين فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا يعني الفضل بن الريبع ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم ، فانتق الله وانظر لنفسك قال فبكى هارون حتى أشفقنا عليه ، وأفحى الفضل بن الريبع فلم ينطق بحرف حتى خرجنا " <sup>(١)</sup> .

وكان لغير الخلفاء من القواد والوزراء وعليه القوم خطب دينية أيضاً ، ولم تكن هذه الخطب على قوتها وبلاعتها - إلا نتيجة من نتائج ثقافة الحكام البلاعية العالية ، وأما خطب الوعاظ وخطباء المساجد العاديين فإن كان للحكام فيها من أثر فإنه سيكون متمثلاً في دورهم في تسهيل طرق الحصول على الثقافة كما أوضحتنا في الفصل الثاني.

### ب- الوصايا :

لم تقتصر بلاغة الحكام على الخطب - دينية كانت أم سياسية - ، وإنما تجلت بلاغتهم وأثارهم في النثر الفني في أنواع أخرى ، منها الوصايا ، ولقد تفنن الحكام يوصون أبناءهم وذويهم بكلمات محكمة بلغية ، إن دلت على شيء فإنما

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ١ ، بيروت ، طبعة دار الكتب العلمية ، سنة ١٤٠٧ هـ - ج ٥ / ص ٢٢.

تدل على الثقة الغزيرة بأسرار العربية وبلغة القول فيها ، فالمنصور يوصي ابنه المهدى ، فيقول :

" انظر هذا السُّقْطِ فاحتفظ به ، فإن فيه علم أبائك ، ما كان ، وما هو كائن إلى يوم القيمة ، فإن أحزنك أمرنا فأنظر في الدفتر الأكبر ، فإن أصبت فيه ما تريد وإلا فالثاني والثالث ، حتى بلغ سبعة ، فإن نقل عليك فالكرامة الصغيرة ، فإنك واجد فيها ما تريده ، وما أظنك تفعل ، وانظر هذه المدينة ، فإياك أن تستبدل بها ، فإنها بيتك وعزك ، قد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجناد ، والنفقات ، وعطاء الذرية ، ومصلحة التغور ، فاحتفظ بها ، فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً ، وما أظنك تفعل . وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم ، وتقديمهم وتكثر الإحسان إليهم ، وتعظم أمرهم وتوطئ الناس أعقابهم ، وتوليهم فأحسن إليهم ، وقربهم ، واستكثر منهم ، فإنهم مادتك لشدة أن نزلت بك ، وما أظنك تفعل . وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ، ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم وتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم في أهله وولده ، وما أظنك تفعل . وإياك أن تبني مدينة الشرقية ، فإنك لا تتم بناءها ، وما أظنك تفعل . وإياك أن تستعين ببرجل من بنى سليم ، وأظنك ستفعل ، وإياك أن تدخل النساء في مشورتك في أمرك ، وأظنك ستفعل " <sup>(١)</sup> .

من أعظم ما كتب في الوصايا على مر العصور ، وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله ، التي يقول عنها ابن خلدون : أنها من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية :

يقول فيها طاهر :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيته ومراقبته عز وجل ، ومزايلة سخطه ، وأحفظ رعيتك في الليل والنهار ، وألزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعاذك وما أنت صائر إليه ، وموقف

(١) نفسه : ج ٤ / ٥٤١.

عليه، ومسئول عنه ، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل وينجيك يوم القيمة من عقابه وأليم عذابه ، فإن الله سبحانه قد أحسن إليك ، وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وألزمك العدل فيهم ، والقيام بحقه ، وحدوده عليهم ، والذب عنهم ، والدفع عن حريمهم ومنصبهم ، والحقن لدمائهم ، والأمن لسربهم ، وإدخال الراحة عليهم ، ومؤاخذك بما فرض عليك ، وموقفك عليه ، وسائلك عنه ، ونبيك عليه بما قدمت وأخرت ، ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ، ولا يشغلك عنه شاغلٌ وإنه رأس أمرك ، وملك شأنك ، وأول ما يوفقاك الله عليه ، ول يكن أول ما تلزم به نفسك ، وتتسرب إليه فعلك المواظبة على ما فرض الله عز وجل عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك وتتابعها على سنتها ، من إسباغ الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله عزل وجل فيها ، ورثل في قراءتك ، وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ، ولتصرف فيه رأيك ونبئك ، واحضر عليه جماعة ممن معك ، وتحت يدك وادب عليها ؛ فإنها كما قال الله عز وجل " تنهي عن الفحشاء والمنكر " ثم اتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، والمثابر على خلاصه ، واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده ، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخاره الله عز وجل وتقواه ، وبلزوم ما أنزل الله عز وجل في كتابه ، من أمره ونهييه وحلاته وحرامه ، وائتمام ما جاءت به الآثار عن رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ثم قم فيه بالحق الله عز وجل ، ولا تميل عن العدل فيما أحبت أو كرهت ، لقريب من الناس أو بعيد ، وأثر الفقه وأهله ، والدين وحملته ، وكتاب الله عز وجل ، والعاملين به ، فإن أفضل ما يتزين به المرء الفقه في الدين ، والطلب له ، والتحث عليه ، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله عز وجل ، فإنه الدليل على الخير كله ، والقائد إليه ، والأمر به ، والناهي عن المعاصي والموبقات كلها ، ومع توفيق الله عز وجل يزداد المرء معرفة وإجلالاً له ، ودركاً للدرجات العلى في المعاد مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمرك والهيئة لسلطانك والأنسنة بل والثقة بعدلك ، وعليك بالاقتصاد في الأمور كلها ، فليس شيء أبين نفعاً ، ولا أخص أمناً ، ولا أجمع فضلاً منه ، والقصد داعية إلى الرشد ، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق قائد

إلى السعادة وقوام الدين والسنن الهدية بالاقتصاد ، وكذا في دنياك كلها ، ولا تقصير في طلب الآخرة ، والأجر ، والأعمال الصالحة ، والسنن المعروفة ، معالم الرشد ، والإعانة ، والاستكثار من البر ، والسعى له إذا كان يطلب به وجه الله تعالى الرشد ، والإعانة والاستكثار من البر ، والسعى له إذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومراضاته ، ومرافقة أولياء الله في دار كرامته ، أما تعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العز ، ويمحص من الذنوب ، وأنك لن تحوط نفسك من قائل ، ولا تتصلح أمورك بأفضل منه فأته واهتد به تتم أمورك ، وتترد مقدراتك ، وتصلح عامتك وخاصتك وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقم لك رعيتك ، والتمنس الوسيلة إليه في الأمور كلها ، تستدم به النعمة عليك ، ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره ، فإن إيقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم آثم إثم ، فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك ، وأطرد عنك سوء الظن بهم ، وارفعه فيهم يعنك ذلك على استطاعتكم ورياضتهم ، ولا يجدن عدو الشيطان في أمرك مغمراً ، فإنه يكتفي بالقليل وهناك ، ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص لذادة عيشك ، وأعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة ، وتكتفي به ما أجبت كفايته من أمورك ، وتدعوا به الناس إلى محبتك ، والاستقامة في الأمور كلها ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك ، والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك ، وال مباشرة لأمور الأولياء ، وحياطة الرعية، والنظر في حواجزهم ، وحمل مؤوناتهم أيسر عندك مما سوى ذلك ، فإنه أقوم للدين ، وأحياناً للسنة وأخلص نيتك في جميع هذا ، وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسئول عما صنع ، ومجزي بما أحسن ، ومؤاخذ بما أساء ، فإن الله عز وجل جعل الدين حرزًا وعزًا ، ورفع من اتبעה ، وعززه الله تعالى في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم ، وما استحقوه ، ولا تعطل ذلك ، ولا تتهاون به ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة فإن في تفريطيك في ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك ، واعتزم على أمرك في ذل بالسنن المعروفة ، وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك ، وتقدم لك مروعتك ، وإذا عاهدت عهداً فأوف به ، وإذا وعدت خيراً فأنجزه واقبل الحسنة وادفع بها ، وأغضض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك واشدد لسانك عن قول

الكذب والزور ، وأبغض أهل النميمة ، فإن أول فساد أمرك في عاجلها تقرب  
الكذوب ، والجراءة على الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنمية  
خاتمتها ، لأن النمية لا يسلم صاحبها ، وقاتلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له  
أمر ، وأحبب أهل الصلاح والصدق ، أعز الأشراف بالحق ، وآس الضعفاء ،  
وصل الرحيم ، وابتغ بذلك وجه الله تعالى وإعزاز أمره ، التمس فيه ثوابه والدار  
الآخرة ، واجتنب سوء الأهواء والجور ، وإصرف عنهم رأيك ، وأظهر براءتك  
من ذلك لرعيتك ، وأنعم بالعدل في سياستهم وقم بالحق فيها ، وبالمعرفة التي  
تنتهي بك إلى سبيل الهدى ، وأملك نفسك عند الغضب ، وأثر الحلم والوقار ،  
وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله ، وإياك أن تقول أنا مسلط أفعل  
ما أشاء ، فإن ذلك سريع إلى نقص الرأي وقلة اليقين بالله عز وجل ، وأخلص الله  
وحده النية فيه واليقين به ، وأعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتنيه من يشاء  
وينزعه مما يشاء ، ولن تجد تغير النعمة وحلول النقم على أحد أسرع منه إلى  
حملة النعمة من أصحاب السلطان والمبوسط لهم في الدولة ، إذا كفروا نعم الله  
وإحسانه ، واستطلاوا بما أعطاهم الله عز وجل من فضله ، ودع عنك شره نفسك ،  
ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكتنز البر والتقوى واستصلاح الرعية  
وعماره بلادهم والتفقد لأمورهم والحفظ لمائهم والأغاثة لهم وفهم ، وأعلم أن  
الأموال إذا اكتنلت وادخرت في الخزائن لا تتم ، وإذا كانت في صلاح الرعية  
وإعطاء حقوقهم وكف الأذية عنهم نمت وزكت وصلحت بها العامة ، وترتب بها  
الولاية ، وطاب بها الزمان واعتقد بها العز والمنفعة فليكن كنز خزائنك تفريق  
الأموال في عمارة الإسلام وأهله ، ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك  
حقوقهم ، وأوف من ذك حصصهم ، وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم فإنك إذا  
 فعلت ذلك قرت النعمة عليك واستوجبت المزيد من الله تعالى ، وكنت بذلك على  
جيابية خراجك وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر ، وكان الجميع لما شملهم من  
عدلك وإحسانك أساس لطاعتكم ، وأطيب أنفساً بكل ما أردت ، وأجهد نفسك فيما

حددت لك في هذا الباب ، ولبعضهم حلقك فيه ، وإنما يبقى من المال ما أنفق في سبيل الله ، واعرف للشاكرين حقهم وأثبهم عليه<sup>(١)</sup> .

إذاً فإن الوصايا كانت باباً من أبواب القول ، أجاد فيها حكام بنى العباس ، فآخر جوا لنا قطعاً فنية رائعة مملوءة بلاغة وبياناً .

### جـ- الرسائل :

تتقسم الرسائل إلى قسمين : ديوانية وإخوانية ، أما الرسائل الديوانية فهي فن مستحدث في الأدب العربي ، يرجع الفضل كله فيه إلى حكام العباسين وأنصارهم من الفرس ، فقد ظهر في الديوان العباسي بتأثير من الحضارة الفارسية ، والرسائل الديوانية أنواع عده ، منها الرسائل ، التي كان يرسلها الخليفة إلى المخالفين من قادة الجنود ومنها رسائل الأمان التي كان يرسلها لمن أراد تأمينهم من المخالفين ، ومنها رسائل الإصلاح ، ورسائل المبايعات التي كان يرسلها خلفاً بني العباس بالبيعة لأولادهم من بعدهم ، والعهود التي كان يكتبها الخلفاء لمن ينوب في ولایة الأقاليم وقد امتلأ ديوان الكتابة العباسية بالعظام من الكتاب المشهورين ، الذين تركوا آثاراً بيانية رائعة ، وقد كان من أهم أسباب ازدهار هذا النوع خاصة أنه الطريق الموصل إلى كرسي الوزارة جعل ذلك الكاتب يهتم اهتماماً زائداً ، بتنقيف نفسه بكل أنواع الثقافة " كان لابد لهم يجانب هذه القدرة البلاغية من أن يتقدوا طائفنة من المعارف ، وفي مقدمتها علوم اللسان العربي وعلم الفقه ، وكان العلم الأخير ضرورياً لهم ، لأنهم كانوا يكتبون في شؤون الخارج ، وفيما يجب على أهل الذمة أن يؤدوه من أموال ، وكذلك كان علم الحساب من الضرورة لهم بمكان ، وكانوا يلمون بكل علم ، مثل الكيمياء والطب والنجوم ، وأكبوا على الفلسفة والمنطق ليدعموا عقولهم<sup>(٢)</sup> .

قد كان كل هذا الاهتمام أثراً فارسياً خالصاً ، انتقل إلى حكومة العباسين ، فاهتموا بالكتاب ، واختاروا وزراءهم من أحذقهم كتابة ، فبرزت شخصيات أدبية

(١) عبد الرحمن بن محمد بن خلون الحضرمي ، مقدمة ابن خلون ، ط ٥ ، بيروت ، دار القلم ، سنة ١٩٨٤ م ص ٢٠٦ .

(٢) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعرف ، سنة ١٩٦٦ م ، ص ٤٦٦ .

راقية من بداية الدولة ، وأول من يصادفنا من الكتاب في عهود العباسين ( عمارَة بن حمْزَة ) ، كاتب السفاح والمنصور ، وكان أبو العباس قلد ( عمارَة بن حمْزَة )<sup>(١)</sup> من ولد أبي لبابة مولي عبد الله بن عباس ، ضياع مروان وآل مروان<sup>(٢)</sup> .

ومن أهم رسائله الرسالة الماهانية التي كتبت في ( عَلَيْ بن مَاهَان ) والتي قال فيها : " قد علم أمير المؤمنين أنه لم يبلغ غاية التأديب ، فإنه لا يبلغ ذلك دون انقطاع الأمور التي يحتاج فيها إلى الأدب ، وليس لها نهاية دون الفناء ، ولم يصبح يتبعه أحد من الناس بعد نفسه أحق منه يتبعه ، لأنه الثقة له ولعدوه التاجر الأعظم ، وإن الناس بأوساط الأرض وأقطارها يصيرون بأسمائهم إلى خبره : يودون أن تزل قدم بعد ثبوتها وتفسد حال بعد صلاحها ، وتتكل بصيرة بعد نفادها ، متذلين ذلك ذريعة إلى الإخلال بحق أمير المؤمنين ولم يكن بين طاعته ومعصية إلا ساعة من نهار "<sup>(٣)</sup> .

من كتاب الرسائل للمنصور ( غَسَّان بن عبد الحميد )<sup>(٤)</sup> وهو من البلغاء المعدودين من كتاب المنصور ومن رسائله الرسالة التي يعزي بها المهدى ويقول فيها :

" أما بعد ، فإن الله تبارك وتعالى جعل المقadir علمًا ثابتًا عنده ، وكتاباً سابقاً منه ، فخرجت عليه ومضت به الأمور في قدرته ، والعباد في قبضته ، وليس عبد من عبده إلا وقد كان عمره في الدنيا موظفاً قبل خلقه ، وكان ما يصيبه منها مكتوباً عليه قبل أن ينزل به ، ثم جعل أهل عبادته أهل حظوظ

(١) \* كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، القاهرة ، دار المعارف ، نقه إلى العربية ، عبد الحليم النجار ، سنة ١٩٦١ ، ١١٧/٢.

(٢) الجشياري ، أبو عبد الله محمد بن عبادوس ، الوزراء ، والكتاب ، ط ١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، حققه ووضع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي ، سنة ١٩٣٨ م ، ص ٩٠.

(٣) أحمد زكي صفت ، جمهرة السائل العرب ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ١٢٨/٣.

(٤) الجشياري ، أبو عبد الله محمد بن عبادوس ، الوزراء والكتاب ، ط ١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، حققه ووضع فهارسه ، مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري ، وعبد الحميد الشلبي سنة ١٩٣٨ م ، ص ١١٠.

متكاملة في السعادة ، وأهل فضائل متناظرة في الكرامة ، فاصطفى منهم أنبياءه ، وانتخب منهم خلفاءه ، وألزمهم على ذلك الموت الذي لابد منه ، وجعله الحياة لهم فيما عنده ، فكانت وفاة من توفى منهم له سعادة فيما يصيرهم إليه ، وحياة من أحياناً منهم له كرامة فيما يصطنعهم له<sup>(١)</sup> .

ومن كتاب الرسائل للمهدي (أبو عبيدة الله معاوية بن يسار) " كان كاتب المهدي ونائبه قبل الخلافة ضمه المنصور إليه " <sup>(٢)</sup> ومن مؤثر كلامه : " الحمد لله الذي شرع لإظهار حقه ، وإنقاد سابق قضائه فيمن ذرأه وبرأ من عباده . بإدخال من أراد يدخل في رحمته ، وإنجاز ما حق له من العبادة على خلقه ، بابتداء خلقه ، ومظاهرته الآلاء عليه ، وإحسانه البلاء عنده ، وإبلاغه في الحج إلى عامته ، ديناً رضيه لنفسه وملائكته الذين أسكن سماواته ورسله فأتمه على وجه لم يرض إلا به ، ولم يقبل إلا إياه ، ثم كان ما أعز به نفسه وأظهر به نوره ، وأراد أن يبلوا به عباده ، تحقيقاً لما سبق به علمه ، وإنفاداً لما جرت به مقداديره أن بعث لما شرع من دينه ، واصطفى لتبليغ رسالته وإظهار حقه ، واستشلاء من أراد سعادته من خلقه بالرحمة التي أطلعت عليهم وعمتهم ، ليعبد ملخصاً له محموداً بها استحمد به إلى خلقه " <sup>(٣)</sup> .

ومن كتاب المهدي أيضاً (إسماعيل بن صبيح) <sup>(٤)</sup> ومن كتاب الرشيد (يحيى البرمكي) ، ومن رسائله إلى الرشيد " يا أمير المؤمنين إن كان الذنب

(١) أحمد زكي صفت ، جمهرة ، رسائل العرب ، مصر مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، وأولاده ، ١٥٠/٣ والجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص ١٥٦.

(٢) محمد بن علي بن طباطبا العلوى المعروف بابن الطقطقى ، الفخرى في الأدب السلطانية والدول الإسلامية ، بيروت ، دار صادر ، ص ١٨٢ ، والجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص ١٥٦.

(٣) أحمد زكي صفت : جمهرة رسائل العرب ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، وأولاده ، ١٦٤/٣.

(٤) الجهشاري ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس ، الوزراء والكتاب ، ط ١ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، حقه ووضع فهارس ، مصطفى السقا وإبراهيم الإباري وعبد الحفيظ الشلبي ، سنة ١٩٣٨ م ، ص ١٥٠.

خاصاً فلا تعمن بالعقوبة ، فإن الله عز وجل يقول " ولا تزر وازرة وزر أخرى " <sup>(١)</sup>.

ومن أهم الكتاب في العصر كله ( أحمد بن يوسف ) ، وكتابه الذي ارتفع به حين قتل الأمين ، يقول فيه :

" أما بعد فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة فقد فرق حكم الكتاب بينه وبينه في الولاية والحرمة ، لفارقته عصمة الدين ، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين ، يقول الله عز وجل فيما قص علينا من نبأ نوح ، يا نوح ، " إنَّه لِيُسَّ مِنْ أَهْلَكَ إِنَّهُ عَمَلَ غَيْرُ صَالِحٍ " ولا طاعة لأحد في معصية الله ، ولا قطيعة إذا ما كانت القطيعة في ذات الله ، وكتابي هذا إلى أمير المؤمنين وقد قتل الله المخلوع ، وأسلمه بغدره ونكثه ، وأحمد لأمير المؤمنين أمره ، وأنجز له ما كان ينتظره من سابق وعده والحمد لله الراجح إلى أمير المؤمنين حقه ، الكائد له فيمن خان عهده ، ونقص عقده ، حتى رد به الألفة بعد فرقتها ، وجمع به الأمة بعد شتاتها ، فأحيى به أعلام الدين بعد دثار سرائرها <sup>(٢)</sup>.

و ( الفضل بن سهل ) كاتب المأمون الذي كتب حينما وجاهه إلى رجل بجائزة فقال : " قد وجهت إليك بجائزة ، لا أعظمها تكثراً ، ولا أفللها تجبراً ولا أقطع لك بعدها رجاء ، ولا أستثنيك عليها ثناء " <sup>(٣)</sup>.

و ( الحسن بن سهل ) أخو الفضل ، من أشهر كتاب العصر الذي كتب إلى أخيه ذي الرياستين في تهنئة بموالود فقال :

" إنه ليس من نعم الله وفوائد قسمه ، وإن خص موقعها ، ووجب شكرها نعمة تعدل النعمة في الولد ، لنمائها في العدد ، وزيادتها في قوة العضد ، وما يتجل به من عظيم بهجتها ، ويرجى من باقي ذكرها في الخلوف والأعقاب ، ولا حق برకتها في الدعاء والاستغفار ، وإن الله قد أفادك وأنا لك غلاماً ثرياً سميتها

(١) أحمد زكي صفت ، جمهرة رسائل العرب ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، وأولاده ، ٢٢٠/٣.

(٢) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العباسي ، تاريخ اليعقوبي ، بيروت ، دار صادر ، بدون محقق ، ٤٤٢/٢.

(٣) أحمد زكي صفت ، جمهرة رسائل العرب ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ٣/٤٠٠.

فلاناً ، فكان ميلاده عند فتح الله على أمير المؤمنين ، فرجوت أن تكون موافاته بالنصر الذي أرسلنا الله به على عدو الدين وال المسلمين <sup>(١)</sup>.

ومن أشهر الكتاب ( طاهر بن الحسين ) ، و ( عمرو بن مسعود ) كاتب المأمون ، الذي كتب إليه مرة في رجل منبني ضبة يستشفع له بالزيادة في منزلته ، وجعل كتابه تعرضاً يقول :

" أما بعد ، فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين - لتطولك عليه - في إلقاء بنظرائه من الخاصة فيما يرتفقون به ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته " <sup>(٢)</sup> .

ومن البارعين أيضاً ( عبد الله بن طاهر بن الحسين ) ، الذي كتب مرة إلى ( نصر بن شبيث ) يقول فيها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن الأذار بالحق حجة الله المقرن بها النصر ، والاحتجاج بالعدل دعوة الله الموصول بها العز ، ولا يزال المعذري بالحق المجتمع بالعدل في استفتاح أبواب التأييد ، واستدعاء أسباب التمكين ، حتى يفتح الله وهو خير الفاتحين ، ويمكن وهو خير الممكين ولست تدعو أن تكون فيما لهجت به أحد ثلاثة : طالب دين ، أو ملتزم دنياً ، أو متھوراً يطلب الغلبة ظلماً ، فإن كنت للدين تسعى بما تصنع فأوضح ذلك لأمير المؤمنين يغتنم قوله إن كان حقاً ، فلعمري ما همته الكبرى ولا غايتها القصوى إلا الميل مع الحق حيث مال ، والزوال مع العدل حيث زال ، وإن كنت للدنيا تقصد فأعلم أمير المؤمنين غاياتك فيها ، والأمر الذي تستحقها به ، فإن استحقها وأمكنه ذلك فعله بك فلعمري ما يستحيز منع خلق ما يستحقه وإن عظم ، وإن كنت متھوراً فسيكفي الله أمير المؤمنين مؤنتك ، ويعجل ذلك كما عجل كفايته مؤن قوم سلكوا مثل طريقك كانوا أقوى يداً ، وأكثف حبذاً وأكثر جمعاً وعدداً ونصراً منك فيما أصارهم إليه من مصارع الخاسرين ، وأنزل بهم من جوائح الظالمين ، وأمير المؤمنين يختتم كتابه بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ( صلى الله

---

(١) نفسه : ٣/٤٠٤.

(٢) نفسه : ٣/٥١١.

عليه وسلم ) ، ضمانه لك في دينه وذمته الصفح عن سوالك جرائمك ، ومتقدمات جرائرك ، وإنزالك ما تستأهل من منازل العز والرفة إن أتيت وراجعت إن شاء الله والسلام " (١) .

ومحمد بن عبد الملك الزيات وغيرهم.

وهكذا ، امتلاً ديوان الكتاب في حومة بني العباس بالكتاب الأفاذ ، الذين أثروا في النثر الفني ، وساعدوا في تطوره ورقمه ووصوله إلى مستوى رفيع أفادوا فيه العلوم العربية الأجنبية على حد سواء .

أما الرسائل الإخوانية ، وتقصد بها الرسائل التي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم ، فقد أجاد كتاب الرسائل الديوانية الكتابية بشكل عام ، فكتبوا أيضاً رسائل إخوانية ، فقد كتب عمرو بن مسدة إلى بعض أصحابه فقال : " أما بعد ، فموصل كتابي إليك سالم ، والسلام " . أراد قول الشاعر :

**يُدِيرُونَنِي عَنْ سَالِمٍ وَأَدِيرُهُمْ . . . وَجِلْدَةَ بَيْنِ الْعَيْنِ وَالأنْفِ سَالِمٌ**

أي : يحل مني هذا محل (٢) .

وقد جمع أحمد زكي صفت في كتابه جمهرة رسائل العرب كثيراً من الرسائل البليغة ، ديوانية وإخوانية لكتاب هذا العصر .

#### د - التوقيعات :

التوقيعات " عبارة موجزة بلغة ، تعود ملوك الفرس ووزراؤهم أن يوقعوا بها على ما يقدم إليهم من تظلمات الأفراد في الرغبة وشكاواعهم ، وحاکاهم خلفاء بني العباس ووزراؤهم في هذا الصنبع " (٣) ، وقد برع حكام بني العباس في هذا النوع من الأدب النثري الحديث على النثر العربي ، من ذلك رد طاهر بن الحسين على كتاب من بعض عماله يقول فيه :

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ط ١ ، بيروت ، طبعة دار الكتب العلمية ، سنة ١٤٠٧ هـ ج ٥ / ص ١٦٦ .

(٢) أحمد زكي صفت ، جمهرة رسائل العرب ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ٣/٥١٤ .

(٣) شوقي ضيف ، العصر العباسي ، ط ١٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٦ م ، ص ٤٨٩ .

" وقد وجهت إلى الأمير ثوب دياج أحمر أحمر " فكتب طاهر إليه :  
" قد قرأت كتابك ، فعلمت أنك أحمق أحمق أحمق ، فأقدم فأقدم فأقدم والسلام "(١)  
وردد المأمون على عنبرة بن إسحق بهذين البيتين :

أسمعت غير كهام السمع والبصر .. لا يقطع السيف إلا في يد الحذر  
سيصبح القوم من سيفي وضاربه .. مثل الهشيم ذرته الريح بالمطر (٢)  
وتوقعاتهم البليغة مشهورة في كتب الأدب ومصادر التاريخ .

#### هـ- المناظرات :

باب مهم من أبواب النثر الفني ، أزدهر في عهد الخليفة المهدي ، حينما  
شحد الكتاب لسناتهم للرد على خصوم الدين ينافحون عنه ويحملون حوزته وقد  
تعددت موضوعات المناظرات ، من مناظرات في النحو ، إلى مناظرات في  
الفلسفة ، إلى مناظرات في الفقه ، إلى مناظرات في العقيدة ، وقد اشتهرت هذه  
المناظرات في قصور البرامكة وفي قصر المأمون على وجه الخصوص ، حتى  
جعل المتكلمون والمتلذذون وفي مقدمتهم المعتزلة يبحثون في بلاغة القول ،  
ويكترون من ملاحظاتهم في هذا الاتجاه ، وقد اشتهر من المناظرين أبو الهذيل  
العلاف ، يقول الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد على لسان أبي الهذيل : " كنت  
اختلاف إلى عثمان الطويل صاحب واصل بن عطاء ، فبلغني أن رجلاً يهودياً قدم  
البصرة ، وقد قطع عامة متكلميهم ، فقالت لعمى : ياعم امض بي إلى هذا اليهودي  
أكلمه ، فقال لي : يابني ، هذا اليهودي قد غلب جماعة متكلمي أهل البصرة ،  
من أخذك أن تكلم من لا طاقة لك بكلامه ، فقالت له : لا بد من أن تمضي بي إليه ،  
وما عليك مني غلبني أو غلبته ، فأخذ بيدي ودخلنا على اليهودي ، فوجده يقرر  
الناس الذين يكلمونه بنبوة موسى ثم يجدهم بنوة نبينا ، فيقول : نحن على ما  
اتفقنا عليه من صحة نبوة موسى إلى أن نتفق على غيره فنقربه ، قال فدخلت عليه  
فقالت له : أسائلك أو تسألني ، فقال لي : يابني أو ما ترى ما أفعله بمشايحك ،

(١) أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، وأولاده ، ٤٩٧/٣.

(٢) نفسه : ٤٨١/٣.

فقلت له : دع عنك هذا واختر إما أن تسألني أو أسألك ، قال : بل أسألك ، خبرني أليس موسىنبي من أنبياء الله قد صحت نبوته ، وثبت دليله تقر بهذا أو تجده فخالف أصحابك ، فقلت له : إن الذي سألتني عنه من أمر موسى عندي على أمرين أحدهما أني أقر بنبوة موسى الذي أخبر بصحة نبوة نبينا ، وأمر باتباعه ، وبشر به وبنبوته ، فإن كان هذا تسألني فأنا مقرٌّ بنبوته ، وإن كان موسى الذي تسألني عنه لا يقر بنبوة نبينا محمد ، ولم يأمر باتباعه ولا بشر به فلست أعرفه ، ولا أقر بنبوته ، بل هو عندي شيطان يحرق ، فتحير لما ورد عليه ما قلته له وقال لي : فما تقول في التوراة ، قلت : أمر التوراة أيضاً على وجهين : إن كانت التوراة التي أنزلت على موسى النبي الذي أقر بنبوة محمد فهي التوراة الحق ، وإن كانت أنزلت على الذي تدعيه فهي باطل غير حقيقة وإنها غير مصدق بها " <sup>(١)</sup> .

ومن أشهرهم النظام ، إذ ذكر له ابن النديم مناظرة مع الحسن بن النجار ، بل إن بعض المؤرخين يقول أنها كانت السبب في موته ونصها كالتالي :

" أجمعت مع إبراهيم النظام عند بعض إخوانه ، فسلم الحسين ، فقال له إبراهيم : تجلس حتى أكلمك فجلس ، فقال له إبراهيم : يجوز أن تفعل خلق الله ، فقال الحسين : يجوز أن أفعل الذي هو خلق الله ، قال إبراهيم فالذي هو خلق الله خلق الله أو ليس بخلق له ، قال الحسين : هو خلق الله ، قال إبراهيم : فقد فعلت خلق الله أو ليس بخلق له ، قال الحسين فهو خلق الله ، فرفسه إبراهيم وقال : قم أخرى الله من ينسبك إلى شيء من العلم والفهم ، وانصرف محموماً ، وكان ذلك سبب علته التي مات فيها " <sup>(١)</sup> .

(١) الخطيب البغدادي ، أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد ، تاريخ بغداد ، بيروت ، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع ، ٣٦٦/٣ .

(٢) ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن أبي يعقوب الفهرست ، بيروت دار المعرفة ، سنة ١٣٩٨ - ١٩٧٨ ، ص ٣٥٤ .

وهكذا ازدهر النثر الفني بأنواعه المختلفة ، من خطب ، ورسائل ، ووصايا ،  
وتوصيات ، ومناظرات وما كان ذلك ليكون إلا بفضل هذه الفئة الراقية من حكام  
بني العباس وزرائهم ، وقادتهم وقضائهم ، وباقى حاشيتهم .

## خاتمة البحث

وبعد هذا التجوال عبر أيام العصر العباسي (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) ومروراً بجوانب جده ولهوه ، حضوراً ، من خلال مصادر العصر الأدبية والتاريخية ، لأنديته ومناظراته ومجالسه العلمية ، ومعايشة لحكامه - السفاح والمنصور والمهدى وموسى الهادى والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواشق من الخلفاء ورموزه البارزة من الوزراء ، كالبرامكة ، وابن الزيات ، وغيرهم من القواد والقضاة والولاة وكل حكام بنى العباس ، وما كان له بهم صلة من الأدباء والشعراء والكتاب ، أقول : بعد كل هذا فإن الرؤية قد اتضحت لي ، وأصبحت من الجلاء بمكان ، ويمكن تلخيص ما توصل إليه البحث من نتائج وما كان جلياً بالنسبة لي في النقاط التالية :

١- إن هذا العصر كان مملوءاً بالأحداث السياسية المهمة والخطيرة ، التي تركت أثراً كبيراً في تاريخ العرب والمسلمين على طوله وتدرجها بين القوة والضعف ، وقد كان نجاح وصولها إلى كرسي الحكم ، ثم تم لهم ما أرادوا ، فأحاطوها بما يضمن لها القوة والازدهار ، ولا يمكن لنا إلا أن نتعرف لهم بغير قليل من القوة ، أرهبت أعداءهم في الداخل والخارج على حد سواء ، بالرغم من الثورات التي هزت كرسي العباسين وكادت تعصف به ، كفتة الأمين والمأمون داخلياً ، وثورة بابك الخرمي خارجياً إلا أن الدولة لم تقصد أسباب قوتها وظلت محظوظة بقوة فقد العرب والمسلمون كثيراً منها بعد ذلك .

٢- أن المجتمع في هذا العصر قد ضم بين دفتيه طرفين النقيض في الجد والهزل ، والغنى والفقر ، والنعمنة والبؤس ، مما أورث المجتمع كثيراً من المتافقضات في الخير والشر على حد سواء ، فكانت ظاهرة المجنون الزائد ، وكانت حركة الزهد ، وكانت ظاهرة الشعوبية وظاهرة الزندقة ، كما كانت علوم الكلام وأئمة العلماء المسلمين في الفقه والحديث والسير ، واستطيع أن أشير إلى أن هذا العصر كان عصر المتافقضات في كل شيء .

٣- أن هذا العصر - خاصة - شهد نهضة علمية تظاهر واضحة المعالم عبر تاريخ العرب الطويل بروزاً لافتاً للنظر ، مثيراً لكثير من التساؤلات للوهلة الأولى وللناظر من بعيد إلى أسباب هذه النهضة الكبيرة ، أما لمن يعيش العصر ١٣٢ - ٢٣٢ هـ فسيجد أن هذا التطور العلمي وهذه النهضة الثقافية كانت نتيجة طبيعية لأسباب كثيرة منها : أولها : أن حكام هذا العصر كانوا حريصين على العلم ، مشغوفين به ، مدركون لقيمة وأهميته ، لذا شجعوا العلماء ، ووفروا لهم سبل النهوض بالعلم ونظروا إليهم نظرة احترام وتقدير ، وثانيها : أن بيت مال المسلمين كان عامراً بالأموال ، مملوءاً بالخيرات ، فلم يصادف الحكام حاجة أو عوزاً يجعلهم يُقدمون على العلم غيره من الأمور التي تحتاج إلى المال ، خاصة وأنهم كانوا يحتكرون الأسلوب الذي ينفق به المال العام ، والمصارف التي ينفق فيها ، ثالثها : أن عنصراً بشرياً ذا حضارة ، وثقافة قد حمل عباء دعوةبني العباس حتى أوصلهم إلى الحكم ، حتى إذا وصلوا نقل إليهم علمه وحضارته ، لذا كان ضرورياً وطبعياً أن نرى هذا الازدهار العلمي والثقافي الذي عم العصر كله .

٤- أن حكام هذا العصر (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) كانوا يحبون العلم ، ويحرصون على مدارسته وحفظه ومحاسنته أهله ، والاهتمام بهم ، وكفالتهم ورعايتهم بصور مختلفة ، وقد تركت هذه الرعاية وهذه المدارسة وهذا الحرص على العلم والتعلم أثره في نفوس حكام العصر أنفسهم ، فأصبحوا على قدر عال من الثقافة والعلم خلفاء ووزراء وقضاة وولاة وغيرهم .

٥- أن هذه الثقافة التي تتفق بها الحكام متعددة ، بين عربية وأجنبية ، فتركـت الثقافة العربية أثـرها على جوانـب من الأدب ، وتركـت الثقـافة الأـجنبـية أثـرها على جوانـب أخـرى .

٦- أن الأدب بشقيه ، الشعر والنثر قد تأثر بثقافة الحكم هذه ، أما الشعر فقد ازدهرت أغراض شعرية قديمة ، ونمّت وتطورت ، وولدت أغراض شعرية جديدة بتوجيه من بعض الحكم بمقدمة مباشرة ، وأغراض جديدة أخرى كان للحكم أثر في وجودها بالمشاركة مع آخرين ، أما النثر فقد كان لهم دور مهم في ازدهار بعض أنواعه كالرسائل ، ودورً أيضاً في ابتعاد بعض الأغراض عن ازدهارها أيام بنى أمية كالخطابة مثلاً ، إذاً فإن حكام بنى العباس قد تركوا في الأدب بصمة واضحة تظهر لكل من يطالع عصرهم أو يتتبع الحركة الثقافية فيه .

## **المصادر والمراجع**

- \* القرآن الكريم ، مصحف الجماهيرية ، برواية الإمام قالون .
- ١- ابن أبي أصيبيعة ، موقف الدين أبو العباس أحمد بن القاسم ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، د. ت .
- ٢- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، تحقيق : محمد بن يوسف الدقاد ، بيروت ، د. ت .
- ٣- ابن الجوزي ، المنظم في تاريخ الملوك والأمم ، طبعة دار الفكر العربي ، د. ت .
- ٤- ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج ، صفة الصفوة ، ضبطها وكتب هوامشها ، إبراهيم رمضان وسيعد اللحام ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م ، ط ١ . تحقيق : محمود فاخوري ، محمد رواس قلعة جي ، بيروت ، نسخة طبعة دار المعرفة ، ١٩٧٩ م ، ط ٢ .
- ٥- ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن أبي يعقوب ، الفهرست ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م . نسخة وطبعة مصر .
- ٦- ابن المرتضى ، طبقات المعتزلة ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦١ م .
- ٧- ابن المعتز ، طبقات الشعراء . تحقيق : عبدالستار أحمد فراج ، مصر ، دار المعارف ، د. ت .
- ٨- ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف ، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، مصر ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، د. ت .
- ٩- ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ، وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان ، تحقيق : محي الدين عبدالحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ م ، ط ١ .
- ١٠- ابن رشيق ، أبو الحسن بن علي ، العمدة في صناعة الشعر ونقده ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٧٤ م .

- ١١- ابن طيفور ، أبو الفضل أحمد بن أبي ظاهر ، كتاب بغداد ، تحقيق : محمد زايد الكوثري ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، نشر ، عزت العطار الحسيني ، د.ت .
- ١٢- ابن عبد ربه ، أبو عمر جمال الدين يوسف بن عمر ، العقد الفريد ، ضبطه وعنون موضوعاته ، ورتب فهارسه ، أحمد أمين ، وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.
- ١٣- ابن وادران ، تاريخ العباسيين ، تحقيق : المنجي الكعبي ، بيروت ، طبعة دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٨ - ٤٠٨ هـ ، ط١ .
- ١٤- أبو إسحاق الحصري القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب ، تحقيق : زكي مبارك ، مصر ، المطبعة الرحمانية ، د.ت .
- ١٥- أبو العناية،ديوان، تحقيق وشرح: كرم البستاني ، بيروت ، دار صادر، د.ت .
- ١٦- أبو بكر محمد بن يحيى بن عبدالله الصولي ، الأوراق ، عنى بن شره ، ج. هبورث ، د.ن ، بيروت ، طبعة دار المسيرة ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨٢ م ، ط٢.
- ١٧- أبو تمام ، ديوان ، تحقيق : محمد عبده عزام ، القاهرة ، دار المعارف ، د.ت ، ط٤ .
- ١٨- أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة دار المعارف ، ١٩٦٦ م ، ط٣ . وبيروت ، نسخة طبعة دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧ ، ط١ .
- ١٩- أبو دلامة ، ديوان ، شرح وتحقيق : إميل بديع يعقوب ، بيروت ، ١٩٩٤ م ، ط١ .
- ٢٠- أبو سعيد الحسين بن الحسين السكري ، شرح أشعار الهذليين ، تحقيق : عبدالستار فراج ، راجعه ، محمود محمد ساكن ، د.ت .

- ٢١ - أبو عثمان عمرون بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين ، بيروت ، طبعة دار الكتب العلمية ، ونسخة السنديobi ١٩٢٧ م . وتحقيق وشرح : عبدالسلام محمد هارون ، القاهرة ، مطبعة الفتوح الأدبية ، وقف على طبعه محب الدين الخطيب ، ١٣٣٢ هـ .
- ٢٢ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، الحيوان ، القاهرة ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ١٩٣٨ م .
- ٢٣ - أبو علي القالي ، الأمالي ، تحقيق : محمد عبدالجود الأصمسي ، طبعة دار الكتب المصرية ، د. ت .
- ٢٤ - أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ، الأغاني ، طبعة كاملة محررة معها فهراس بإشراف وتحقيق : إبراهيم الإبياري ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م . ونسخة طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٥ م .
- ٢٥ - أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، الشعر والشعراء ، قدم له الشيخ ، حسن تميم ، وراجعه وأعد فهارسه الشيخ ، محمد عبد المنعم العريان ، بيروت ، دار إحياء العلوم ، د.ت .
- ٢٦ - أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، عيون الأخبار ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٨ م ، ط ١ ، ج ٢ .
- ٢٧ - أبو نعيم الأصبهاني ، حلية الأولياء ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٥ هـ .
- ٢٨ - أبو هلال العسكري ، الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه ، تحقيق : عبدالمجيد دياب ، د. ت .
- ٢٩ - أبو نواس ، ديوان ، تحقيق : علي فاعور ، بيروت ، طبعة دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م ، ط ١ .

- ٣٠ - أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ، ١٩٩٨ م ، طبعة ٢٠٠٢ م . ونسخة الجزء الثالث مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨ م ، ط ٩ .
- ٣١ - أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العباسى ، تاريخ اليعقوبى ، بيروت ، دار صادر ، د. ت .
- ٣٢ - أحمد زكي صفت ، جمهرة خطب العرب ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٩٣٣ م .
- ٣٣ - أحمد زكي صفت ، جمهرة رسائل العرب ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، د.ت .
- ٣٤ - أحمد فريد الرفاعي ، عصر المأمون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ م ، ط ٢ .
- ٣٥ - الأشيهي ، شهاب الدين محمد بن أحمد ، المستطرف في كل فن مستطرف ، بيروت ، دار الجيل ، د.ت .
- ٣٦ - الأعشى ، ديوان ، شرح : يوسف شكري فرحت ، بيروت ، دار الجيل ، ١٤١٣ هـ .
- ٣٧ - الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، خرج أحاديثه ، محمد بيومي ، عبدالله المنشاوي ، محمد رضوان مهنا ، طبعة مكتبة الإيمان ، د.ت .
- ٣٨ - الإمام الذهبي ، المعين في طبقات المحدثين ، تحقيق : همام عبدالرحيم سعيد ، عمان ، ١٤٠٤ هـ ، ط .
- ٣٩ - الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، صحيح الإمام البخاري ، راجعها ورقم أحاديثها ووضع فهارسها محمد عبدالقادر أحمد عطا ، دار التقوى للتراث ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م ، ط ١ .
- ٤٠ - الإمام مسلم ، مختصر صحيح مسلم ، تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني ، عمان طبعة المكتبة الإسلامية ، ومكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤١١ هـ .

- ٤١ - بشر بن برد ، ديوان ، شرح : السيد محمد الطاهر بن عاشور ، علق عليه ، محمد رفعت فتح الله ، محمد شوقي أمين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٤ م .
- ٤٢ - البيهقي ، المحسن والمساوئ ، مصر ، مكتبة النهضة ، د . ت .
- ٤٣ - توفيق الفيل ، القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسى ، الكويت ، مطبوعات جامعة الكويت ، نشر مكتبة ذات السلسل ، د . ت .
- ٤٤ - جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق ، جمال محمود مصطفى ، القاهرة ، دار الفجر للتراث ، ١٩٩٩ م ، ١٤٢٠ هـ ، ط ١ .
- ٤٥ - جلال الدين السيوطي ، طبقات الحفاظ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣ هـ ، ط ١ .
- ٤٦ - جميل بثينة ، ديوان ، تقديم : بطرس البستاني ، بيروت ، دار صادر ، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .
- ٤٧ - جميلة نخلة المدور ، حضارة الإسلام في دار السلام ، بولاق ، المطبعة الأميرية ، ١٩٣٧ م .
- ٤٨ - الجهشياري ، أبو عبدالله محمد بن عدوس ، الوزراء والكتاب ، حققه ووضع فهارسه ، مصطفى السقا وإبراهيم الإباري ، وعبدالحفيظ شلبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٩٣٨ م ، ط ١ .
- ٤٩ - جورجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، راجعها وعلق عليها ، شوقي ضيف ، القاهرة ، دار الهلال ، د . ت .
- ٥٠ - جورجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، راجعها وعلق عليها ، حسين مؤنس ، القاهرة ، دار الهلال ، د . ت .
- ٥١ - الخطيب البغدادي ، أبو Bakr Ahmad bin Ali bin Thabit bin Ahmad ، تاريخ بغداد ، بيروت ، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع ، د . ت .
- ٥٢ - خير الدين الزركلي ، الأعلام ، بيروت ، دار العلم للملايين ، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٩٢ م ، ط ١٠ .

- ٥٣- سامي عابدين ، الاتجاهات الأدبية في قصر المأمون ، مطبعة دار العلوم العربية ، د. ت .
- ٥٤- شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦ م ط ١٤ .
- ٥٥- صلاح الدين الهادي ، اتجاهات الشعر في العصر الأموي ، القاهرة ، دار الثقافة العربية ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
- ٥٦- الطاهر أحمد مكي ، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، القاهرة ، دار المعارف ، د. ت ، ط ٣ .
- ٥٧- الطاهر أحمد مكي ، دراسة في مصادر الأدب ، القاهرة ، دار المعارف ، د.ت.
- ٥٨- طه حسين ، حديث الأربعاء ، القاهرة ، دار المعارف ، د.ت ، ط ١٤ .
- ٥٩- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، مقدمة ابن خلدون ، بيروت ، دار القلم ، ١٩٨٤ م ، ط ٥ .
- ٦٠- عز الدين إسماعيل، في الشعر العباسي الرواية والفن، المكتبة الأكاديمية، د.ت .
- ٦١- علي بن جليلة ، ديوان ، جمع وتحقيق وتقديم ، حسين عطوان ، دار المعارف ، د. ت ، ط ٣ .
- ٦٢- علي محمد هاشم ، الأندية الأدبية في العصر العباسي في العراق حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٧ م .
- ٦٣- كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، نقله إلى العربية ، عبدالحليم النجار ، القاهرة ، ١٩٦١ م ، د. ت .
- ٦٤- محمد أبو الأنوار ، الشعر العباسي ، تطوره وقيمته الفنية ، مكتبة الشباب ، ١٩٨٣ م .
- ٦٥- محمد بن سعيد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري ، الطبقات الكبرى ، بيروت ، دار صادر ، د. ت .

- ٦٦ - محمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبدالله ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، ومحمد نعيم العرقسوسي ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٣ هـ ، ط ٩ .
- ٦٧ - محمد بن علي بن طباطبا العلوى المعروف بابن الطقطقى ، الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، بيروت ، دار صادر ، د.ت .
- ٦٨ - محمد عبدالعزيز الموافي ، حركة التجديد في الشعر العباسي ، مكتبة الشباب ، ١٩٩١ هـ .
- ٦٩ - محمد عبد المنعم خفاجي ، الحياة الأدبية في العصر العباسي ، القاهرة ، نشر رابطة الأدب الحديث ، ١٩٠٤ م ، ط ١ .
- ٧٠ - محمد مصطفى هدارة ، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، بيروت ، مطبعة دار العلوم العربية ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، ط ١ .
- ٧١ - محمد مصطفى هدارة ، المأمون الخليفة العالم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ م .
- ٧٢ - المرزباني ، محمد بن عمران بن موسى بن سعيد ، الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء ، تحقيق : علي الباجوي ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٦٥ م .
- ٧٣ - مروان بن أبي حفصة ، ديوان ، جمع وتحقيق وتقديم : حسين عطوان ، دار المعارف ، د.ت ، ط ٣ .
- ٧٤ - المسعودي،أبو الحسن علي بن الحسين بن علي،مروج الذهب ومعادن الجوهر،تحقيق:محمد محى الدين عبد الحميد،مصر،مطبعة السعادة ، د.ت ، ط ٣
- ٧٥ - مصطفى الرافعى ، حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهرة ، بيروت ، منشورات الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ م .
- ٧٦ - مصطفى الشكعة ، الشعر والشعراء في العصر العباسي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، د.ت .
- ٧٧ - المفضل الضبي ، المفضليات ، القاهرة ، طبعة دار المعارف ، ونسخة طبعة المطبعة الرحمنية بمصر ، ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م .

- ٧٨ منصور الرفاعي عبيد ، مكانة المسجد ورسالته ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، د.ت .
- ٧٩ ول ديوانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، اختارته وانفقت على ترجمته الإدارية الثقافية في جامعة الدول العربية ، ١٩٧٤ م ، ط ٣ .
- ٨٠ ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، القاهرة ، دار المأمون ، عنایة ، أحمد فريد الرفاعي ، نسخة طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . ونسخة دار الفكر العربي ، ط ٣ .
- ٨١ يوسف خليف ، تاريخ الشعر في العصر العباسي ، القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨١ م .